كتابي

١٠ قروش

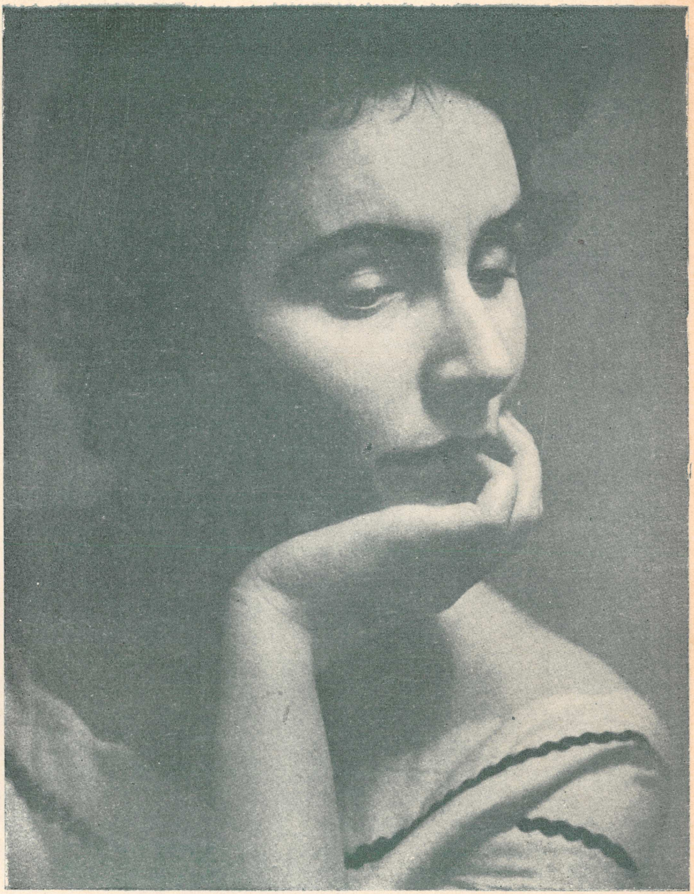


حلمي مراد

الأمومة ! (بريشة الأم " مدام فيجيه لوبران ")



عينان .. وعينان ! لوحة فوتوغرافية للفنانة « الما ستيرنى »



فيم تفكر ؟

لوحة فوتوغرافية للفنان « نورمان تدجاى »

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر

صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار الكتاب

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثانى والاربعون (السنة الرابعة) : سبتمبر ١٩٥٥

الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأالتفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول ـ ١٤ شارع ٢٦ يوليو ـ بالقاهرة

تليفون : ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

أعـــداد نفـدت

الكتب الستة الاولى ، والادارة مستعدة لشرائها ٠

أعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السابع « **عشيقة نابليون** » ، والثامن « **مذكرات كيوبيد** » ، والتاسع « **صنم تحطم** » ، والعاشر « **حديقة الله** » ، والحادى عشر « **عندما تحقد المرأة** » ، والثانى عشر « **لعبة الحب والموت** » ، والثالث عشر « **توبة خاطئة** » ، والرابع عشر « **أيها الربيـــع ترفق** » ، والخامس عشر « **الشـــيطان على الارض** » ، والسادس عشر « **ليدى هاملتون** » ، والسابع عشر « **الارملة المرحة** » ، والثامن عشر « **حياة جورج صاند** » والتاسع عشر « **حياة سارة برنار** » ، والعشرون « **رباعيات عمر الخيام** » ، والحادى والعشرون « **حياة بتهوفن** » ، والثـــانى والعشرون « **حياة موسولينى** » ، والثالث والعشرون « **كوخ العم توم** » ، والرابع والعشرون « **الزوج والعشيق** » والخامس والعشرون « **البوهيمية** » ، والسادس والعشرون « **فتاة لها ماض** » ، والسابع والعشرون « **ترويض النمرة !** » ،والثامن والعشرون « **فن الحب** » ، والتاسع والعشرون « **الجريمة والعقاب** » ، والثلاثون « **المنافق** » (**طرطوف**) ، والحادى والثلاثون « **أميرة مصر** » ، والثانى والثلاثون « **الامطار** » ، والثالث والثلاثون « **أفروديت** » ، والرابع والثلاثون « **أقنعة الحب السبعة** » ، والخامس والثلاثون « **سالومى** » ، والسادس والثلاثون ، والسابع والثلاثون ، والثامن والثلاثون ، والتاسع والثلاثون ، والاربعون،والحادىوالاربعون

◆ **وتطلب** من ادارة كتابى : ١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد (من العدد ٧ الى ٢٤) ١٠ قروش خالصا أجر البريد (المسجل) ماعدا الاعداد ١٣ و١٦ ، وثمن كل منهما ١٢ قرشا ، والعدد العاشر ، والعدد العشرون ، وثمن كل منهما عشرون قرشا ٠٠ وابتداء من العدد ٢٥ ثمن كل نسخة بالبريد المسجل ١٢ قرشا

◆ **ملاحظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بشيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبل العملة الاجنبية أو أذون البريد الخارجية٠ وتحرر الاذون والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا**

مطبوعات كتـــابى

١ ـ قصة مدينتين   **٢ ـ ذات الثوب الابيض**

٣ ـ الخـــالدون   **٤ ـ الخاطئة**

٥ ـ حياة امرأة (الجزء الاول)   **٦ ـ حياة امرأة (الجزء الثانى)**

وثمن كل من الاول والرابع ، عشرون قرشا خالصا أجر البريد المسجل (نظرا لوشك نفادهما) ، والثانى ١٢ قرشا ، والثالث والخامس والسادس عشرةقروش، خالصة أجر البريد ٠

« كتابى » يشترى الاعداد الخمسة الاولى من القراء !

نظرا لالحاح الكثيرين من القراء فى طلب الاعـــداد الخمســة الاولى من « كتابى » ، ولتعذر اعادة طبعها فى الوقت الحاضر ، ولما كان لا يبعد أن يكون لدى البعض أكثر من نسخة من الاعداد المذكورة ٠٠ فقد رأت ادارة « كتابى » **أن تعلن عن استعدادها لشراء أى عدد من نسخ الاعداد الخمسة الاولى ، تمهيدا لتمكين من تنقصه الاعداد المذكورة من اقتنائها بعد ذلك من الادارة ٠ فالرجا الاتصال بالمجلة فى هذا الشأن ، على أن يكون تسليم النسخ اليها حضوريا أو بالبريد المسجل ٠**

الاشتراك فى « كتابى »

◆ **ترسل** جميع الاعداد الى المشـتركين : بالبريد المسجل ٠ وقيمـة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥ قرشا ـ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والاردن الخ ٠٠) ترسل القيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية **Money Order** عن طريق مكاتب البريد وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ٠ وفى الحجاز والكويت وعدن وحضرموت واليمن وقبرص وانجلترا وأمريكا وفرنسا واستراليا قيمة الاشتراك ١٦٠ قرشا (عن سنة) خالصة أجر البريد ، وفى ألمانيا ١٦٠ قرشا (عن سنة) بخلاف أجر البريد الجوى



نافذة "كتابي" تطل على العالم :

رأيت وسمعت لك في أوربا

للمحرر

البحيرة التى تربط بين ثلاث دول !

• فى العدد الماضى فرغت من حديثى عن (فيينا) ، عاصمة النمسا والموسيقى ، والرقص والغناء ، وتنقلت واياك بين ضواحيها المختلفة الخلابة : جرينتزج ، وكالنبرج ، وسمرنج ، ومايرلنج ٠٠ واليوم نغادر العاصمة النمسوية سويا الى عروس المدن السويسرية (زيوريخ) ، مارين بكل من مدن (بريجنز) ، و (لنداو) و (كونستانز) ، عبر بحيرة كونستانز الرائعة ، وشلالات الراين الجبارة فى (شافهويزن) ٠٠ فتعال معى نجوب كل هذه المناطق ، كيما ترى العالم من نافذة « كتابك » :

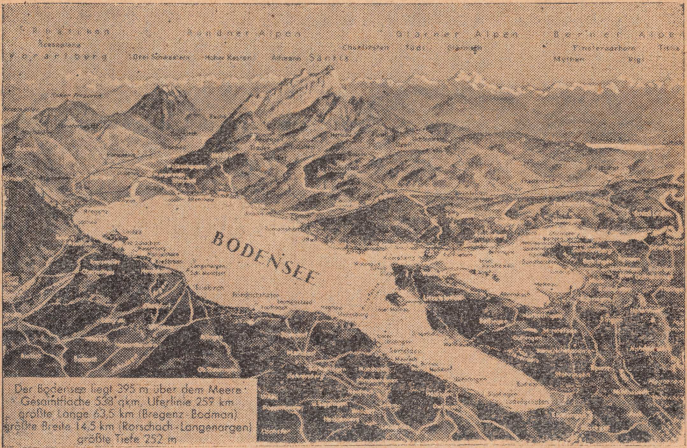
بريجنز ٠٠ الراقدة على ضفاف البحيرة

• **كان** على أن أبرح (فيينا) ، آسفا ، فى قطار منتصف الليل ، كى أبلغ الحدود النمسوية الألمانية ظهر النهار التالى ٠٠ فاحتللت مقعدى وحاولت ان أنام ، كما فعل كل من حولى ، لكنى لم أستطع ـ رغم التعب الذى كنت أحسه ـ فسألت عما اذا كانت توجد عربة نوم ملحقة بالقطار ، وعما اذا كان بها فراش خال ٠٠ ولحسن حظى وجدت العربة والفراش ، وكان الفراش « الأعلى » فى المقصورة ٠٠ ولثانى مرة ، كان يحتل الفراش الأسفل رجل نمسوى ينام ونصفه الأعلى عار تماما من أية « بيجاما » أو « فانلة » ، ودون ان يغطى جسمه حتى بملاءة خفيفة ٠٠ فى الوقت الذى كان فيه الطقس يشابه طقس مصر فى أواخر نوفمبر ! ٠٠ وأدركت من تكرار هذه الظاهرة التى حدثتك عنها فى عدد سابق ، الى أى حد يتمتع النمسويون ـ رغم الفاقة التى يعانونها ـ بصحة «فولاذية» !

وصحوت من نومى وقد اقترب القطار من (اينزبروك) ، حيث توقف فترة ليحول اتجاهه ، ثم استأنف سيره نحو الحدود الألمانية ، تحف به الجبال والوديان التيرولية البديعة ٠٠ حتى وقف بنا بعد الظهر بقليل فى محطة (بريجنز) ،

آخر بلدة تدخل فى حدود النمسا من الناحية الغربية ٠ وهى بلدة صغيرة مثل عشرات البلاد النمسوية والألمانية الاخرى ، الجميلة ، التى تبهرك أول ما تبهرك فيها نظافتها التامة ٠٠ نظافة شوارعها ، ومبانيها ذات الطابع العريق العتيق ، وأهلها المرحين الأصحاء ٠٠ الخ ٠ على أن بريجنز تمتاز عن سواها بأن لها ماضيا تاريخيا مذكورا ، فقد جرت فيها بعض الاحداث الهامة فى عصر الرومان وأيام بطليموس ـ وكانت يومئذ تدعى (بريجانزيام) ـ وقد عثر فيها ، عام ١٨٦٢ ، على الكثير من المخلفات الهامة التى ترى الآن فى متحفها الاقليمى ، ومن بين هذه المخلفات نقود رومانية ، وأشياء تعطى فكرة عن أزياء الثياب القديمة ، وأشياء أخرى تدخل فى باب «التاريخ الطبيعى» ٠٠ ورغم صغر مساحة المدينة ، التى لا يزيد عدد سكانها عن ١٥ ألف نسمة ، فانها تعتبر عاصمة اقليم رئيسى من أقاليم النمسا هو اقليم (جبل فورارل) ٠٠ **على ان أجمل ما فى بريجنز ذلك « الكورنيش » الجميل الذى يشرف على البحيرة ، ويتوسطه متنزه جميل ومقاعد مريحة يتناثر عليها بعض الذين تعبوا من السير الطويل على ضفة البحيرة ساعة الغروب ، حين تستلقى الشمس على صدر البحيرة فتظل تهدهدها حتى تغوص فى جوفها ، فتسدل عليها عباءتها القاتمة ، ويسود السكون ، وينصرف أهل البلدة الهادئة ونزلاؤها ، ليناموا مبكرين ٠٠**

على أن الراغب فى السهر يستطيع أن يجد مبتغاه فى «أقبية» بعض فنادق (بريجنز) ذات الطراز الكلاسيكى الجميل ، الشبيه بالطراز الانجليزى العتيق المسمى Old English ، ففى كل فندق من هذا الطراز « قبو » جميل تتناثر فيه بعض موائد يجلس حولها النزلاء أو الزائرون لينصتوا الى احدى الأغانى « التيرولية » الشجية تنبعث من حنجرة فلاحة نمسوية حسناء ترتدى زى سكان الجبال ٠٠ أما الراغبون فى



خريطة مجسمة لبحيرة (بودن) التى تتوسط النمسا وسويسرا والمانيا ..
وقد بدت تضاريس المناطق المحيطة بها من جبال الألب

اللهو الراقص الصاخب على أنغام « الجاز » فلن يعدموا ملهى من هذا النوع يرقصون فيه حتى الصباح !

ويقام فى (بريجنز) بين منتصف يوليو ومنتصف أغسطس من كل عام ، مهرجان للألعاب المائية فوق صفحة البحيرة ، تمثل خلاله روايات غنائية من نوع « الاوبريت » على خشبة عائمة تثبت فى الخليج ، وتسلط عليها « الكشافات » ذات الأنوار القوية .. بينما يقام مدرج هائل على الشاطىء ليجلس فيه المتفرجون ..

ومن أمتع نزهات (بريجنز) الصعود بالمصعد الطائر الى المقهى القائم فوق قمة جبل يبلغ ارتفاعها ألف متر ، حيث يشرف المرء منها على أروع منظر للبحيرة ، وللغابات المحيطة بالبلدة ، ونهر الراين الذى يشق طريقه بالقرب منها ..

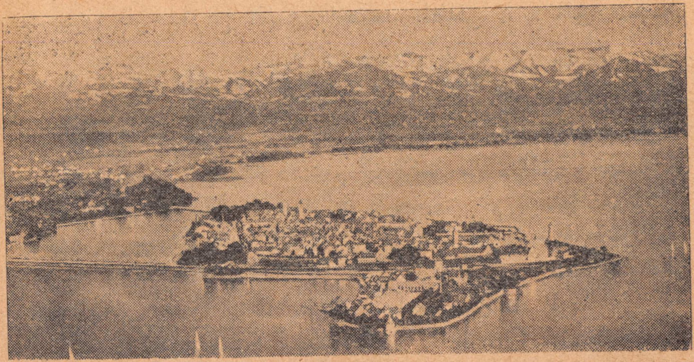
وتستغرق الرحلة الى القمة بالمصعد الطائر ٨ دقائق ممتعة حقا ..

كناسات .. وجزارات .. فاتنات !

◆ **والآن** ، تعال معى نغادر النمسا الى ألمانيا . ان الحدود الفاصلة بينهما لن يستغرق عبورها أكثر من دقائق ، نقضيها على ظهر سفينة أنيقة من عابرات البحيرة ، ثم ترسو بنا السفينة فى أقرب بلدة ألمانية الى النمسا من ناحية حدودها الغربية ، وتدعى (لنداو) .. وهى شبه جزيرة تمتد مسافة وسط البحيرة . وأول ما يلفتك فيها حين تهبط اليها لوحة كبيرة كتبت عليها أسماء جميع فنادق البلدة ، وأسعارها ، وبيان بالغرف الخالية بكل منها ، ان وجدت ـ وهذا البيان الأخير يعدل كل صباح ، وفقا لتنقلات القادمين والمسافرين ـ وهكذا تستطيع بنظرة واحدة الى اللوحة ان توفر على نفسك



فريق من المصريين والألمان ، على ظهر السفينة التى تعبر بحيرة (كونستانز) من مدينة (بريجنز) بالنمسا الى (لنداو) بالمانيا



تبرز مدينة (لنداو) فى نتوء يشق البحيرة على هذا النحو الرائع ٠
ويربطها بالأراضى المحيطة جسران كما ترى فى الصورة

مشقة المرور على جميع الفنادق للبحث عن غرفة لك فيها ! ٠٠
كما تستطيع ان تحكم على مدى اهتمام تلك الشعوب بالنظافة، اذا تأملت « نصاعة » الشوارع التى تسير فيها ، فأنت لن تجد فيها ورقة واحدة ملقاة ، أو تذكرة ترام ممزقة ، أو عود كبريت ، أو عقب سيجارة ! ٠٠ فان ذلك كله يلقى فى سلال المهملات المعلقة فى كل مكان ٠ وحسبك نظرة الى الصور التى التقطتها لك فى تلك البلدة الصغيرة ، والتى تراها تتخلل هذا المقال ، لتأخذ فكرة عن « الكناسة » الحسناء التى تبدو فى نظافة الممرضات ! ٠٠ و « الجزارة » الرقيقة التى تحرص على ان يكون حانوتها فى نظافة حانوت العطور — حتى لتضع على منضدته الرخامية الطويلة آنية للزهور بها أنواع من الأبصال والأزهار النادرة الغالية ! — بل تأمل معى تلك الصورة الثالثة لعاملة المتجر ، التى رأيتها تبدأ

يومها فى ذلك الصباح الجميل بتسلق سلم تستطيع من قمته أن تنظف سقف المظلة الخارجية للمتجر ـ وأغلب الظن انها تفعل ذلك كل صباح ! .. ولو أردت ان احصى لك الأشياء التى من هذا القبيل والتى استرعت انتباهى خلال الجولة العابرة التى جلتها فى (لنداو) ، لملأت وحدها صفحات .. ولكن انظر معى الى هذا المتنزه الجميل الذى ترى صورته خلال المقال، والذى يليق بأعظم القصور « الملكية » ، من حيث تنسيقه وجماله.. هل تصدق انه متنزه عادى مفتوح للجمهور طوال النهار ، ومع ذلك فأنت لا تجد فيه ورقة مهملة ، أو قاذورات ملقاة ، أو قشرة برتقالة أو موزة ، أو بقايا وجبة طعام ؟!



« كناسة » حسناء تكنس أحد شوارع (لنداو) بألمانيا ، وقد بدت فى مرولتها الناصعة فى نظافة الممرضات

.. فاذا عدنا الى السفينة بعد هذه الجولة العابرة ،



جزارة أنيقة تقف بجوار واجهة حانوتها النظيف اللطيف ، الفاتح للشهية !

استأنفت سيرها بنا عبر البحيرة نفسها ، مارة أمام شواطىء الكثير من البلاد الصغيرة المطلة عليها ، ومن بينها بلدة (فريدركسهافن) – حيث كانت تصنع مناطيد « زبلن » – حتى تنتهى الى مدينة (كونستانز) التى اطلق اسمها على البحيرة ، وهى مدينة تفوق (لنداو) أضعافا فى المساحة وتعداد السكان ، وتزدحم بالمقاهى ، والمتاجر ، والمكاتب التى تمثل الشركات الصناعية والتجارية الكبرى فى أنحاء ألمانيا .. ومن أطرف المبتكرات الصناعية التى رأيتها معروضة فى واجهة احد متاجرها سيارة صغيرة بثلاث عجلات فقط ، تتوسط بين السيارة و (الفسبا) ، ولا أدرى لماذا لم تدخل هذه السيارات ذات الفائدة العملية والثمن المعقول ، مصر .. حتى الآن

ومرة أخرى ، رأيت فى (كونستانز) تلك اللوحة النافعة التى رأيتها من قبل فى (لنداو) ، والتى ترشد السائح الى فنادق المدينة ، وأسعار كل منها ، والأماكن الخالية به –

ويبدو ان هذا التقليد معمم فى جميع المدن الالمانية. كما ان من أفضل وسائل الراحة التى رأيتها فى (كونستانز) « غرف » لانتظار سيارات الاتوبيس فى الشوارع ، تتخلل صفوف الحوانيت ، أى أنها أشبه بحانوت مواجه لمحطة الاتوبيس ، تدخل اليه من الشارع فتجد فيه صفوفا من المقاعد صفت تحت الجدران ، كى تجلس عليها فى انتظار مرور الاتوبيس ، أو للراحة من السير الطويل حين يدركك التعب – فان أحدا لن يطالبك بالنهوض مهما طال بقاؤك ..

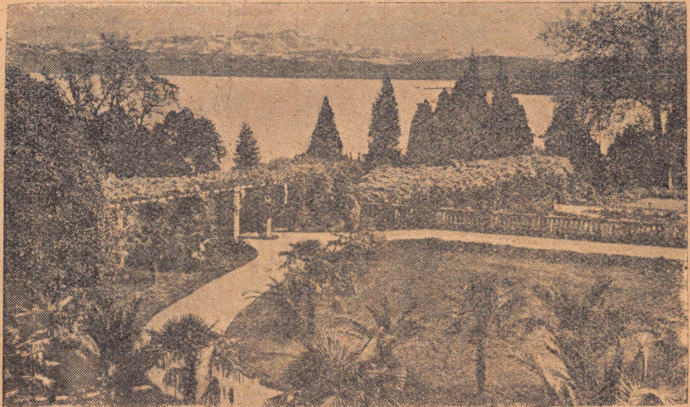


عاملتان بأحد متاجر (لنداو) ، تنظفان واجهة المتجر ، التى لا تنقصها النظافة !

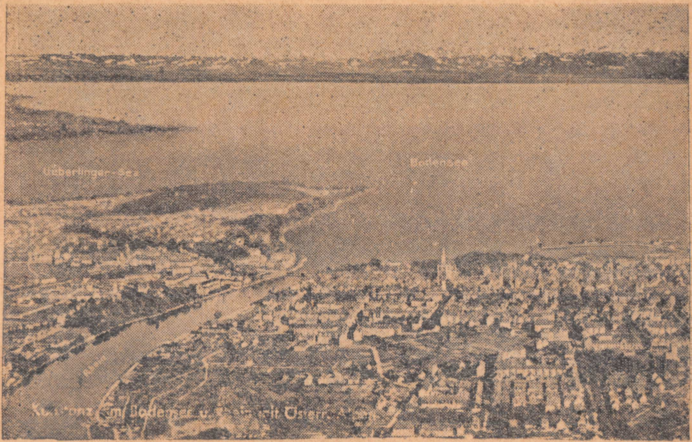
جيران .. ولكن !

◆ على ان أعجب ما يستحق المشاهدة فى (كونستانز) ، السلسلة الحديدية الفاصلة بين حدود ألمانيا وسويسرا .. ففى أحد شوارع هذه المدينة ترى سلسلة حديدية تقطع الطريق ، وقد وقف بجوارها بعض الجنود والضباط .. وكم

تكون دهشتك حين تعلم انك باجتيازك السلسلة تكون قد انتقلت من ألمانيا الى سويسرا ، أو العكس ٠٠ وان الشارع المذكور من تلك المدينة يقع جزء منه فى ألمانيا ، والجزء الآخر فى سويسرا ! بل ان البيتين المتجاورين اللذين تفصل بينهما تلك السلسلة الحديدية البسيطة ، يقع أحدهما فى دولة ، والثانى فى دولة أخرى ٠٠ لكن بين الدولتين ، أو البيتين ، أو جزئى الشارع الواحد ، عقبات يستلزم تخطيها ابراز جواز السفر ، والحصول على تأشيرة خروج من احدى الدولتين ، وتأشيرة دخول فى الدولة الاخرى ، الى آخر اجراءات السفر المعقدة ، وقيود العملة المختلفة ، وغير ذلك ! ٠٠ وقد وقفت أمام تلك السلسلة افكر : ان سكان تينك المنزلين يعتبرون « جيرانا » ، ومع ذلك فان الاسرة السويسرية منهما تعيش منذ قرون فى سلام دائم لم تعكره حروب عالمية ، لا أولى ولا ثانية ٠٠



حديقة غناء يستمتع بها سكان مدينة (لنداو) الالمانية ، ورغم انها مفتوحة دائما للجمهور فأنت لا ترى فيها « قشة » واحدة ملقاة على الارض، أو زهرة واحدة تقطف منها !



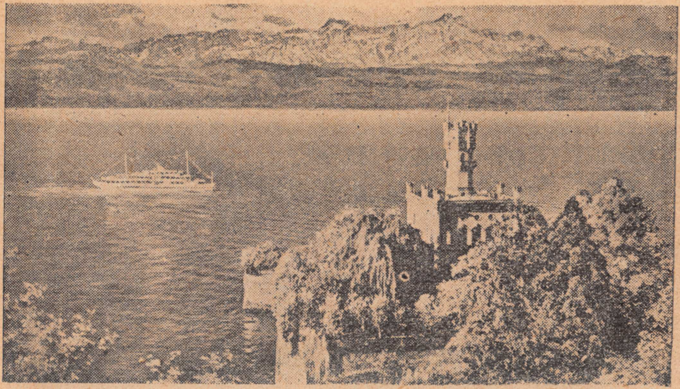
منظر لشطرى مدينة (كونستانز) اللذين يفصل بينهما نهر الراين . وتطل المدينة على بحيرة (بودن)

بينما الاسرة الألمانيـــة المجاورة لها قد عانت ويلات حــــرب بين طاحنتين ، وبلايا متنـــوعة ، وكوارث ، وفواجع ترمل أو يتم تنفطر لها القلوب !

لعلها أقوى مفارقة صارخة من مفارقات « الجـــوار » ، فى العالم بأسره !

الدولة المحظوظة .. سويسرا

◆ **والآن** ، هلم نجتاز الحـــدود الى الدولة المحظوظة : سويسرا ! .. انها احدى الدول الأوربية القليلة التى تعرف كيف تعيش فى سلام دائم ، بمعزل عن السياسة الدوليـــة المعقدة التى تنكب الدول المحيطة بها من كل جانب ، وبمنجى من الحروب والكوارث ! .. والطريق ، من كونستانز – أو بريجنز – الى (زيوريخ) يقل ، من حيث جمـــال الطبيعة



قصر « مونفور » المشيد فوق ربوة جميلة تشرف على بحيرة بودن

الجبلية ، عن منطقة « التيرول » بشقيها ، سواء فى جنوب النمسا أو شمال ايطاليا ٠٠ لكنه يتفوق عليها فى شىء واحد : هو أناقة المساكن والفيللات المتناثرة فوق الجبال ، فان كل فيللا منها تنافس الاخرى فى روعة تصميمها وبنائها وأناقة « تشطيبها » النهائى ، بحيث يصعب عليك ان تصدق انك فى « ريف » الدولة ولست فى ضاحية من ضواحى عاصمتها الكبرى ٠٠ وبحيث لا تكاد تجد فارقا بين المظهر الخارجى لأية فيللا منها وبين أجمل فيللا فى مصر الجديدة أو رمل الاسكندرية !

على ان المفارقة العجيبة التى أدهشتنى ، من الناحية الاخرى ، هى رؤية عدد من الصبية الصغار الذين لا تتجاوز سنهم السادسة ، يعبرون الطريق فى هيئة « طابور » ، متجهين الى مدرستهم ٠٠ فاذا نفر منهم حفاة الأقدام ! ولم أكن أعلم ان فى سويسرا حفاء ، وبين طلبة المدارس بالذات !

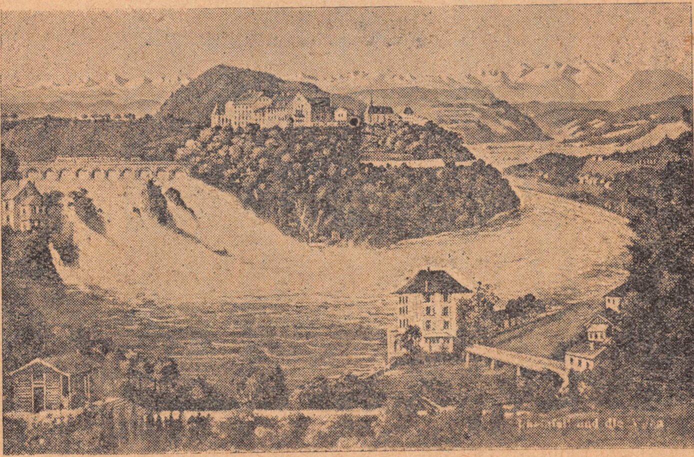
والظاهرة التى تلفت النظر ، على ذكر الطلبة والتعليم ، هى كثرة عدد مدارس الأطفال فى القرى السويسرية ٠٠ فأينما

تمر بك السيارة تجد لافتة رقيقة تطالبك بتخفيف السرعة ، لان بالقرب منها مدرسة للأطفال قد يعبر تلاميذها الطريق فى أية لحظة ..

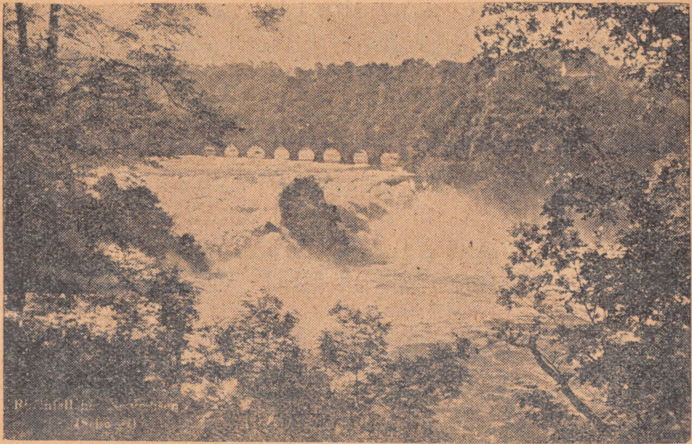


فى اطار رائع من الطبيعة الخلابة والهواء الطلق ، يتلقى هؤلاء الصبية دروسهم فى احدى مدارس زيوريخ الابتدائية

ثم تدنو السيارة من مدينة (شافهويزن) ، حيث مساقط شلالات نهر الراين ذات الشهرة العالمية والقوة الجبارة ، التى تستخدم فى توليد الكهرباء وادارة المصانع فى منطقة كبيرة من ذلك الاقليم ٠٠ فاذا دخلت المدينـــة لمست مدى اهتمـــام السلطات فيها باستغلال تلك الشـــلالات من ناحية أخـــرى «تجارية» ، هى اجتذاب السائحين الى زيارتها ، والعناية بتسهيل الأمر عليهم وتوفير أقصى وسائل الراحة لهم أثناء الزيارة ٠٠ فأينما ادرت بصرك فى شوارع المدينة وطرقاتها تجد لافتـــة عليها سهم يشير الى أقرب طريق يؤدى الى الشلالات ، والى جوار السهم هذه الكلمة الرنانة « مساقط الراين » ٠٠ « مساقط الراين » ٠٠ عشرات المرات ، وعشرات الأسهم واللافتات ٠٠ الأمر الذى يوحى بمدى اعتزاز القوم بتلك المساقط واغرائهم للسياح كى يزوروها ٠



مساقط شلالات نهر الراين ، يهدر هديرها وسط اطار خلاب من الجبال والغابات والقصور المتناثرة



منظر آخر لشلالات الراين بمدينة (شافهويزن) بسويسرا

فاذا هبطت من السيارة عند احد الممرات المؤدية الى مكان الشلالات ، مضيت فى طريق ينحدر بك وسط الأشجار الكثيفة الى حيث تنكشف أمامك بعد حين مساقط المياه الهادرة الجبارة ، وقد أقيمت المقاهى فى المكان المشرف عليها ، وزودت بكافة ألوان الطعام والشراب والصور التذكارية وبطاقات البريد ، وكل ما يحتاج اليه السائحون فى رحلاتهم ..

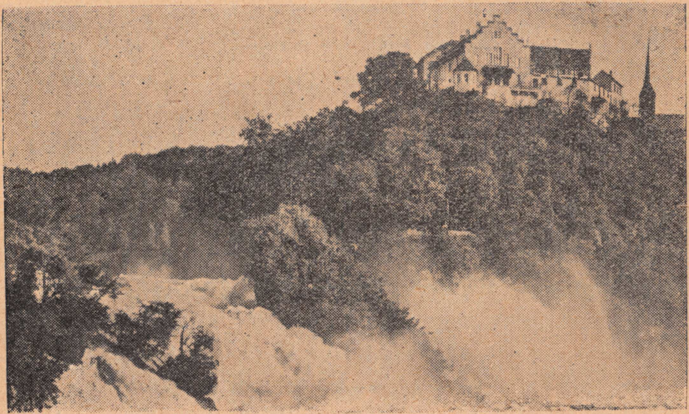
فاذا تمليت من منظر الشلالات ، والغابات المحيطة بها ، والقصر العريق المطل عليها - وترى صورا لها كلها مع هذا المقال - فتعال نغادر المكان والمدينة بأسرها ، فى طريقنا الى (زيوريخ) ، عاصمة القطاع الألمانى من سويسرا - (فان هذه الدولة المحايدة ، تتألف من قسمين رئيسيين : قسم مجاور لألمانيا ، يتكلم أهله الألمانية ، ويقربون من الألمان فى طباعهم وعقليتهم .. وقسم مجاور لفرنسا ، يتكلم أهله الفرنسية ،

ويحاكون فى طباعهم الطباع الفرنسية ٠٠ بل ان من أهل سويسرا من يتكلم الايطالية ، بحكم قرب موطنه من الحدود الايطالية !)

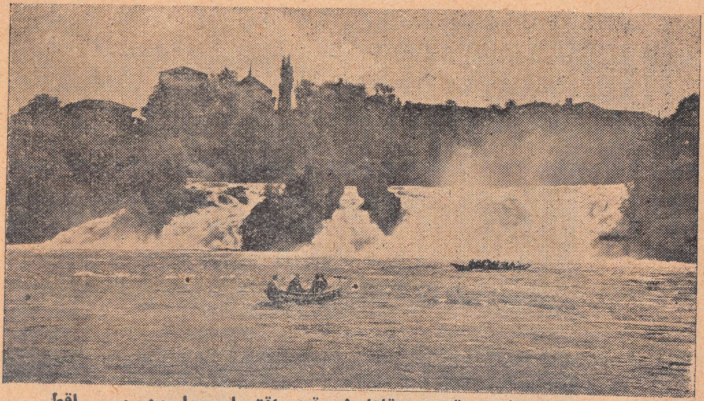
وتمضى السيارة تهبط تدريجا كلما اقتربت من (زيوريخ) ، حتى يطالعك أول ما يطالعك مطار المدينة العالمى النادر المثال ، وقد اصطفت أمامه « مئات » السيارات ، على نسق رائع لا يكاد يعرف نظير له فى مطار آخر من مطارات أوربا ٠٠ فاذا خلفنا وراءنا منطقة المطار وقطعنا فراسخ أخرى من الطريق، ترامت أمامنا مشارف مدينة زيوريخ ، أنظف وأجمل عواصم أوربا بغير نزاع !

النظافة ٠٠ « المجنونة » !

◆ **واذا** أردت ان تصف (زيوريخ) بكلمة واحدة ، فان أحق كلمة تقال فيها ، وأقرب وصف أو صفة تعبر عنها هى « النظافة » ٠٠ النظافة المطلقة ، المثالية ، الجنونية ! ٠٠ فهى



مياه الشلالات تنثر بخار أمواجها الهادرة ، يشرف عليها هذا القصر المنيف الذى كان قلعة قديمة

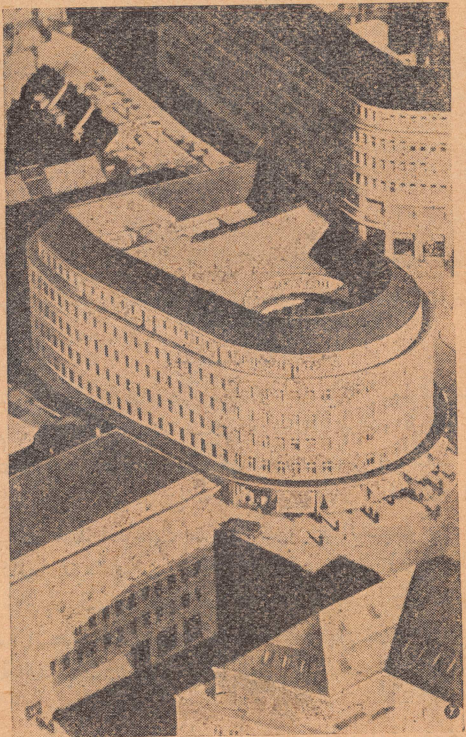


جماعتان من السائحين قد استقلتا زورقين اقتربا بهما من مساقط الشلالات ..

بغير نزاع أنظف عاصمة فى أوروبا - (ربما باستثناء « ستوكهلم » عاصمة السويد فى الشمال) .. فأنت تسير فى المدينة ساعات وساعات ، على قدميك ، دون ان تعثر بأى شىء ملقى فى الطريق ، أو ترى حولك غير المبانى اللامعة البراقة - وكأنها شيدت منذ ساعات - والشوارع الشبيهة بصقال المرآة - وكأنها غسلت منذ ثوان ! - وعربات الترام التى يخيل اليك انها خارجة لتوها من المصنع ! .. أما المارة فكلهم يرتدى ثيابا ناصعة النظافة ، تشرح الصدر .. بل ان « مثالية » القوم فى النظافة قد بلغت حدا تستطيع ان تتصوره من القصة التالية :

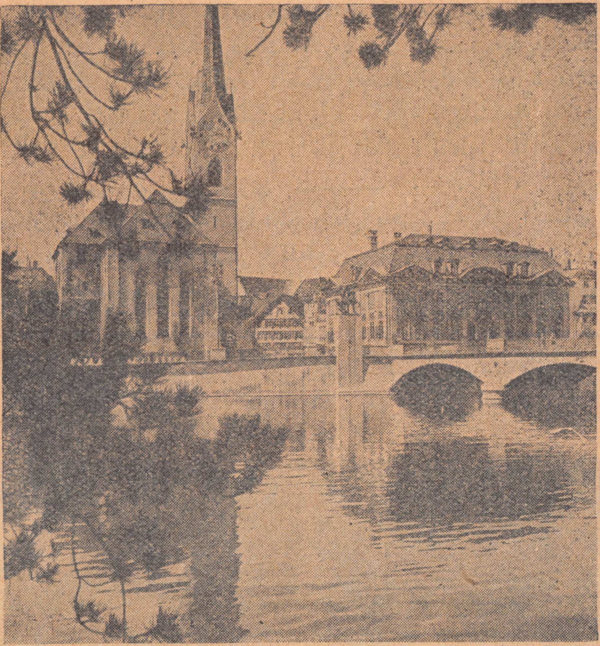
سألت عن أقرب مطعم أستطيع ان أتناول فيه شيئا من الطعام ، فأرشدنى أحدهم الى مطعم المحطة ، احدى المحطات - (ففى زيوريخ ٣ محطات كبرى ، تتفرع عنها خطوط السكك الحديدية الى كافة أنحاء أوربا) - وأشار لى أحدهم الى مكان

المطعم ، فاذا به فى احد الطوابق العليا بمبنى المحطة ، تصعد اليه بالمصعد .. ثم تدخل احدى قاعات المطعم ، فاذا به أشبه بأفخم قاعة طعام ، فى أفخم فندق عالمى : الاضاءة مستترة فى



تعتبر زيوريخ من حيث فخامة مبانيها العصرية أجمل عواصم أوربا على الاطلاق .. واليك نموذج لمبنى حديث يدل على مدى تقدم فن المعمار فيها

٨

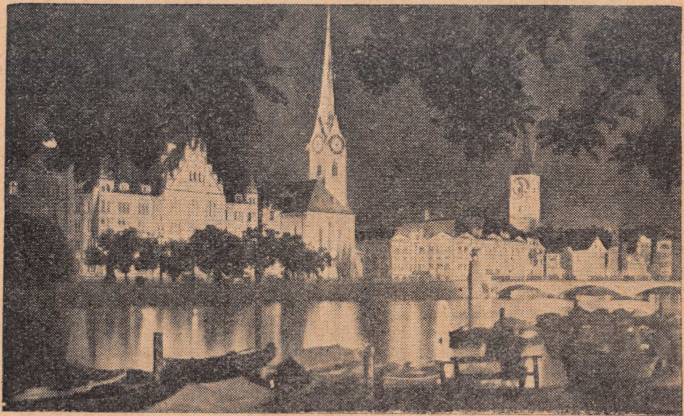


على ضفة بحيرة (ليما) التى تتوسط زيوريخ ، يقوم هذان البناءان المشيدان من طرازين مختلفين : أحدهما رومانى ، والثانى محلى ، ينتمى الى فن زيوريخ العتيق المسمى « باروك »

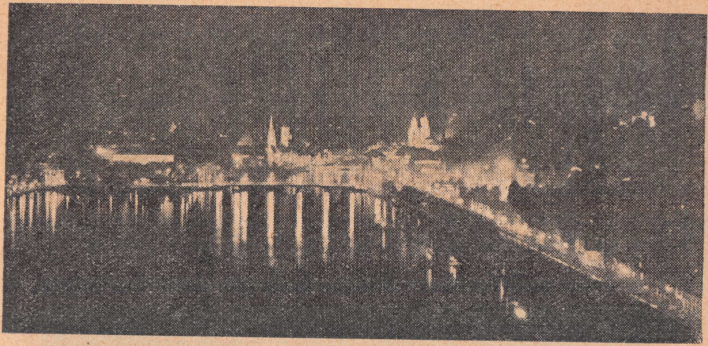
السقف ، والستائر على النوافذ من أغلى حرير ، والأبواب تنزلق الى داخل الحائط فى نعومة لا تسمع لها أدنى صوت .. وتصميم البناء ، والأثاث ، والأخشاب ، و « السرفيس » ، كله من أجمل طراز .. ثم الخدمة ! انها جديرة بأن تجعل من سويسرا موطنا لأشهر « مدارس » ادارة الفنادق .. على ان

ذلك كله يهون الى جانب هذا المثال البسيط الذى يوحى بتقديس القوم للنظافة : فانك اذا مضيت لتغسل يديك ، قبل تناول الطعام وبعد تناوله ، الفيت بجوارك « بكرة » تدور فتخرج لك منها منشفة مغسولة و « مكوية » بالنشاء ، تجفف بها يديك ثم تدعها فتمرق الى داخل البكرة ليظهر للقادم بعدك جزء آخر منها نظيف ومكوى بالنشاء ، وهكذا ، لا يجفف شخصان يديهما بمنشفة واحدة ، بل يجد كل انسان فى متناوله منشفة معقمة تظهر وتنطوى بطريقة آلية دون ان تلوثها يد انسان !

ثم لم يكف القوم ذلك ، فوضعوا الى جانب المنشفة وسيلة اخرى للتجفيف « المعقم » ، هى جهاز تضع اصبعك على زر فيه فيخرج منه هواء ساخن يجفف يديك فى ثوان ، اذا لم تطمئن الى « تعقيم » المنشفة الاخرى !



منظر ليلى رائع لأحد شوارع زيوريخ المطلة على البحيرة ، وقد بدت على الضفة الأخرى بعض الزوارق المعدة للنزهة فيها ، وبعضها مزود ب « بدال » تديره برجليك كالبسكليت



بحيرة (ليما) كما تبدو أثناء الليل ، وقد انعكست عليها الأضواء من شوارع زيوريخ التى تحيط بها من كل جانب

.. ومثل آخر يدل على مدى عناية السلطات بأناقة المدينة : يمر بك الترام خلال شوارع المدينة ، فاذا على جانبى الشريط متنزهان رقيقان ، نسقت ازهارهما وحشائشهما كما فى اجمل بستان ، ورقدت فى جوانبهما كشافات تسلط اضواءها الى اسفل على الازهار ، فيبدو المنظر فى الليل رائع الجمال

ويحدثك من تلقى من السائحين عن « المتجر الآلى » الذى لا مثيل له فى أية عاصمة أخرى ، فتذهب لتراه بدافع الفضول .. انه محل تجارى فسيح الارجاء ، يقع فى شارع من أهم شوارع المدينة ، ويباع فيه كل مايخطر ببالك من ألوان الطعام والشراب و « الخردوات » والهدايا .. الخ . وتقبل عليه من بعيد فتهم بالرجوع اذ تراه مغلق الأبواب . لكنك لا تكاد تقف على عتبته لترى ان كانت عليه لوحة تبين موعد فتحه ، حتى ينفتح الباب امامك بطريقة آلية ، بتأثير تماس كهربائى احدثه ثقل وزنك حين وقفت على العتبة !.. وتدخل ، فلا تجد بائعين ولا بائعات ، وانما تجد كل ماتبغى شراءه منسقا فى مواضعه

وعلى كل صغيرة أو كبيرة منه ثمنها المحدد . وتجد بجوارك فى كل مكان عربة صغيرة أنيقة تضع فيها كل ما انتقيته أثناء جولتك فى المحل .. حتى اذا بلغت باب الخروج ألفيت صرافة المحل جالسة على مقعدها لتأخذ منك ثمن ما اشتريت وتكلف زميلة لها بأن تحزم لك البضاعة ..

مصر « المنسية » فى أوربا !

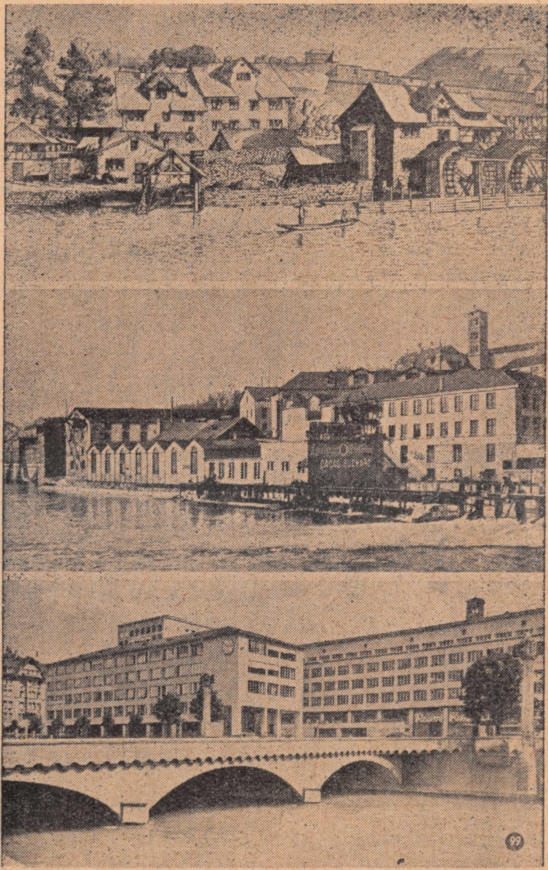
• ثم تخرج لتطوف بشوارع المدينة فى المساء ، فاذا بحيرة



المبنى الرائع لأحد مسارح زيوريخ الفاخرة كما يبدو ليلا .. وبالمسرح جناح للتمثيل ، وآخر للرقص ، وثالث للاستعراضات الخفيفة .. الخ

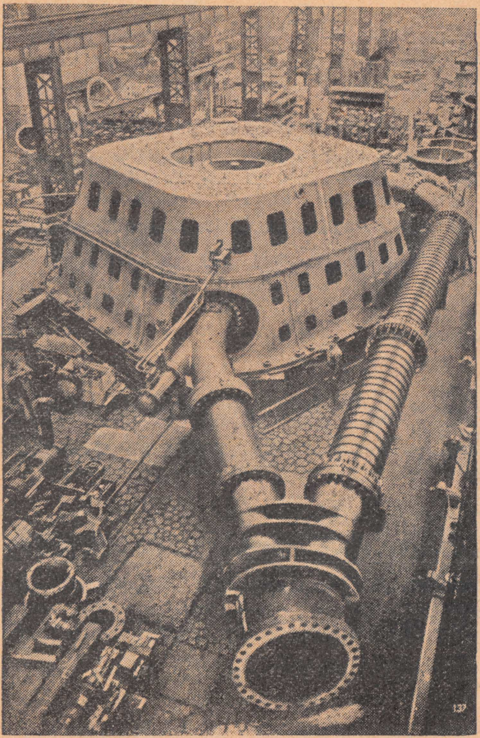
زيوريخ الخلابة ترقد فى قلب المدينة ساجية الصفحة ساكنة المياه ، وقد انتثرت عليها الزوارق الصغيرة تتهادى براكبيها فى هدوء ٠٠ أتريد أن تستقل أحدها ؟ اذن تعال الى احدى هذه المحطات الصغيرة المشرفة على البحيرة ، لتدفع أجر الساعة أو نصف الساعة أو ربعها الذى تود أن تقضيه فى النزهة ٠٠ ثم هيا بنا نهبط الى احد الزوارق الراسية ، فيساعدنا النوتى على الركوب ، ثم يرشدنا الى طريقة ادارة « بدال » الزورق الشبيه ببدال « البسكليت » ٠٠ ويتركنا ندخل الى عرض البحيرة بمفردنا دون أن يصحبنا ، مكتفيا بمراقبتنا من بعيد ٠٠ فاذا انتهى الوقت المحدد الذى دفعنا أجره ، عدنا بزورقنا الى المحطة فى سهولة ويسر ٠٠

وجلست فى أحد المقاهى أستريح من عناء التجوال ٠٠فاذا الأعين تختلس النظرات الى هذا الشاب الغريب « الاسمر » الذى هبط المكان ٠٠ وسمعت حولى همسات تتساءل عن جنسيتى : فقال أحدهم « انه هندى ! » ٠٠ واعترض آخر : « بل هو اسبانى » واحتج ثالث : « بل هو ايطالى » ٠٠ وهكذا ظلت تتقاذفنى الجنسيات و « الشبهات » ، فألقت بى على شواطىء : الارجنتين ، وشيلى ، والبرازيل ٠٠ وابتسمت فى سرى لهذا الفضول ، وان أسفت فى النهاية لأن « مصر » لم تخطر ببال أحد من أولئك المتسائلين ، وكأنها دولة لا وجود لها على خريطة أولئك « الجهلة » ! ٠٠ ورحت أسائل نفسى : ترى ما الذى يجعل مصر تغيب عن ذهن شعب كالسويسريين ٠٠ ألندرة عدد السائحين المصريين الذى يزورون تلك البلاد ؟ نعم ، ذلك هو السبب الأرجح كفة بين جميع الاسباب والاحتمالات ، فلاشىء ينشر الدعاية لبلد أو لشعب ويذكر العالم به ، ويجعله على كل لسان ، مثل السياحة ٠٠ انها خير « سفارة » لاى دولة لدى الدول الاخرى ! ٠٠ وفيما انا سارح بخواطرى حول هذا المعنى ، سمعت سيدة كانت على منضدة مجاورة تسألنى فى



ثلاث صور لبقعة واحدة فى زيوريخ تمثل أحد مصانع « الكاكاو » ، وقد تطورت أبنيته هـذا التطور الكبير ثلاث مرات خلال قرن واحد ! .. ففى الصورة العليا ترى المصنع كما كان منذ مائة سنة ، وفى الوسطى يبدو كما كان منذ خمسين سنة ، وفى الصورة السفلى تراه كما يبدو اليوم !

اهتمام : « سيدى ، اسمح لى ان أسألك : هل انت مصرى ؟»
وذهلت ٠٠ فقد جاء « الفرج » أخيرا ، ووجدت فى سويسرا من يعرف لمصر وجودا بين دول العالم !٠٠ وسألت السيدة فى



احدى المضخات الهيدروليكية الجبارة
لدفع الماء بالبخار ٠٠ وتعتبر من مفاخر
التقدم الصناعى فى زيوريخ

اهتمام : « وكيف عرفت انني مصري ، وهؤلاء مواطنوك قد ظنوا بى كل جنسية على وجه البسيطة ، عدا جنسيتى ؟! »

فضحكت السيدة وقالت على الفور ، فى صراحة محببة : « ليس الفضل فى ذلك راجعا الى ذكائى ، بل ان هناك عاملا « شخصيا » جعلنى اعرف شخصيتك ٠٠ فقد كان «حبى الاول» لشاب مصرى !»

٠٠ ثم روت لى قصتها : كان فتاها يدرس الهندسة فى جامعة زيوريخ ، وعرفته ٠٠ فتحابا ٠٠ ثم تخرج صاحبنا ، وعاد الى مصر ، مواعدا فتاته على الكتابة اليها ، والزواج منها حين يجد عملا يكفل لهما حياة هانئة ٠٠ لكنه نسيها ، وصار الآن مهندسا معماريا مرموقا ٠٠ أما هى فقد تزوجت بدورها ٠

وسألتها : « وماذا يعمل زوجك ؟»

أجابت بعد تردد : « انه صاحب « صالون حلاقة » للسيدات »

وقبل أن يبدو على وجهى الرثاء لها ، من جسامة المفارقة ، بادرت تحدثنى عن أحوالهما ٠ انه يربح ربحا وفيرا من عمله - وذكرت لى رقما يفوق دخل الكثيرين من أصحاب المهن الرفيعة فى مصر ! - وعندهما خادم تساعد فى شئون البيت وتعنى بالأطفال ، (والاسرة التى تستخدم خادمة كهذه فى سويسرا تعتبر من الأسر المترفة ، فان مرتب الخادم يبلغ نحو ثلاثين جنيها مصريا !) ٠٠ ومع ذلك فقد كانت فى لهجة محدثتى رنة أسى مكتومة ٠ انها ماتزال تحن الى « حبها الاول » ٠٠ لكنها ليست حاقدة عليه بحال ٠٠ فلا بد ان له عذرا ، وهى تلوم !

وهمست لنفسى : « اذا كانت السياحة هى السفارة الاولى للدولة فى الخارج ٠٠ فالحب هو السفارة الثانية ٠٠ كلا ، بل الاولى ! » ٠ فقد طفقت السيدة تسألنى عن مصر ، وتحدثنى عن أحوالها كما قرأت عنها ، فى الصحف ، والكتب ، وسمعت عنها

من الناس ٠٠ انها منذ علق قلبها بذلك المصرى لم تكف عن الاهتمام بمصر وأحوالها ، فى كل مناسبة ، طيلة نحو عشرين عاما !٠٠ فكيف لا يكون الحب خير سفارة للدولة فى الخارج ؟

وجرنى الحديث مع السيدة الى أسباب عدم ورود ذكر مصر على خاطرهم ، فذكرت لى تعليلا منطقيا مقبولا : قالت ان صادرات أية دولة ، هى من أقوى وسائل الدعاية لها ، فلو كانت لمصر منتجات - من أى نوع - حازت شهرة فى الاسواق التجارية ، لجنت البلاد من ورائها ربحا أدبيا هائلا ٠٠ وضربت لى محدثتى مثلا عمليا بقولها : « تصور مدى توارد اسم مصر على خواطرنا وأحاديثنا ، لو كانت فى أسواقنا وبيوتنا مثلا حاجيات كتبت عليها هذه العبارة القوية السحر : « صنع فى مصر » ٠٠ أية حاجيات : مناديل ، جوارب ، مفارش ، حقائب من الجلد ، أحذية ٠٠ الخ ٠٠ ان انتشار مثل هذه البضائع فى سوق أى بلد ، بأسعار مغرية ، يكون خير دعاية للبلد الذى أنتجها ! »

وهو رأى معقول ، أضعه تحت أنظار السلطات المصرية المختصة ، وأصحاب رؤوس الاموال المصريين ، الذين يستطيعون باستغلال ثرواتهم فى مضمار الصناعة والانتاج ، أن يخدموا بلادهم خدمة لا تنسى !

حضارة عظيمة ٠٠

• **وعلى** ذكر الهندسة ، ودراسة الهندسة ، فان زيوريخ تعتبر من أكثر عواصم العالم تقدما فى فنونها المختلفة ، سواء المعمارية ، أو الميكانيكية٠٠ اذ يكفى ان تطوف بالمدينة ، وتتأمل مبانيها العصرية الرائعة ، كى تقف على مدى نهضتها المعمارية الشاملة ٠٠ كما يكفى أن تزور أحد مصانعها ، وترى صورة له مع هذا الكلام ، كى تحكم على مدى « استفحال » النهضة الصناعية فى تلك المدينة ٠٠ انها نهضة « ضخمة » بكل معانى الضخامة ، فلا عجب فى كونها أصبحت قبلة طلاب دراسة

الهندسة ، يتقاطرون عليها حتى من دول أوربا الاخرى ذاتها !

على أن هذه النهضة الصناعية فى زيوريخ لم تحجب النواحى الاخرى لتقدمها ، بل تفوقها ، العجيب فى أكثر من ميدان ٠٠ بل ربما فى كل ميدان !

ففى الموسيقى ترفع زيوريخ رأسها شامخة على العالمين بأنها موطن عدد من أشهر معاهد الموسيقى فى العالم ! ٠٠ وفى الرقص الايقاعى (الباليه) ، تفخر بأن عددا لا يحصى من طالبات دراسة هذا الفن الرفيع يتوافدن عليها من كافة أقطار الارض كى يتلقين أصوله فى مدارسها المتخصصة فيه ٠٠

وفى الطب تقف جامعات زيوريخ فى مقدمة الجامعات العالمية التى يدرس فيها الطب الألمانى العريق ٠٠

وفى ٠٠ وفى ٠٠ كل ميادين الحضارة العلمية أو الفنية أو الصناعية ، تجد زيوريخ فى القمة المرموقة ٠٠ حتى المرح واللهو الرفيع تجد لهما فى تلك المدينة أعيادا ومهرجانات ٠٠

أما مسارح زيوريخ، وأوبرا زيوريخ ، ومتاحف زيوريخ ٠٠ فان كلا منها تعتبر فى بابها تحفة من تحف فن المعمار والزخرفة والامتاع لزائريها ، من كافة نواحى الامتاع

وفيما عدا ذلك ، فمن نافلة الحديث ان اسهب فى وصف زيوريخ كمدينة كبرى فيها جميع المعالم المألوفة فى العواصم الكبرى ، ومن بينها القاهرة !

٠٠ واذن فلنستقل قطار المساء فى طريقنا الى عاصمة فرنسا و « مدينة النور » : باريس !٠٠ التى أحدثك عنها فى الفصل القادم باذن الله

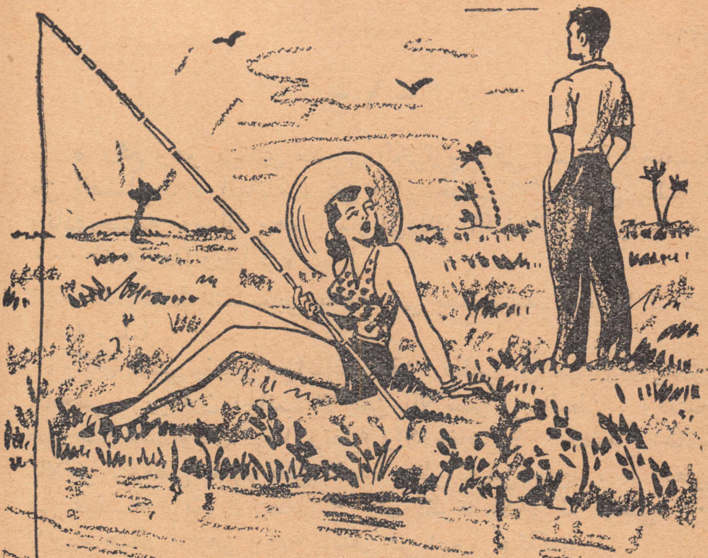


الزنجية ..
لوحة بمتحف اللوفر ، للفنانة « الكونتة بنوا » (١٧٦٨ - ١٨٢٦)



القمار ٠٠ منذ حداثتهم !

لوحة للرسام « لونان » ، بقصر بكنجهام ، بلندن



قصة مصرية بقلم: يوسف جوهر

القبلة عند الغدير



- ١ -

◆ **رفع** وهو يرتدى ملابس الخروج ، فى الساعة الخامسة من الصباح ، « الفانلة » عن أعلى الجانب الأيمن من بطنه ، ونادى خادمه ،وسأله وهو يشير الى ذلك المكان قائلا : « يا عثمان ٠٠٠ أترى هنا ورما ؟ »

فأخذ الخادم النــوبى يحدق فى بطن سيده متعجبا ثم هز رأسه سلبا

وكان الفتى ينتظر جوابا غير هذا ، فطلب الى عثمان أن يدقق الفحص ، ويقارن الجانب الأيمن بالأيسر من البطن ، وينتبه هل هما متساويان فى الارتفاع والانخفاض ؟٠٠ فصدع الخادم بالأمر ، ومضى يلتهم بطن سيده بنظراته من جديد ، ثم ومض فى عينيــه بريق الانتصار ٠٠ ان نظرته الاولى لم تخطىء ٠٠ لا ورم هناك ٠ وهز وجهه بالنفى فى اصرار وتأكيد !

وكأنه لم يكن يعجب فوزى أن لا ورم هناك ، فاستجمع قواه وصفع الخادم على قفاه !٠٠ كيف لايكون هناك ورم ؟٠٠ ان الكبد يقع فى الجانب الأيمن من أعلى البطن ، ولطالما سمع ان الغيظ « يورم » الكبد ٠٠ وهو مغيظ ٠٠ مغيظ ٠٠ مغيظ ! انه يحس ان كبده منتفخ بالغيظ كالاسفنجة ، قد هرأه الكمـد المستديم ٠٠ فلومست هذا الكبد أصبع ، أو قذف بنواة تمرة ، لسقط ميتا ! ٠٠ فكيف لا يرى هذا الخادم الغبى الانتفاخ الناجم عن تورم كبده ؟!

وأتم فوزى ارتداء ملابسه ، ونظر الى وجهه فى المرآة وهم أن يبصق على الصورة التى بدت له فيها ٠ لكنه خشى ان يراه خادمه ، فرد لعــابه الى جوفه وهو يقاوم شــهوة تقديم هذه التحية الصباحيــة لمحياه فى المرآة ٠ وأخذ ينظر الى هــذا المحيا كما ينظر الغريم الى غريمه !٠٠ كان الغيظ قد طفح على

سحنته ، وألقى الفتنة والشغب بين معارف وجهه حتى بدت كأنها طغمة متخاصمة

أدهشه هذا المنظر ! ولم يتمالك ان ضحك ضحكة جوفاء صفراء !٠٠ أعبث الغيظ بوجهه كل هذا العبث ؟٠٠ وتألقت فى عينيه دمعة وهو يضحك

وجلس الى المائدة ينتظر ما يعده عثمان من شاى ولبن لافطاره ٠ ودخل الخادم فاذا بسيده يعقد « الفوطة » من وسطها ويجذبها من طرفيها ٠٠ فتراجع ، وقد أذهله ان سيده يلعب كما يلعب الاطفال ! ٠٠ **وأفاق فوزى لنفسه وبه خجل من أن يكون خادمه قد رآه ٠ ثم اطمأن الى انه وان يكن قد رآه ، فانه لن يعرف ما يعنيه بعقد الفوطة وجذبها من طرفيها ٠ وكان فوزى يتصور وهو يصنع ذلك ان « رقبة » رئيسه فى هذه الخية ، وان الفوطة تخنقه شيئا فشيئا وتوشك أن تريحه منه !**

وعرف انها ٠٠ أحلام !٠٠ وان لا خلاص له من رئيسه ، وان هذا الرئيس سيعيش وسيهلكه وشيكا بتصرفاته التى تجرعه من الغيظ والكمد ما سيأتى على البقية الباقية من كبده !

كان فوزى يعمل بفرع شركة من شركات التأمين على الحياة ٠ وكان مقياس كفاءة الموظف عند الخواجه « عجان » ، وكيل الفرع ، قدرته على اغراء الناس بالتأمين على حياتهم ٠ وكان معجبا بفوزى لفصاحته وذلاقة لسانه وقدرته على « السبك » ، وكانت مصيبة الفتى ناشئة عن هذا الاعجاب ٠ فما يكاد الخواجه « عجان » يسمع عن رجل موسر فى الريف أو تاجر معروف ، حتى يبعث بفوزى اليه ، يعرض عليه فوائد التأمين ومزاياه

٠٠ والزبون المتلكىء فى دفع الاقساط ليس له الا فوزى يحاوره ويداوره ، ويتعقبه ويحاصره ، ويسترضيه ويهدده ، حتى يؤثر راحة البال ويدفع « المتأخر » صاغرا ٠ فاذا ما عاد فوزى غير موفق فالويل له ! فان الخواجة يهدر ويزمجر ويشتم ويلعن ويهدد بالويل والثبور ٠ فان اشفق الفتى من نتيجة

منتظرة وأبى ان يذهب اعتبر « عجـــان » ذلك عصيانا يقابله بعصيان أشد هولا ونكرا لانه العصيان عن دفع المرتب آخـر الاسبوع !

لذلك لم يكن فوزى يعرف للراحة طعما ٠ ان مشـــاكل « عجان » لا حصر لها : فلقد عمل فى الليلة الماضية حتى منتصف الليل ، وأنجز العمليات الحسابية ، وسوى الدفاتر بأمل أن يظفر فى اليوم التالى ـ وكان يوم أحد ـ بالراحة ، فيدور فى المدينة باحثا عن النسيم العليل والقوام الرشيق ٠ وكان يمنى نفسه بنعاس عميق بعد الظهر ، عقب الجلوس الى فرخة سمينة وزجاجة من النبيذ ، وهى أشياء ظل يحلم بها من زمن بعيد ٠ **لكن أحلامه انتهت كما كانت تنتهى دائما الى هذه الخيبة القوية ٠ فقد دخل عليه الخواجة « عجان » ، يتقدمه كرشه ، وأخذ يسأله عن الصحة والأحوال ويتمنى له أطيب التمنيات ، فعـلم أنها مقدمات التكليف بمهمة ثقيلة مضنية يجب أن يذهب اليها فى الصباح ٠٠ فلا نسيم عليل ولا قوام رشيق ، ولا فرخة سمينة ولا خمر ولا كأس ، وانما هو الشقاء الأبدى فى رحاب الخواجة « عجان » !٠٠ انه يريد أن يستغل كل قطرة من وقتـــه ومن عافيته ٠٠ وأحس ان ما بقى من كبده المتلظى فى مرجل الغيظ ٠٠ قد « طاب » !**

ولم تكذبه ظنونه ٠٠ فقـد حدثه الخواجة « عجان » ، وهو يربت على كتفه ويبتسم له ابتسامة مبطنة بالتهديد ، ان عليـه أن يستيقظ فى الصباح ـ فى السـاعة الخامسة ! ـ ويركب السيارة الوحيدة التى تذهب بعد الخامسة بقليل الى قـرية « السلاهيب » ، فان هناك رجلا غنيا كتب اليه انه يريد أن يؤمن على حياته وحياة ابنته ٠ والمسافة الى « السلاهيب » ست ساعات فقط ، وعليه أن يكون السابق الى «توضيب الزبون» ، فقد يكون مندوب الشركة الاخرى على علم فيخطف الصفقة !

كان فوزى يعلم ان المعارضة لا تجدى ، فترحم على تمنياته

التى تخطرت فى رأسه ، ولم يحاول أن يتنصل من الذهاب ، بل حاول ان يتخلص من « عجان » ويظفر بساعات من النوم بين الساعة الاولى والخامسة من الصباح

وفى الصباح الباكر ، كان فوزى وهو يدنى شفتيه من فنجان اللبن يقول لنفسه : « أيوجد من هو أشقى منى ؟ عمل بلا انقطاع ، ولا راحة ، بأجر هزيل ! » ٠٠ وكان يحس ان جنبه يكاد ينفجر عن فلذات كبده ، فتتطاير كرشاش الماء حتى تضرب الحائط ! ٠٠ واذا بعثمان يدنو منه ويضع أمامه علبة من الورق ، فيسأله عما تحوى ، فينبهه انها علبة «الكربونات» ٠٠ ألم يحدثه عن انتفاخ بطنه ؟ ٠٠ « ان الكربونات يا سيدى أكيدة المفعول ٠٠ انها تزيل الانتفاخ »

وتصاعد غيظ فوزى ، فقذف الخادم بفنجان اللبن الساخن ونهض عن المائدة ٠٠ ما حاجته الى اللبن المغلى ؟!٠٠ ان جوفه يغلى ويقذف الحمم ٠٠ ليست لديه الرغبة فى أن يبلل شفتيه المحترقتين بما يزيد حرقتهما !٠٠ واذ أخذ ينظف بالفرشاة طربوشه الذى حال لونه من كثرة التجوال تحت الشمس المحرقة ، أسف كثيرا لما أصاب خادمه ٠٠ ماذا جنى ؟ انه لم يكن يقصد النكتة ٠٠ من كان يدريه ان الانتفاخ ليس سببه الأكل وانما سببه الغيظ ؟ ان الخواجة « عجان » هو الأحق بهذا السائل الحار يسقط فوق رأسه الأصلع !

ومر وهو خارج بعثمان ، فمسح بيده على قفاه مصالحا : « متزعلش ٠٠ حقك على ٠٠ أصلى زهقان من نفسي يا عثمان ! » ٠٠ فأزاح الابتسام شفتى الخادم الأمين عن أسنانه البيضاء ، وأجابه : « أبدا يا سيدى ، أنا مش زعلان ، ده أنا اترقيت ٠ زمان كنت بتضربنى بقزازة الحبر ، ودلوقت باللبن الحليب ٠ مين يطول ده ؟ أمى داعيه لى ٠٠ كانت الله يرحمها دايما تقول : « روح يا عثمان ربنا يبيض وشك ! » ٠٠ ربنا استجاب دعاها

·· بس يا سيدى اعمل معروف تانى مرة لما تحب تضربنى باللبن تطول بالك لما يبرد شويه ! »

وخرج فوزى وقد أضاء قلبه قليلا تصافيه مع خادمه

- ٢ -

◆ **ووجد** فوزى نفسه فى السيارة الكبيرة الذاهبة الى قرية « السلاهيب » · وأخذ يجيل عينيه فى الجالسين : فعلة ذاهبين مع المقاول لحفر ترعة ، وبعض نسوة زرن أولياء الله الصالحين فى المدينة ثم بكرن عائدات الى قراهن وفى سلالهن أقماع السكر وكساوى الشيت والحلاوة الطحينية ·· وهؤلاء الحزينات الساهمات لا بد أنهن كن بالامس فى المحكمة الشرعية سعيا وراء حكم نفقة أو تفرقة !·· وهؤلاء المصبوغات الكفوف بالحناء كن فى المدينة يخترن جهاز عروس ·· والا فما هذا الصندوق المدهون باللون الاحمر الصارخ ؟ وما هذه المرآة ذات الاطار البديع من الخشب الذى تصنع منه صناديق السكر والصابون ؟·· **وضحك فوزى فى نفسه ، فان الخواجة «عجان» لم ينس أن يوصيه بالتحدث الى المسافرين معه عن التأمين وفوائده ، ومتانة الشركة ومنشآتها فى بودابست وبلغراد وروما !**

وكانت السيارة تمضى فى طريق ردىء مملوء بالاخاديد ، فكانت ترتفع وتنخفض ، ومعها معدة الفتى وامعاؤه وكبده ·· ورائحة البنزين والشحم المحترق تنبعث من آلاتها الرديئة ، مختلطة بعثير الطريق ، فتنفذ الى رئتيه ·· وشمس الصيف قد أخذت تتسلق السماء وتضرب صاج السيارة فتحيل داخلها شعلة من جحيم !·· لكن عليه أن يحتمل كل هذا ساعات أخرى · وللخواجة أن يستمتع براحة يوم الاحد · انه يدرى ماذا يصنع عجان يوم الاحد · انه يتحرر من سترته ويجلس فى « فراندة » منزله بسرواله « الدبلان » الفضفاض الذى

صاحبـــه من بلاده ٠٠ يجلس متنمرا ينتظر قـــدوم صينية « الكبيبة » من الفرن ، وزجاجة الزبيب الزحلاوى جالســـة الى جواره ، وحوله ابنه الخائب « نايف » الذى لم يفـلح فى المدارس قط ، وبنته « نجفة » التى ورثت عنه بدانته المفرطة ودمه الثقيل الذى ينفر منها الخاطبين ٠٠ ثم زوجه ، « سارة » المهزولة المعروقة التى لم يزر السرور وجهها قط !٠٠ العجوز المتصابية التى تزيل الشعر عن حاجبيها وتتركه فوق شفتها العليا وتحت أبطيها ، وتصر مع ذلك على لبس «السواريه» !٠٠ تلك المرأة التى لم يفهم حديثها قط ، وان كان يفهم من نظراتها القاسية انها تستكثر عليه راتبه !

أتخطر ببال هؤلاء النـــاس السعداء ، رائحة البنزين ، ورائحة القرويين ، ورائحة روث البهائم الذى يجف ويثـور مع التراب ؟٠٠ أكانت تنطبق الارض عـلى السماء لو أجلت هذه الرحلة الى يوم الاثنين ؟٠٠ ألا فلتكن مشيئة الخـــواجة « عجان » ما دام هو الذى يستطيع أن يرفع المرتب ويخفضه ، ويعطيه ويمنعه !

وأغمض الفتى عينيه ٠ فانه سيفتحهما عندما يصل على قذى كثير : العثير المتطاير تحت حوافر السائمة ، والأطفال الذين يرضع الذباب الاوساخ المتراكمة على وجوههم ، ومقهى القرية يجلس فيه آدميون صفر الوجوه يدخنون جميعا من « جوزة » واحدة ، وأمامهم أقداح بها سائل أسود يسمونه الشاى !٠٠ وسيفتح عينيه أيضا على سحنة « أخينا » الذى يريد أن يؤمن على حياته ! وهو قد يكون « جلفا » ، وقد يكون هازلا ٠ وقد تكون حياته لا تساوى شـيئا لانه بقية من بقايا الأفيـــون والانكلستوما والصفراء ٠ وما ابنته هذه التى تريد أن تؤمن على حياتها ؟!٠٠ فلاحة لا تعرف كيف تخط الألف ! تظن ان الحياة تحد شمالا بترعة الناحية ، وجنوبا بمقام سيدى « عز الرجال » حامى القرية ، وشرقا بنقطة البوليس مقر الحاكم ذى

« الدبورتين » ، وغربا بالبندر أو عاصمة المديرية حيث محكمة الجنايات التى يرسل اليها الاشقياء الذين يحـرقون زراعات القمح ويقلعون القطن ويسممون المواشى ويزهقون الارواح !

وما أن نزل فوزى قرية السلاهيب حتى أخذ الناس يختفون مـن طريقـه !٠٠ فان فى يده حافظـة متضخمـة بالأوراق ، يدل منظرها على أنه محضر محكمة يحمل ضمن أوراقه هذه تنبيها بنزع الملكية ، أو على الأقل أوامر بالحجز التحفظى ، أو ببيع المحصول من أجـل كمبيالة تدخلها فوائد ربوية محررة لأمر واذن أحد تجار القماش لكسوة الشتاء ، أو أحد تجار السماد من أجل حيـاة الأرض ! وهو على أى الحالين يريد مرشدا يدله على المدين المسكين ٠٠ ومن يرضى أن يكون هذا النذير المشئوم ؟!

- ٣ -

◆ ووصل أخيرا الى دار الشيـخ « توكل » فاذا بها دار نائية عنالقرية، مبنية فى وسط حقول صاحبها ،جميلة رائقة المنظر وان لم تكن ذات شرفات، فان نوافذها الواسعة المطلة على بستان تتمايل فيه أشجار النخيل مدهونة بلون أخضر لطيف لا يعلوه الغبار ، وسورها المزهر بالجير الابيض تطل منه أوراق كرمة باسقة



وفتح الباب ٠٠ ولم يكـن فوزى يتوقع قط أن يكون ملبى طرقاته هذا الذى رأى ! كان يتوقع أن يطالعه وجه فلاح يطل شعر صدره من خلال جلبابه المفتوح ، أو خادم محزومة الوسط بحبل من التيل مبللة الثيـاب بالماء لانهـا

تدير (الطلمبة) ، أو بالعرق لانها تجرش الفول على الرحى ٠٠ أو على الأكثر فتاة صغيرة بطرحة تخفى تحتها منديلا « اسطمبوليا » مشغولا « بالأوية » ، ملوثة اليدين من « تلزيق الجلة » ! ٠٠ لكنه لم ير شيئا من هذا ، وانما رأى فتاة حضرية فى يدها كتاب ، وعلى فمها ابتسامة ، وعلى وجهها «تواليت» متقن !

ولما علمت « الآنسة » ما يريد ، وضعت له كرسيا فى ظل تكعيبة العنب وأدارت كتفيها وسارت قليلا ، ثم صعدت الدرجات القليلة الموصلة الى باب الدار ، فوجد فوزى الفرصة ليلتقط أنفاسه ويجفف عرقه ، ويغمر قوامهـا اللدن الرشيق بنظراته ، فاذا ثوبها الحريرى أنيق محكم التفصيل ينم قماشه الخفيف عن ظهر ، لا ككل الظهور ٠٠

وعادت تقول له : « لقد سألت عن أبى الآن بالتليفون ، فقد سافر الى المدينة هذا الصباح ، لكنى لم أجده حيث كنت أظن ٠ ولست أدرى ان كان فى وسعك أن تنتظر بضع ساعات ؟ » ٠٠ فنظر الفتى فى ساعته ٠ أيظل ست ساعات فى السيارة ويأتى الى هذا المكان السحيق ليظفر بهذه النتيجة « السارة » ؟٠٠ أيعود الى الخواجة « عجان » بخفى حنين ؟٠٠ انه ان فعل لغضب ونفر وقذف من عينيه الشرر ، ولرماه بأنه ركب السيارة ثم نزل على مسافة خمس دقائق من المدينة فى أقرب حقل من حقول البطيخ ، حيث أكل واحدة مثلجة بندى الليل ، ثم تجشأ ، واستأنف الرقاد تحت فىء جميزة أو شجرة توت ٠٠ اما زعمه الذهاب الى السلاهيب فهو كذبة سمجة جزاؤها أيام خمسة تخصم من مرتبه !

وتفصد جبينه عرقا من هول ما يتوقع ٠ وسأل الفتاة كوب ماء ، فصفقت « سماح » فى طلب الماء ٠ وجاءت خادم صغيرة بقلة خيل اليه انها تضحك من فرط ما هى دقيقة ورقيقة ونظيفة ! وشرب ، فملأت « سماح » الكوب مرة أخرى وأخذت تشرب ٠ وكان الماء البارد العـذب قد رطب جوفه وخفف من خفقان قلبه اللاهث الذى أذهله حسن الفتاة ، فوجد الجرأة لينظر الى نحرها الناصع وهى ترشف الماء ٠٠ لكأنه يراه وهو ينسكب من فمها الصغير ويترقرق فى هذه القصبة التى ان كانت عند الناس بلعوما فهى عندها قطعة من البلور الشفيف !

ولم يفتها تعلق عينيه برقبتها ٠ لطالما رأت الناس يحملقون فى هذه الرقبة ٠ لقد كانت مرة فى حفلة ساهرة فى القاهرة حيث تقيم ، فجاءها أستاذ معمم من أساتذة آخر الزمان ، وكان قد شرب أكثر مما يجب ، وكان يمسك فى يده اليمنى كأسا من « الويسكى » وفى يده اليسرى عمامته ، وكان شعره مصففا عند الحلاق ومعطرا ٠ جاءها هذا الشيخ وهمس فى أذنها قائلا : « يا غانية ٠٠ ان رقبتك تشبه كوزا من الفضة » ٠٠ ذكرت هذا ، وذكرت انهم حدثوها

انه شيخ فريد فى بابه وانهم يسمونه « الشيخ موريس شيفالييه » ، فضحكت . وكانت خلية الفؤاد تهفو للضحك

وأحبت أن تعلل ضحكها فسألته : « انك تنظر الى كأنك رأيتنى من قبل ، وكأنك تفتش فى ذاكرتك عن المناسبة التى رأيتنى فيها .. أنكون قد تقابلنا فى القاهرة ؟ » .. فعلم انها فتاة ماكرة ، وانه « ملبوخ » لا محالة !.. وبحث عن صوته فلم يجده . وأخيرا استطاع أن يقول : « كنت أود أن اقابل والدك »

ولم تتركه يتم كلامه بل قالت : « قلت لك انك تستطيع أن تنتظره . تكون مشكورا لو بقيت ، فانى لا أجد من أحادثه فى القرية . ان والدتى مريضة بالنقرس لا تفارق سريرها ، ولا يفارق النعاس جفنيها . وهذه الخادم الصغيرة قد سمعت كل أغانيها ومواويلها ، وحفظتها وسئمتها ! أما خادماتنا الكبيرات فان حديثهن يفزعنى ، اذ لا يحسن الكلام الا عن السحر ، وعن « الجنية » التى تسكن ساقيتنا البحرية .. والمارد الذى يتجول على شطى الترعة طول الليل .. والشقى عويس شيخ المنسر ! أما هذا الكلب « حاتم » المربوط عند الباب ، فالبرغم من أنه يحسن السهر فى الليل ويجيد استقبال اللصوص ، ولا يعبأ بالجنية ولا بالمارد أو الشقى عويس ، الا انه بكل أسف لا يجيد محادثة السيدات ولا يحترمهن كثيرا . وكأن أثوابى لا تعجبه أو لا تريح أعصابه ، فانه يحب ان ينالها بأسنانه . انه كلب فلاح .. أوه نسيت انك ضيفى .. يازهرة ..كوب شربات »

ولم تجب الخادم ، فانطلقت الى الداخل تعدو . ووجد فوزى الفرصة مرة أخرى ليملأ عينيه من قوامها اللدن المشوق . وارتفع ثوبها عن ساقيها قليلا وهى تقفز الدرجات ، فأحس ان ريقه يجف وينضب من حلقه ، ويصعب ابتلاعه .. وان ضربات مطرقة تتردد فى صدره ، وان مقدمات اغماء تتمشى فى جسده ! .. وحين أتت الخادمة بالشربات أخذ يزدرده بصعوبة ، وهو يحس ان معدته قد أغلقت وانه لن يجوع أو يعطش فيما بعد ، بل يكفيه للرى والشبع أن ينظر الى وجه « سماح » !

وجعلت كرسيها أمام كرسيه وأخذت تحادثه . وعندما نظر فى ساعته ، فطن الى ان الوقت لم يمر فى حياته من قبل بهذه السرعة ، فقام يستأذن ، وقالت له سماح عند الباب : « اترك الأوراق التى تريد أن تتركها وتعال يوم الخميس فتجد أبى ونبت فى الامر .. أأنت آت ؟ »

وعادت الى كرسيها ثانية ، وكان كرسيا طويلا من القماش ، فتمددت فيه وفتحت كتابها الذى نسيته ، وحاولت أن تقرأ .. فلم تفلح ! وألقت كتابها على صدرها وآثرت أن تحلم ..

أخذت أفكارها تجرى وراء مندوب شركة التأمين على الحياة . انه سيسير

طويلا تحت الشمس المحرقة سيرا حثيثا حتى يدرك السيارة الكبيرة العائدة الى المدينة · وحينما يعود ، الى أين يذهب ؟ وهل هو حقا أعزب ، كما فهمت منه ؟ وكيف يعيش ؟

لقد تحدثت اليه ومست هذه المسائل مسا خفيفا ، وحكت له عن حياتها فى القاهرة ، لكنها لم تعرف منه أكثر من انه فتى متعب صارم ، لا تعرف البهجة طريقا الى قلبه · ان يديه اليابستين الثابتتين يبدو عليهما انهما مستا الأشواك كثيرا ، ولم تمسا الورود قط ! أما هى ، فقد ربيت فى القاهرة فى بيت أخيها الطبيب ، وتعلمت فى « المير دى ديو » ، ومارست حياة اجتماعية كاملة يشارك فيها الجنسان ، ولقيت شبانا كثيرين يعدون من الصفوة · وكما يغرق الأطفال فى أشبار من الماء ، كان هؤلاء يغرقون تحت نظراتها ، ويرتبكون ، ويفقدون لباقتهم اذ يجردهم حسنها مما يزعمون لأنفسهم من تأثير وشخصية !·· كم أحرزت من انتصارات ، وعبثت بقلوب !·· كانت لذتها فى الحياة أن تعبث بالرجال ، ولم تعدم قط رجلا تسخر منه ، ولم تكن تلقى عناء فى ذلك · كان يكفى أن تلقى نظراتها فى عينى رجل ، فسرعان ما يبدو أمامها لاهثا مبهـــور الأنفاس ·· وسرعان ما ترى الرماد يرين على جذوة الشجاعة والذكاء المتقدة فى عينيه ، وتتبدل نظراته الى نظرات غبية بليدة بلهاء ، ترجو وتتوسل ·· وتسلم القياد !

لكن هذا الفتى الفقير ؟·· لقد جمعت كل انوثتها الفاتكة فى عينيها وعرضتها عليه ·· لكن عينيه لم تطرفا ، ووجهه لم يمتقع ، وكبرياؤه لم تفارقه !·· أهو فتى فظ ؟! لكن عينيه المتكبرتين فيهما نعومة ، ورفق ، وخيال ·· وصوته القوى فيه حلاوة ، وليونة ، ونغمة محزونة ·· ووجهه الجميـل النبيل ينبىء عن جرأة قلب وشهامة نفس

واذ ذكرت وجهه علت فمها ابتسامة · يجب أن يذل هذا الوجه لها ويتصبب لهفة وهياما ، وتعنو جبهته المرتفعة ، وتجرى نظراته تحت قدميها !·· يجب أن تضحك منه كما ضحكت من اخوان له من قبل !·· لقد طلبت اليه أن يأتى يوم الخميس وهى تبيت فى نفسها أمورا ثلاثة : فانها تعلم أن أباها ذاهب الى القاهرة يوم الخميس ، وانها ستعدل عن الحاحها فى الذهاب معه مفضلة البقاء الى جوار امها المريضة ، ولن تقول له أن مندوب شركة التأمين آت !

هل كانت تلك الاغفاءة الموشاة بالأحلام التى أخذتها وهى فى كرســيها طويلة أم قصيرة ؟·· لقد استيقظت على نباح حاتم ، فاذا بالشمس قد أشاحت عن القرية ، مسلمة اياها الى مسائها الصامت الراكد الحزين · وقامت سماح الى سريرها لتكمل ما يراودها من نعاس وأحلام تملأها صورة مندوب شركة التأمين على الحياة !

- ٤ -

◆ فى منتصف تلك الليلة كان فوزى جالسا فى حانة من حانات المدينة ، وكأسه أمامه ملآنة ، ينظر اليها دون أن تمسها شفتاه كأنه يذيب فيها أفكاره وهمومه . لقد ركب معه من (السلاهيب) صديق قديم عزيز من أصدقاء المدرسة لم يلقه منذ بعيد ، وأنبأه هذا الصديق انه أصبح وارثا ، وأن ضيعته فى القرية المجاورة . وأخذ فوزى يحدثه عما أتى به الى هذه الناحية ، ويطرى جمال ابنة الشيخ « توكل » اطراء شديدا ، وصديقه يصغى له مبتسما ثم ينبئه أن الشيخ توكل عمه ، وأن « سماح » خطيبته منذ الطفولة ، ويفضى اليه بما يغيظه من هذه الفتاة التى أفقدتها القاهرة رزانتها وأفسدت خيالها الذى يصبو لحياة العاصمة . ومن يدرى ، لعل عدم ميلها اليه يرجع الى أن قلبها معلق هناك .. قد تكون نسيت حب ابن عمها الشديد لها ، وداست تقاليد الاسرة التى تحتم زواج بناتها من بنيها حتى لا تتمزق الأرض ، التى ظلت من قديم وحدة لا تتجزأ ولا تدخلها قدم غريب !

أيجوز أن يفكر فوزى بعد ذلك فى « سماح » وقد خطبتها التقاليد لصديقه القديم مصطفى ، ورفعتها مائة فدان - سوف ترثها ! - درجات عدة عن الحضيض الذى تثوى فيه الجنيهات الستة التى يتقاضاها كل شهر ؟!

فما لعينى سماح تتبعانه ؟ انه لم يخلفهما فى القرية ، وانما هما معه تسبقانه أينما ذهب وتنظران اليه أينما ولى وجهه ، بكل جمالهما وسعتهما وسحرهما ! ماذا تكن له هاتان العينان ؟ وماذا يرافق جمالهما ويقطر من سوادهما العميق ؟ أهو ابتسام ، أم سخرية ، أم حنان ، أم اعجاب ، أم كبرياء ؟.. أما من خلاص من هاتين العينين !.. ان كان لا مفر منهما فماذا تعنى بهذه النظرات ! أهى له أم عليه ؟.. أكانت جادة فى سؤالها اياه ان كان قد رآها من قبل ؟.. وهل رآها حقا ؟.. أين يا ترى ؟.. وأخذ يحث ذاكرته حتى هدته الى أنه رآها فى أحلامه .. ليست صورتها الا الصورة التى صاغها خياله من أمانيه .. حقا لقد رآها من قبل !

وتسلل الى أذنيه من جديد صوتها وهى تكلمه عند الباب : « تعال يوم الخميس ؟ تعال ! أأنت آت ؟ » .. لكأن نغمة خاصة تشعشع هذه الكلمات وتسقيها عذوبة تميزها عن سائر ما تحدثت به اليه .. لكأنها تعنى أنها بانتظاره فى شوق ! .. ولكنه ما يلبث ان يزجر خياله اذ يرى لهب الحقيقة يلعق هذه الأمانى بألسنة ساخرة من النار !

ولقد كان يعتبر الحانة فيما سلف دار الاسعاف والعلاج : فيها يخمد ألمه ، ويسكر مايصرخ فى كبده من جراح .. فما له الآن لا يكترث بكأسه ولا

يشربها ، ويؤثر أن يفكر ويتأمل ويتعذب ؟ لكأنه يخشى أن تراه سماح وقد ثمل فتحتقره ، وتضحك منه وهو يشعل سيجارة من الناحية التى كان ينبغى أن يضعها فى فمه ، ويضع زر طربوشه فى مقدمة رأسه مثل هؤلاء السكارى الذين « يدندنون » ، زاعمين انهم يغنون ..

وغادر فوزى مجلسه والكأس لم تمس شفتيه !

- ٥ -

◆ لم يعترض فوزى عند ما طلب اليه الخواجة « عجان » ليلة الخميس أن يذهب الى السلاهيب فى الصباح لاتمام الصفقة . وانصرف عجان الى بيته وهو معجب بقدرته على املاء أوامره على مرءوسيه ، وراح يسدل سترته على كرشه برفق وحنان متمنيا لنفسه رعاية الله وحفظه ، فانه من غير شك أكفأ وكيل لدى شركة التأمين !

وفهم فوزى لما أبرقت أسارير خادمه - حين علم انه ذاهب الى السلاهيب ولن يعود عند الظهر - ان عثمان يحب ، وفى استطاعته ان يغلق الشقة ويذهب الى محبوبته « نظيرة » فى طرف البلد .. حتى قلوب الخدم تخفق للحسن .. هذه القلوب التى أنهكها الانحناء لمسح البلاط والتسلق لتنظيف السقف !.. أهو الهيام الذى يذيع الانشراح والابتسام فى قسمات عثمان ؟.. أهى القبل العذبة من فم نظيرة هى التى تجلو أسنانه ، فتسفر عن هذه الضحكة المتألقة البيضاء ؟.. ليت فوزى اذن كان الخادم السعيد ولم يكن السيد المنكود ! لو ان سماح له كما ان نظيرة لعثمان ؟! لكن ، أى خيال بعيد .. فلو علم الشيخ « توكل » ان هذا الموظف الحقير يفكر فى ابنته لأطلق عليه كلبه « حاتم » ينزع عنه بأنيابه هذه السترة التى خرج بها من الدنيا .. ما له وهذه الأمانى الجوفاء والأحلام الضائعة ؟ ليس الغرام فى كل صورة الا حماقة أبدية لم تنعق فى رأس انسان الا أوردته موارد الهلاك والبوار !!

ظل فوزى يدير هذه الخواطر فى رأسه والسيارة تطوى به الطريق الى (السلاهيب) . لم يكن باله هذه المرة الى السيارة ترتفع وتنخفض وتخض امعاءه وكبده . بل لقد استحالت نظرته الشزراء الى وجوه الفلاحين الى نظرة حنون ، مشفقة ، صافية . وهو لا يغمض عينيه اتقاء للغبار ، وانما هو يغمضهما ليحلم ويغرق فى خياله كل الكائنات بنظرة حب شاملة . حتى (الجوزة) التى يكره أن يراها تمر بأفواه كل الجالسين ، ليست فى رأيه الآن الا مزمار الخيال يقبله كل رجل قبلة تسكر وتخدر . وليس حلاق القرية الا فيلسوفا « محليا » لا أخف من يده فى اجراء الموسى . اما الأطفال القذرون فليسوا الا ملائكة متنكرين فى أسمال !.. ان قطعة صابون كفيلة بأن تعيد اليهم صباحة

وجوههم الحنطية التى ذهبتها الشمس ٠٠ ان كل شىء جميل ، ما دام فوزى يرى من ورائه ابتسامة سماح المتخطرة على شفتيها ، المختالة فى وجنتيها ، الراقصة فى عينيها ، تسبغ على الوجود جمالا وفتنة وضياء ٠ حتى « عجان » الذى يحمل له فى قلبه بغضا لا حد له ، أصبح مرضيا عنه ! فليست لكرشه الهائل وحقيبة الدهن المتدلية تحت ذقنه سماجتهما التقليدية !٠٠ الآن يلحظ فيهما فوزى شيئا من الظرف والفكاهة ، ويرى ان الصحة والعافية المكتظة فى وجنتى ابنته « نجفة » تستحق التحية ٠ حتى امرأته « سارة » يرضى أن يقول لها فى خياله : « اذهبى يا امرأة ، مغفورة لك خطاياك اللفظية بسبب اتقانك (للكبيبة) ! » .

- ٦ -

◆ قالت له سماح وهى تفتح الباب : « أوه ، لقد نسيت أنك آت يوم الخميس ٠٠ لقد سافر والدى اليوم ٠٠ هل لك فى كوبة من الشربات ؟ » ٠٠ ثم دخلت تجرى ، وأخذ يفكر وهو يحدق فى ساقيها : « أحقا نسيت أن تخبر اباها ؟! أحقا نسيت أنه آت ؟ أهو كم مهمل الى هذا الحد ؟ أم ان هذه الفتاة التى تنم حركاتها عن اتقانها (للتنس) قد اشتاقت الى اللعبة وهى فى الريف فأرادت ان تجعل منه كرة تلعب بها وتلهو ؟! »

وجلست ازاءه فى كرسيها الطويل وأراحت رأسها على ساعديها المتشابكين ، فأخذت الذراعان العاريتان المحيطتان بشعرها الفاحم تتكلمان عن فتنة مضنية مذيبة ، وتكونان مع الساعدين المتعاقدين اطارا ساحرا ، لصورة ساحرة ، من فن سحرى لا يعرفه هذا العالم !٠٠ لقد جلست هذه الجلسة ذات مرة أمام فتى قاهرى ، فسقط عند ركبتيها هامسا : « الرحمة فوق العدل » !٠٠ فما لهذا الشاب لا يريم من مكانه ولا يتململ ، ولا يعبر وجهه عن الهزيمة بل يظل ساكنا كأنه قد من ثلج !



وتنهدت بعمق وهى تتثاءب ، فقام صدرها الناهد ثم رقد من تحت ثوبها المشجر ، كأنه كوكبة من الازهار تنحنى مع النسيم ثم تقوم !٠٠ وقالت له : « لعل من المؤلم لك أن تأتى مرة ثالثة ٠٠ » وتريثت عن اتمام الحديث لعله

يقاطعها قائلا ان من يراها لا يعرف التعب او الألم ، لكنه لم يفعل . فاحنقها هذا واستطردت : « أترك العقد وستجده فى المرة الآتية ، موقعا عليه . ان ابى لا ينقض لى رأيا » .. فترك العقد واستأذن فى الانصراف ومضى

ووجدت سماح نفسها وحيدة مرة اخرى . وعقد الحزن والتفكير ما بين حاجبيها . لقد انتهى اللقاء الذى مهدت له وظلت تحلم به . ها هو رجل لا يطيق الجلوس مع آنسة جميلة ! كانت تظن انه سيسقط من اغرائها فى بئر ، وانها ستضحك منه كثيرا هى ولداتها عند ما تعود الى القاهرة وتقص عليهن قصة « آخر تغفيل » ، فقد كانت ترى ان كل الشبان مغفلون يعبث بهم . والآن تتواضع فى مقدرتها ، ويكفيها منه أن يعترف بجمالها ويشغف به . لقد رضيت ان لا تفعل به شيئا ، لانها على مايبدو لا تستطيع ان تفعل به شيئا !

اما هو ، فقد ادهشته ارادته التى دفعت به الى الخارج ، واعجبته ! لقد احس فى اعماقه ، وهو ينظر الى ذراعيها وصدرها ، بعواء ذئب جائع .. ذئب كاد يفلت منه وينقض على « سماح » وليكن ما يكون ! لكنه ادرك — فى اللحظة الحاسمة — ان هذا الحب لا جدوى منه ، وانه لن ينتهى الا الى ملهاة — ان كانت سماح تريد أن تسخر منه ، والى مأساة — ان كانت جادة . أليس هياما بلا امل ؟ .. فى الطريق خاطب صديق ، ومئات من الافدنة ، وأب يذود عن التقاليد .. وهو ، ما سلامته ! وظيفة بستة جنيهات !

وعندما عاد فى الخميس التالى كان السهاد والصراع مع الامانى قد أحاله شخصا ذا ارادة جبارة تستمد قواها من اليأس !.. وجلس قليلا ، ثم طلب العقد ، فجاءت له بالعقد والقسط الأول لعل هذا يرضيه ويسره . لكنه طواهما فى جيبه واستأذن ومضى ، وهى تلح عليه أن يبقى

ووجدت نفسها وحيدة مرة أخرى . لقد جربت معه نظراتها وتنهداتها ، ودنت منه لتسكره بعطرها ، ورفعت الى وجهه شفتين تختلج عليهما قبلة حائرة متلهفة ، طالبة اليه ان يبقى .. لكنه لم يفعل ، ولم يفكر فى اقتطاف تلك القبلة التى نضجت واوشكت أن تسقط على كتفه .. اى فتى هذا ؟! .. انه يملك الشجاعة والوسامة والفضيلة . وهى لم تر من قبل هذه القوى مجتمعة . رأت الشجاعة مع القحة ، والوسامة مع التخنث ، والفضيلة ثوبا للعاجزين . لم تكن عادلة يوم طمعت أن يذل لها ، ولا يوم اكتفت باعترافه بحسنها وشغفه به .. انها الآن تود لو يمكنها من ان تحبه ، وانها لترضى ان تذل له !

- ٧ -

◆ **عادت** سماح الى القاهرة ، لكنها لم تجد لمسرات المدينة طعما • ولم تعن بمن يحوم حولها من فتيان ، ولم تجب الدعوات الى الحفلات ، ولم تصغ لتوسلات طاقات الزهر النضير التى تهدى اليها •• وصارت تؤثر أن تذهب فى اليوم الثالث من كل شهر الى القرية ، لانها كانت تعلم ان فوزى يأتى ليأخذ قسط التأمين • وحاولت ان تفتح قلبه الحصين ، غير انها لم تظفر الا بصداقته !

وقالت له مرة وهى تصطاد السمك من الغدير المجاور للمنزل : « أنظر • ما أجمل الماء الرائق • ان الانسان يستطيع ان يرى فيه وجهه » •• فقال : « لعله أول نوع من المرايا اهتدى اليه الانسان »

ـ أتظن أن الماء كان مرآة أمنا حواء ؟

ـ نعم ••

ـ ان هناك نوعا أقدم من المرايا نعرفه نحن معشر النساء • يخيل الى ان حواء أول ما رأت صورتها ، رأتها فى عينى آدم مصادفة ، وهى تتأمل وجهه ••

قال ضاحكا : « حقا قد تكون المرآة الأولى للمرأة الأولى »

ـ وللمرأة الأخيرة !•• ان المرأة فى كل زمان ومكان تحب ان ترى صورتها فى عينى الرجل الذى تحبه ، لأنها اذ تنطبع على عينيه تنطبع على قلبه • ليتنى أرى صورتى فى عينيك كما أحس صورتك فى قلبى ! حدق فى عينى •• أترى صورتك ؟

ـ ان عينيك مخضلتان بالدموع !

ـ ان هذا النوع من المرايا يكون أشد ابانة حين يغسل بالدموع ! انظر ••

وأدنت عينيها من عينيه بأهدابهما الطويلة ، فكأن اطار هذه المرآة سيوف مسلولة !•• **وكان النسيم يغنى اذ ذاك لحنا**

خافتا ، وانيا ، حالما ، يقبل أهدابها ۰ ورأى فوزى كأن على شفتى سماح أمواجا متلاطمة من القبل فلم يملك حواسه وهوى بفمه فى هذه الامواج ، يسبح فيها ويعب منها ! وجمعها بين ذراعيه ۰۰ لقد أفلت منه حبه الجارف ، وأحس انه بحاجة لان يضع فتاته بين جوانحه ۰۰ ألا ليت قطرات دمها تنزل ضيفة فى قطرات دمه ۰۰ ليت كيانها كله يدخل فى اهابه !

لكن وجه الخاطب الحزين « مصطفى » مر فى خياله فجأة فبدا أمام نفسه كجندى انتصر فى كل المعـــارك ، واحتمل المكاره والمهالك والجراح ، ثم خان فى اللحظة الاخيرة ۰۰ أجل ۰۰ فى اللحظة الأخيرة ، فان اياما ســــبعة قد بقيت على الزفاف !۰۰ وأفلت من ذراعى سماح ومضى يعـــدو ۰۰ ان التكفير الوحيد ان يحتجب عنها الى الأبد !

لكنه رآها فى الليل تقرع بابه ، وعلم انها آتية تعلنه انها لن ترضى بالزواج كما هددته من قبل ۰ وكان قد شرب كؤوسا فرارا من همه ۰ وأوحت اليه هذه الكؤوس أن يبدو أمامهـــا ثملا جدا ويوهمها ان بمخدعه امرأة ، حتى تكرهه ، فلعـــل كرهها اياه يصرفها عنه ويصون لها مستقبلها ۰۰

ودخلت عليه سابحة العينين فى الدموع وهرعت الى صدره ۰ لكنه دفعها عنه بغلظة وهو ينفخ فى وجهها نفســـا مخمورا كريها ۰ ثم استدار الى باب مخدعه وتحدث وهو يغلقـــه الى المرأة الموهومة النائمة فى سريره طالبا اليها أن تتدثر لئـــلا يؤذيها الهواء

وفرت سماح وهى تجهش بالبكاء ۰۰

وتم زفافها بعد أيام !

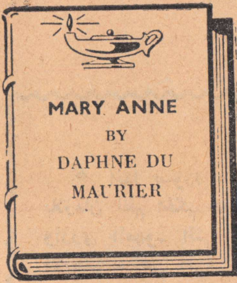
★ ★ ★

◆ **وفى** ليلة الزفاف جلس فوزى فى الحان يفكر أمام كأس من الخمر : أتدرى سماح انه ظلم نفسه من أجلها ؟ وهل كان

مخطئا ؟ أم مصيبا ؟ أجلب اليها الهناء ، أم الشقاء ؟ **ليتها تخفف من مقتها له ·· ليتها تدرى انه لم يكن منغمسا مع امرأة ·· هل قدر له ان يظل دنسا فى عينيها ؟!·· انها الآن بين ذراعى زوجها ، فهل ستذكر القبلة عند الغدير ، وتحن الى الحبيب ؟ اقدر عليها أن تتألق الدموع فى عينيها فى ليلة الزفاف ؟ أم انها الآن قد نسيت جندى الهناء المجهول ؟**
أتدرى انه يحس الساعة ، الى جانب العلة التى تفرى كبده ، علة جديدة تخرط قلبه ·· لقد أقفرت الحانة من الشاربين فنهض ولم تمس شفتاه كأسه · ولما لفح جبهته هواء الطريق البارد سقطت من مقلتيه دمعتان تقولان : « **يا سماح ! انى برىء » !**

من أمثلة الغرب ··

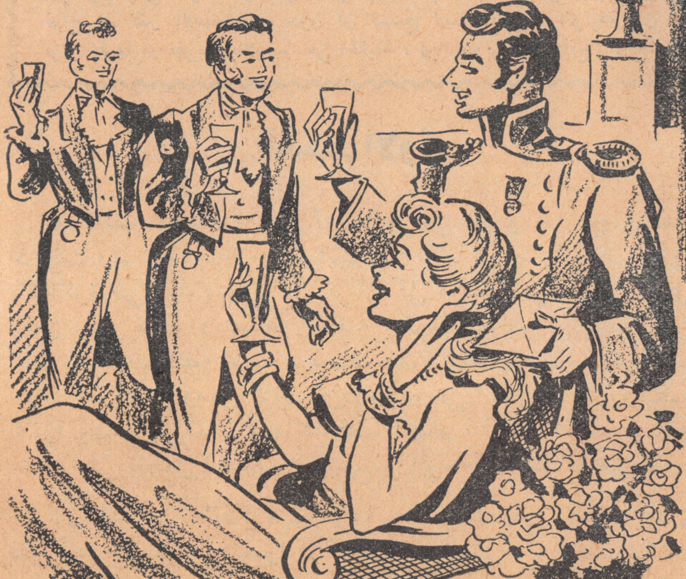
- القدرة والحاجة يقطنان فى قمرة واحدة ·
- كثيرون يسمون جيرانهم جحوشا وهم أنفسهم يحملون الاكياس !
- السير ببطء والحياة الطويلة شقيقان ·
- الابنة الماسية تتحول الى زجاج وهى زوجة !
- لا شىء يتطلب السرعة غير اقتناص البرغوث !
- نهاية الثعلب العادية هى محل الفراء
- على من أتعبته الايام السعيدة أن يتخذ زوجة !!
- للاكذوبة سيقان قصيرة ، و ن ثم فالصدق يسبقها ·
- المرض يأتى على ظهر جواد ويرحل راجلا ·
- مال قليل ·· قوانين قليلة !
- انما الرب لا يدفع كل أسبوع ·· ولكن فى الآخرة ·



دافني دي مورييه

ماري آن

الفتاة التي غررت بولي عهد انجلترا!



هذه القصـــة ٠٠

◆ انها صورة صارخة من صور الفساد واستغلال النفوذ اللذين يلازمان نظم الحكم حين ينخر السوس كيانها ٠٠ صورة عهد من أسوأ وأزرى العهود التى مرت بالملكية فى انجلترا - رغم ان الملكيـــة الانجليزية هى أعرق الملكيات فى التاريخ - هو العهد الذى كان فيه « دوق يورك » - ابن الملك جورج الثالث - ينغمس فى الفساد حتى أذنيه ، ويسمح لعشيقته بأن تتجر فى رتب الجيش البريطانى وترقياته!

ولعل أطرف مافى القصة ، ان مؤلفتها « دافنى دى موربيه » - وهى من أشهر المؤلفين الروائيين فى الادب الانجليزى الحديث - هى حفيدة ابنة « مارى آن » بطلة القصة ٠٠ ومع ذلك فانها لم تحجم عن معالجة الموضوع بكل صراحة وصدق ، وصورت حياة البطلة بكل مافيها من نواح قد تثير الاستنكار ، دون أن تسمح لصلة القرابة الوثيقة بأن تؤثر عليها أو تغريها بالاغضاء عن الحقيقة ، وبالتحوير فى وقائع التاريخ!

القسم الاول

◆ **كانت** ابتسامتها هى كل مابقى من ذكرى لعارفيها ، بعد اذ ولت ولم تعد جزءا من حياتهم ! ٠٠ اما قسماتها ، فلم يعلق بالذاكرة شىء فذ منها ، بل تركز كل ماتبقى من الكائن الذى رحل ، فى تلك الابتسامة الفاتنة ، تبدأ عند الركن الايسر من الفم ، وتحوم لحظة عابرة ، تسخر ممن كانت تحبهم - وبينهـم أفراد أسرتها - وممن كانت تزدريهم ، على السواء ! ٠٠ وبينما كانوا جميعا يترقبون منها قذائف التهكم ، كانت الابتســامة تتسع حتى تشمل العينين، وتشيع فى الوجه كله اشراقة مغتبطة ٠

كان هذا جل ماتذكره عارفوها بعد مر السنين ، اما ما عداه فقد غدا منسيا ٠٠ نسوا الاكاذيب ، والغش ، والانفعـــالات

الثائرة المباغتة .. ونسوا الاسراف الجامح ، والبذخ الارعن ، واللسان اللاذع .. ولم تبق فى ذاكرتهم سوى حرارة الغانية ، وحبها للحياة !

وكان أغرب مافى الامر ان أحب ثلاثة اليها ، ماتوا تباعا فى خلال عام واحد .. ولم يتأخر الرابع طويلا عن اللحاق بهم !.. كان أخوها «تشارلس طومسن» أسبقهم ، وثانيهم «وليمداولر»، الصديق الذى أخلص لها خمسا وعشرين عاما !.. واذ عاد «داولر» الى (برايتون) ـ بعدأن تعرف على جثة الاول ـ أخذيسائل نفسه: أكان بغضه لطومسن منبعثا طيلة الوقت عن «غيرة» ؟ .. لقد ارتضى هو ـ داولر ـ أن يكون لها «أصدقاء» كثيرون ، وبعد الصدمة التى أصابته اذ عرف بعلاقتها بـ « الدوق » ـ فى البداية ـ راض نفسه على أن ينظر الى هذه العلاقة كضرورة، من مستلزمات العمل !.. فما كان شىء ليقعد بمارى عما انتوت ، وقد قالت له ذات مرة : « كم اخبرتك اننى اتطلع الى مكانة عالية .. وها هو ذا السهم قد اصاب مرماه .. ولكننى سأظل بحاجة الى وجودك بجوارى .. فى مؤخرة المنظر ! »

وظل فى «مؤخرة المنظر» ، يخف اليها اذا مادعته ، ويزجى اليها النصح الذى لا تعمل به ، ويدفع عنها النفقات التى ينسى «الدوق» ان يدفعها !.. ولكن ، لم كان يفعل ذلك ، وما الذى عاد عليه منه ؟

وحملق فى الامواج التى كانت تتكسر على شاطىء (برايتون)، وهو يفكر فى الاسابيع التى قضياها معا قبل ان يظهر «الدوق» فى حياتيهما .. لعلها كانت تنشد طيلة الوقت احد ذوى الالقاب الضخمة ، ولكن حبه كان أعظم من أن يجعله ينتبه أو يحفل .. ولقد احتاجت اليه حتى فى تلك الحقبة التى سعدت فيها بالدوق فى (هامبستيد) .. ولكنها كانت اشد حاجة اليه عندما هجرها الدوق !.. ترى هل كان سعيها اليه فى تلك الليلة فى فندق

«رید» ، ولما تنقض ساعة على وصوله من لشبونه ، لتقول له : «کم کنت بحاجة الى معونتك !» ٠٠ هل كان سعيها هذا منبعثا عن عاطفة ؟٠٠ أم انها كانت قد رسمت خطتها لتراه قبل أن یدری شيئا عن الاحداث ، مطمئنة الى ضعفه ازاء رغباتها ، واثقة من أنه سيكون خير شاهد فی صفها اذا مانظر مجلس العموم قضيتها ؟

ولم يهتد «داولر» الى جواب عن هذا السؤال ، ولا عن أی سؤال آخر ، فولى البحر ظهره ، ووقف فی احترام ـ كغيره ممن كانوا يتنزهون على الشاطیء ـ اذ مرت عربة بها فتاة ورجل مسن سمين ٠٠ وكأنها صدى للذكريات ٠٠ كان الرجل «دوق يورك» ، والفتاة ابنة أخته الاميرة «فيكتوريا» ٠٠ وكان «الدوق» يبدو أكبر بكثير من سنی عمره الاثنتين والستين ، وكأنما غلبته الشيخوخة فی الفترة الاخيرة ٠٠ وكان فی جلسته هذه ، مؤتنسا بجوار تلك الفتاة الصغيرة ، مايثير العطف والرثاء ، اذ روت الشائعات كثيرا من القصص عن تعاسته فی الايام الاخيرة ، وعجزه عن مغالبة حزنه على حبيبته الاخيرة « دوقة رتلند » !٠٠ ولكن «داولر» كان أكثر ميلا الى أن يصدق شائعة أخرى تقول ان مرض الاستسقاء لن يلبث أن يقضی على «الدوق» بعد شهور قلائل ، واذ ذاك ستعمد الصحف الى اثارة الوحل القديم ٠٠ التحقيق الذی جری ٠٠ وستنشر اسم «ماری آن» من جديد !

ذكريات ٠٠ وذكريات !

◆ **على** أن «داولر» نجا من أن يتعرض لهذا العذاب ، اذ مات قبل أن يموت «الدوق» بأربعة شهور ٠٠ وكان «الدوق» هو الذی قرأ نعيه ، وهو يجلس فی دار شارع «آرلينجتن» وساقه المعلولة فی الضمادات ممددة على مقعد أمامه ٠٠ ولعله كان قد راح فی اغفاءة وهو شارد يفكر ٠٠ «داولر» مات !؟ ٠٠ «وليم داولر» أمين مخازن قوات صاحب الجلالة !؟٠٠ وفی اللحظة

التالية ، كانت الذكريات قد انتقلت بالدوق ـ عبر السنين ـ الى قصر ميدان (جلوستر) ، فرأى نفسه وهو يخلع سيفه وحزامه ، ويطوى كل ثلاث درجات من السلم فى قفزة ، وصوت «مارى آن» يناديه من الطابق العلوى : «مولاى ، اننى أنتظرك منذ ساعات» ٠٠ ودفع الباب بقدمه ، ثم اجتذبه وراءه ، وتلقاها بين ذراعيه !٠٠ «وليم داولر» !؟٠٠ أجل ، كان هذا اسم الرجل الذى توسطت لديه من أجله ٠ وقد عثر له يومئذ على عمل فى ادارة التعيينات بالجيش ، بمخازن المؤن للقيادة الشرقية ٠ ٠ انه ليذكر كل شىء ، حتى التاريخ ٠٠ يونيه أو يوليه ١٨٠٥ ٠٠ ولقد سألها اذ ذاك وقد أثقل الشراب رأسه ، واستقر رأسها على كتفه ، سألها : كيف سيعبر الشاب عن تقديره للصنيع ، فأجابت : «بأن يؤدى كل ما أطلبه منه ٠٠ كأن يدفع حساب القصاب الذى لم ندفعه منذ ثلاثة شهور ! ـ ولهذا تناولت الليلة مع عشائك سمكا بدل اللحم !»

وخيل الى الدوق أن صدى ضحكتها يتصاعد من الماضى ليعذبه ، فيخرجه الالم من هناءة الذكريات ٠٠ لماذا انتهت تلك السنوات سراعا ؟٠٠ أكانت أكثر دفئا من أن تدوم ؟ ٠٠ ام ان السبب كان راجعا الى ذلك الفضولى « آدم » الذى سعى بالسوء ؟٠٠ أم هو ذلك الزوج السكير وماكان يكيله من تهديدات ؟

لقد عدا الموت عليهم جميعا ٠٠ حتى «الدوق» لم يلبث أن مات ، ولحق به الزوج السكير الذى عناه ، اذ توفى فى ٩ فبراير سنة ١٨٣٦ ، وجاء فى نعيه : « ٠٠ ومن الشائع ان مستر « ج ٠ كلارك » كان زوجا لمارى آن كلارك ، التى ذاع اسمها مقترنا بالدور الذى قامت به فى محاكمة صاحب السمو الملكى المرحوم دوق يورك ٠٠»٠٠ ثم عقبت الصحيفة بأن طباع الرجل ساءت من فرط مانزل بحياته العائلية من محن ونحس، مما أدى الى اختبال عقله !

وبموت ذلك الزوج السكير ، انتقلت الى الابدية آخر حلقة من قصة « ماری آن » ، ولم تبق سوى حزم من الخطابات ، والمنشورات المليئة بفحش القول ، والصحف القديمة ‥ على أن صاحبة الابتسامة احتفظت بالضحكة الاخيرة لنفسها ، حتى النهاية !‥ لم تكن شبحا ، ولا ذكرى ، ولا خيالا مر بحلم ثم اختفى محطما قلوب أولئك الذين اندفعوا فى حبه ‥ وانما كانت عجوزا شمطاء ماتزال على قيد الحياة !

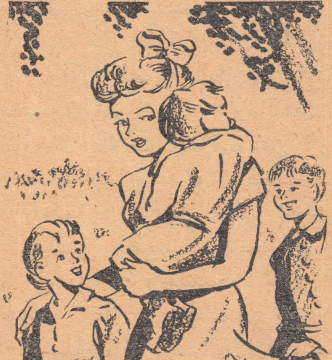
ولقد اعتادت وهى فى السادسة والسبعين أن تجلس الى نافذة دارها فى (بولونى) ، وترسل البصر عبر (المانش) الى انجلترا ، التى نسيت كل شىء عنها !‥ وكانت أحب بنتيها اليها قد ماتت ، وابنتها الثانية تعيش فى لندن ‥ وأصبح الاحفاد الذين حنت عليهم صغارا يستحيون من نسبهم اليها ، فلم يعودوا يكتبون اليها !‥ والابن الذى كادت « تعبده » قد انصرف الى حياته الخاصة ‥ والرجال والنســاء الذين عرفتهم قد انسابوا الى بحر النسيان ! وخلفوها لذكرياتها !

★ ★ ★

◆ **كان** أول ماوعته ذاكرتها هو عبير مداد الطباعة ، اذ كان « بوب فاركهار » ـ زوج أمها ـ يعود ملطخ الثياب به ، فتقابله أمها مزمجرة ، مستاءة ‥ وكان يجلس الى العشاء ملوث اليدين بالمداد ، فتلاحظ « ماری آن » ـ بما فطرت عليه من ذكاء لماح ـ مايخالج أمها من سخط ، ولكنها كانت تحب زوج أمها ، فاذا أحست بأن أمها توشك أن تلومه ، قرصت أحد اخوتها فى الخفاء ، فيصيح ، وتشغل الام بهذا الامر ، بينما ينصرف زوجها الى الاكل وتصحيح « البروفات » التى لا تزال مبللة ، فى آن واحد ‥ ومن هذه «البروفات» تعلمت « ماری آن » الكتابة بمساعدة زوج أمها وحدبه ‥ كما علمها أشياء أخرى ، ففى السن التى كانت لداتها فيها يتعلمن الحروف الهجائية ، كانت

هى تجلس على عتبة البيت العتيق فى (باولينج ان آلى)وتطلق سيلا من الحملات على الحكومة ، والسياسة الخارجية ، والزعماء، تمازجه ألفاظ السباب ، وأنباء الفضائح !٠٠ وكانت أمها تناديها وهى متعبة وقد ضاقت بها : « راقبى الاولاد ياماری آن ، واغسلى عنى الصحاف » ٠٠ وكانت الصغيرة تصدع مرغمة ، مقدرة عذر أمها ٠٠ فقد كانت لاتنهض عن وضع طفل ، الا لتحمل غيره من جديد !

وكانت «ماری آن» اذا فرغت من عملها ، حملت أحد اخوتها على خاصرتها ، وأمسكت بيد الثانى ، وتركت الثالث يتشبث بذيل ثوبها ، وخرجت بهم من الحارة المعتمة الى شوارع لندن ! هناك كان عالم آخر أحبته ٠٠ وكان لها من الشوارع مرشدون، ومدرسون ، ورفقاء ، وملاعب ٠٠ فيها من يلبسون الحرير ، ومن يجرون الاسمال ٠٠ وفيها من تبدو عليهم التخمة ، ومن يتضورون جوعا٠٠وكان الدرس الذى وعته أن المرء اذا شاء أن يتفادى الاسمال والجوع ، وجب أن يفتح عينيه ، وان يترقب ، وان يسبق سواه الى قطعة النقود التى تقع على الرصيف،فيجرى بها ،ويخفيها ، ويبتسم فى اللحظة المناسبة ، ويختبىء فى اللحظة التالية ، ويحتفظ بما لديه ، ويحرص على ما عنده ٠٠ وكان أهم ما حرصت على أن تتذكره ، هو أن لا تنشأ كأمها ٠٠ بل تنشد النعيم والرفاهية ! قالت لبوب فاركهار والجميع جلوس الى العشاء ذات



يوم من أيام الصيف القائظة : « سأتزوج من موسر اذا ماكبرت ! » ٠٠ فضحك وغمز بعينه قائلا : « عليك أن تتدبرى أولا وسيلة العثور عليه ! » ٠٠ وكانت اذ ذاك فى الثالثة عشرة من عمرها ٠٠ ومع ذلك فقد هتفت : « الوسيلة حاضرة ٠٠ ان أستغفل رجلا قبل أن يستغفلنى !»

وعابت عليها أمها أن تلتقط مثل هذه الافكار من بنات الشوارع ، فقال فاركهار : « وأى ضير ؟ ٠٠ انها لبيبة كالقردة، وتعرف كل شىء ، ومن كانت كذلك لايخشى عليها أن تقع فى المتاعب » ٠٠ ثم ألقى للفتاة بحزمة « البروفات » ، وخرج ٠٠

وكانت تعرف أين يذهب بعد العشاء ، وكثيرا ماكانت تتبعه اذ يمضى يجمع رفاقه ، ثم يجلسون فى الحانة يتجاذبون أطراف الحديث ٠٠ وكان حديث الرجال يلذ لها أكثر من حديث النساء ، فلا ذكر فيه للطعام ، ولا للاطفال ، ولا للمرض ، ولا لترتيق الثياب ، ولا لأعمال البيت !

وعكفت « ماری آن » على «البروفات»تصححها ٠٠ وفيماكانت مستغرقة ، سمعت أخاها « تشارلى » يصيح من سريره : « هناك من يطرق الباب الخارجى » ، فقالت : « دعه يطرق ! » ٠٠ ولكن الصغير أطل من النافذة وعاد يقول : « بعض رجال يحملون أبى ! » ٠٠ ومالبثت أن سمعت أمها تصرخ ٠٠وصعد الرجال بالأب الغائب عن الوعى ٠٠ وأسرعت « ماری آن » و « تشارلى » يدعوان طبيبا ، بعد أن حبسا الولدين الآخرين واختهما « ايزوبل » فى احدى الغرف ٠٠

وأقبل الطبيب ، وبعد أن رد الى الرجل وعيه ، انصرف مع الآخرين ٠٠ وجلست « ماری آن » الى جوار زوج أمها وأمسكت بيده ، فقال : « لسوف يعينون غيرى لتصحيح « البروفات » ٠٠ سأحملك رسالة فى الصباح ، لا تسلميها لغير مستر « داى » مراقب المطبعة » ٠٠ بينما عصرت أمها يديها فى قنوط وقالت : « لقد انتهى كل شىء ٠٠ لسوف يلازم الفراش شهورا، فمن أين نأكل ؟! »

وعكفت « مارى آن » على « البروفات » تتم تصحيحها ،وتعيد قراءتها ٠٠ وقبل أن يستيقظ أحد من الأسرة فى الصباح ، تسللت من الدار وأسرعت الى المطبعة فى (فليت ستريت) ٠٠ وظلت تتسلل من باب الى باب ، حتى دخلت على سيد أنيق ، فى غرفة كان يشاطره اياها سيد أقل أناقة ، فقالت للأول : « ان أبى مريض » ٠٠ فتطلع اليها الرجل متسائلا : « ومن يكون أبوك ؟ »

ـ انه « روبرت فاركهار »

ولم يبد على الرجل انه يعرف الاسم ، فقال الآخر : « انه من خيرة رجالنا يامستر هيوز ٠٠ جامع حروف ومصحح »

ـ ابحث عن شخص يخلفه يامستر « داى » ، وادفع للطفلة مرتب أسبوع ٠٠

ودفع اليها الرجل النقود ٠٠ ولكنها لم تنصرف ، بل راحت تجادل ، وتحاول ، حتى قبل أن تعود كل مساء فتجمع «البروفات» وتردها فى الصباح مصححة !

وعندما رجعت الى الدار ، علمت ان الطبيب عاد زوج أمها وأمره بأن يلزم الراحة التامة ٠٠

ولم تنبىء أحدا بما جرى فى المطبعة ، بل قالت ان المراقب وعد بأن يدفع للاسرة خمسة شلنات فى كل أسبوع ريثما يشفى عائلها ٠٠ وفى صمت تولت تصحيح « البروفات » ثلاثة أسابيع متوالية ٠٠ وفى بداية الاسبوع الرابع ، عادت الى البيت بعد أن تنزهت مع اخوتها الصغار ، ففاجأها زوج أمها قائلا :

ـ لقد كان مستر « داى » مراقب المطبعة هنا ٠٠ وقد شكرنى على دقة التصحيح ، فأنبأته بأننى لم أصحح شيئا ، ثم أدركت ماكنت تفعلين ٠٠

وجزعت الفتاة ، خشية أن يكون عملها قد أغضب مستر

« دای » ٠٠ ولكن زوج أمها أنبأها بأن الرجل رغب فى أن يراها فى اليوم التالى ٠٠

وسعت اليه في الصباح ٠٠ وبادرها الرجل متسائلا : « لماذا خدعتينا ياماری آن ؟ »

ـ كنا فى حاجة الى المال ٠٠

ـ ان مافى « البروفات » ليس مما يليق بالفتيات الصغيرات ان يقرأنه ٠٠ لقد تحدثت طويلا الى أبيك ، واتفقنا على أن يسترد مكانه لدينا اذا ماشــفى ٠ اما انت ، فلن تصححى « بروفات » بعد اليوم ، وانما ستذهبين الى المدرسة ٠٠ مدرسة داخلية سأتكفل بنفقــات تعليمك فيها ، لتصبحى سيدة مثقفة راقية !

مغامرة غرامية ٠٠ قبل الزواج !

◆ وكانت هذه بداية كل شيء ٠٠ بداية المغامرة

ولم تكد الصبية تبلغ الخامسة عشرة ونصف السنة حتى كانت قد أتمت الدراسة بالمدرسة ٠ أجادت القراءة ، والكتابة ٠ وأتقنت التطريز ، والرسم ، وعزف الموسيقى !٠٠ ولكن نموها كان يسبق ســـنها ، مما كان يشغل بال القائمات على المدرسة ، فقد كان الرجال يتبعونها بنظرات جريئة اذا سارت فى الطريق٠٠ ولم يدهش مستر « دای » لذلك حين ذهب ليتسلمها من المدرسة ، فقد صارت ٠٠ حسناء !

وحين عادت الى أهلها وجدت الاحوال قد تغيرت : فقد انتقلت الاسرة الى مسكن أفضل من السابق ، والتحق الصبية الثلاثة بالمدرسة ، بينما بقيت « ايزوبل » مع أمها ٠٠ أما « بوب فاركهار »فكان أكثر اغراقا فى الشراب من ذى قبل ٠٠ ومالبث أن اقدم على ماهو أنكى ، اذ هجر الأسرة ليعيش مع امرأة فى (ديتبفورد) !

وانهار ماتبقى من جلد زوجته مسز فاركهار ٠ وجأت « مارى آن » الى مستر « دای » تسأله أن يسمح لها بأن تصحح «البروفات» لتدبر للأسرة معاشها ٠٠ واشفق الرجل على جمالها من الشارع ، فقبل ، مشترطا أن يتولى أخوها «تشارلى» حمل «البروفات» بين البيت والمطبعة ٠٠ كما اتفقت مع صاحب البيت على أن يسمح لأمها بأن تأوى بعض النزلاء من الشبان الذين كان هو يدربهم على أعمال مقاولى البناء وسماسرة المبانى فى البورصة ٠٠ وسرعان ماحل بالمسكن اثنان من هؤلاء الشبان الناشئين ٠٠

وكان « جوزيف كلارك » أحد النزيلين : شاب متأنق ، متعجرف ، يفاخر بأنه ليس بحاجة الى عمل ، ولكن اباه الموسر أراده على أن يتعلم مهنته ليساهم مع اخويه اللذين توليا العمل عن أبيهما بعد اذ أقعده الكبر ٠٠ وكان الاب سمسارا للمباني ، يشترى ويبيع ويضارب وينشىء ماستطاع منها ٠

وانبهرت ابنة الخامسة عشرة ، التى تضطرم فى صدرها أحاسيس الانوثة المبكرة ، بالشاب الانيق ، العابث ٠٠ فكانت مغامرتها الغرامية الاولى !٠٠ وفى صباح أحد أيام شهر ابريل ، فاجأتهما مسز فاركهار ٠٠ وكانت النتيجة دموعا، لا من « مارى آن » ، بل من أمها التى أخذت تنحى باللائمة على الشاب الذى استغل ضعف « مارى آن » ولا أب يحميها !٠٠ لكن الفتاة صاحت : « اننى أحبه ، وهو يحبنى ، ولسوف نتزوج ٠ أليس كذلك ياجوزيف ؟ »

ولم يجب « جوزيف » ، بل غادر النزل ٠٠ أما « مارى آن » فقد أمرتها أمها بأن تلزم غرفتها ٠٠ حتى اذا كان المساء ، قالت لها : « لقد غادرنا جوزيف كلارك نهائيا ٠٠ ولن يعنينى ، ولا يعنيك أنت الاخرى ، مقره ، لانك بدورك ستغادريننا ٠٠ ستتولين تدبير شئون منزل مستر « داى » ، فقد أنبأته بما جرى ، فوافق على انك بحاجة الى حماية ٠٠ أبوية »

وقبلت « مارى آن » لفورها ، فقد خطر لها ان فى استطاعتها أن تفعل ماتشاء بمجرد أن يغادر مستر « داى » داره الى المطبعة فى كل صباح ٠٠ وهكذا استطاعت أن تعثر على « جوزيف » ، ولم يعد العالم بأسره يهمها اذ صارا معا !٠٠ وفى التاسع عشر من شهر مايو سنة ١٧٩٢ ، صارا زوجين ٠٠ وكان اليوم يوم عيد ميلادها السادس عشر !

امرأة ٠٠ لا تهزها العواصف !

◆ ولكن سعادتها لم تدم طويلا ، فمالبثت أن عرفت ان « جوزيف » قد فقد كل ماله فى المقامرة ٠٠ وان أباه قد نفض يديه منه ، وان كان سيمنحه جنيها فى كل أسبوع ، اكراما لخاطر أمه !

ولم تستسلم « مارى آن » للتشاؤم ، بل سعت بنفسها الى منزل « جون كلارك » ـ الاخ الاكبر لزوجها ، من أم غير أمه ـ وفتح لها « جون » الباب بنفسه ، فقالت له : « أنا زوجة جوزيف » ، ثم انفجرت فى البكاء ٠٠ وكان لدموعها فى نفسه فعل السحر ٠٠ فلم ينقض أسبوع ، حتى أفرد الطابق العلوى من بيت « جون » لاخيه وزوجته ٠٠

وعاشت « مارى آن » و « جوزيف » هناك عامين ، انجبا خلالهما ولدا سرعان ما مات ، وبنتا أطلق عليها اسم أمها « مارى آن » ٠٠ وبينما كان الطفل الثالث فى طريقه الى الدنيا ، أعلنت « مارى آن » ان المسكن لم يعد يليق بهما ٠

وكان زوجها قد قنع بالجنيه الاسبوعى الذى ظل يتقاضاه ، حتى بعد موت أبيه ، وبالسكن الذى لم يكن يكبده مليما ٠٠ ولكن « مارى آن » لم تكن بالتى تنثنى عن غايتها ، فسعت لدى « جون » - الذى كان على شقاق مع أخيه الآخر وشريكه فى مؤسسة أبيهما - وأقنعته بأن يساعده ، بأن يبتاع له منزلا كان معروضا للبيع فى (جولدن لين) ، وبأن يمكنه من أن يبدأ عملا - كمقاول للبناء - على أن يتقاسم الارباح معه ٠٠

وكان لها ماشاءت ٠٠ وأصبح لها بيت مستقل ، وخادم تدعى « مارتا » ٠٠ ولكن «جوزيف» لم يعكف على العمل ، وانما أقبل على الخمر !٠٠ ولم تتكلم «مارى آن » ، أو تلمه - فقد كانت تدرك أن الشجار واللوم هما اللذان حفزا « بوب فاركهار » على أن يهجر أمها ! - وانما جعلت شعارها ان لا تبتئس ، وأن لا ترهب المستقبل ، فان القلب الملىء بالامل ، كفيل بأن يكسب ثلاثة أرباع المعركة ٠٠ وكانت لاتزال تحب « جوزيف » ، فقد كان شابا ، وكان مليحا ، و ٠٠ كان لها وحدها !

وفى ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٥ وضعت ابنهما « ادوارد » ٠٠ وفى الليلة ذاتها عاد « جوزيف » شاحب الوجه ، مهموما ٠٠ فقد خسر أخوه « جون » كل ثروته فى المضاربة ، وانتحر !

ولكنها راحت تناضل القدر ، محتفظة بابتسامتها ، ولو كمظهر ٠٠ ومرت الاعوام ، وأصبح أولادهما أربعة : « مارى آن » ، و « ادوارد » و« الين » و « جورج » ٠٠ وكانت اذا أقبل الليل ، وأوت الى فراشها بجانب زوجها المخمور ،تمثلت نفسها تسير الى نفس مصير أمها : طفل فى كل عام ، وفقر ، ومرض ، وقلق ! وكان هذا يحفزها على أن تجهد ذهنها بحثا عن مخرج ،فأوحت مرة الى زوجها بأن يغرى بعض الناشرين على أن يشتركوا معه فى نشر صحيفة من الصحف الرخيصة تولت بنفسها كتابة مادتها من الفضائح ٠٠ ولكن المشروع فشل ، وقضى على « جوزيف » بالافلاس ، واستولى الدائنون على الدار ٠٠ وهنا تذكرت أن لزوجها أخا أصغر ، قسيسا ، هو الاب « جيمس صمويل » ، الذى كفل زوجة « جون » بعد انتحار زوجها ٠٠ فقررت ان لن يثقله أن يفرد لهم بدورهم حجرة فى بيته فى ميدان (كرافن) ٠٠ وهكذا انتقلت الاسرة الى هناك !

زوج فاشل ٠٠ وحبيب ناجح !

◆ ووجدت « مارى آن » جيرة تلذ لها فى الحى الجديد ٠٠ فقد كانت ظامئة الى الوجوه الجديدة ، ووجدت فى جارة تدعى « ماى تايلور » بغيتها ، اذ كان لها أقارب ذوو صلات قد تفيد منها ، وكان منهم عم يملك متجرا ويتولى توريد الاحذية لافراد الاسرة المالكة ٠٠ فما ان التقى بمارى آن عند ابنة أخيه ، ولمس

ظروفها ، حتى انتهز فرصة انصراف « ماى » عنهما ، ليعرض عليها معونته :«انك شابة ، جميلة، ذكية ٠٠ وقد ساعدت كثيرات ممن كن فى ظروفك ، ولست أطلب أكثر من أن تكتمى الامر عن ابنة أخى ! » ٠٠ كان كثير من عملائه ـ من سادة المجتمع ـ يتوقون الى رفقة الحسان الذكيات ، ومن ثم أعد لهم عددا من المساكن فى شارع (بوند) ، حرص على أن تكون محوطة بالهدوء ، والتكتم، سيما وان الذين كانوا يرتادونها هم زبدة المجتمع ، ومنهم أمير « ويلز » ٠٠ ولى عهد المملكة !

وأدركت ماكان يرمى اليه ٠٠ وبدت لها الفكرة مثيرة ، مسلية !

وفى ذلك الحى أيضا ، تعرفت الى « وليم داولر » ، من رجال البورصة ـ وكان قد قدمه اليها أحد أصدقاء أشقاء « ماى » ـ وكان لقاؤهما من تلك الأحداث التى تغير مجرى الحياة ، فقد أعجبت به ، وكان أزرق العينين ، متوسط الطول ، أبيض البشرة ٠٠ وانسجما معا ، فأحس كل منهما بتفاعل فى أعماقه هز نفسه ٠٠ كانت شهية « جوزيف » الجنسية قد فترت ، فى حين كان « داولر » ما يزال مشبوب العواطف ، وكان قد بلغ ماعجز الاول عن أن يبلغه فى الحياة ، وأوتى من الطباع مالم يؤته الآخر ٠٠ فأحست « مارى آن » بأنه من النوع الذى تطمئن الى أن بوسعه أن يحميها دون أن يسعى للتحكم فيها ، وأن ينشد عطفها، فى غير ما ضعف ٠٠ وكان اذاتكلم تخير كلماته ، ووزن أفكاره ٠٠ فانزاح عن عينيها البريق الذى أزاغ بصرها حين كانت فى الخامسة عشرة من عمرها ! ٠٠ وراعها منه انه لم يحاول أن يفرض نفسه على عواطفها ، بل راح يتسلل فى تؤدة ، وتحفظ ٠٠ يذكى جذوتها فى صبر ، ويحملها على أن تسائل نفسها وهى مبهوتة ازاء مشاعرها ، محنقة من أجل كبريائها : « اننى أهوى هذا الرجل ، فكيف أظفر به ؟ »

وكانت العقبة ان « داولر » كان شريفا ، نشأ على أن يعرف لله حدوده ، وأن يقاوم الشيطان ! ٠٠ ولكن « جوزيف » تطوع لأن يفرض على الاثنين المصير المحتوم ، فقد انتهى به الافراط فى الشراب الى انهيار شديد ٠٠ وفى حجرة مكتب القس ، اجتمعت الاسرة تنصت الى رأى الطبيب ، الذى كان يقول : « لسوف يقتضى الامر شهورا من الرعاية والتمريض والمراقبة التى لاتهن لحظة واحدة ٠٠ اذ ان كأسا واحدة من الخمر كفيلة بأن تحدث انهيارا جديدا ٠٠ انه عبء سيظل على عاتقك طيلة العمر يامسز كلارك ٠٠ وسيكون أكثر ثقلا عليك بالذات ، لان لديك اطفالا ! »

وكانت الصدمة قاسية ، ولكنها مالبثت أن استجمعت جلدها وهى تذكر فى فزع حياة أمها ، وهتفت : «اذا كان لى أن أختار بينه وبين أطفالى ، فاننى أختار الأطفال ٠٠ لقد احتملت تسع سنوات ٠٠ وخير لنفسه ولنا جميعا لو انه انتحر كأخيه جون ! »

وبهت الأب « جيمس » ، وأرملة « جون » •• ولكن الطبيب كان مرهف المشاعر ، لمس حالها ، فنصح لها بأن تستجم فى الريف لتهدأ أعصابها ، على أن يبقى زوجها فى (كرافن) ، يسهر عليه ممرض أجير !•• وبينما كان الاطفال يشحنون فى عربة لتحملهم الى (هامبستيد) ، سارعت « مارى آن » خلسة الى ارسال النبأ الى « داولر » ••

وفى « الكوخ الاصفر » ، المشرف على تلال (هافرستوك) ، استقرت الأم وأولادها فى رعاية مسز اندروز ، صاحبة الكوخ •• وسرعان ما خلا الجو للعاشقين ، لم يعكر صفاءه سوى ان الصغار أصيبوا بالحصبة •• وكان «داولر» يسألها : « ألن تعودى الى زوجك ؟ » •• فكانت تجيب باصرار : « أبدا ••أبدا!» •• وازداد اصرارها عندما مات ابنها « ادوارد » تحت وطأة الداء ، فقد رأت ان « جوزيف » هو المسئول عن موته ، وعن المأساة كلها !•• ولم تستطع أن تفصل النجاح عن راحة البال فى ذهنها : فليس للفشل من نتيجة سوى الفقر ، والفقر لايؤدى الا الى الحياة القذرة ، العفنة ، التى منيت بها أمها ! وقد كان « جوزيف » فاشلا !

منزل مقابل •••!

◆ ولم يعد « بيل داولر » مجرد رجل يرضى الحنين الذى كان يصرخ فى أعماقها ، وانما أصبح أيضا عائلا وصديقا ، وقد عولت على أن تعمل على بقائه فى هذا الوضع ، حتى اذا فتر حبه وخلا كيس نقوده ، ولت وجهها شطر آخر !

وزارها صانع الاحذية ـ « العم توم » ـ مع ابنة أخيه « ماى تايلر » ، فأدركت لتوها سر الزيارة •• قرأته فى عينيه !•• وفعلا ، لم تكد تسنح فرصة انفرد خلالها بها ، حتى سألها : « فهمت من ابنة أخى انك لن تعودى الى حى (كرافن) ثانية •• وانك ، اذا جاز لى أن أقول ، قد دبرت أمورك ؟ »

ـ لم أعد أعتمد على مال من زوجى أو أقاربه ••

ـ هو ذلك •• اجراء مؤقت •• معونة من صديق

•• وتحول ـ فى لهجة مليئة بالعطف ـ يلقى الريب على بورصة الاوراق المالية ومصير المشتغلين بالمضاربات ! •• وكانت تنظر الى « بيل » ـ اسم التدليل لوليم داولر ـ فتراه رزينا ، أهلا للثقة والاعتماد ، ولكنها لا تلبث أن تذكر أن المضاربات هى التى قضت على « جون كلارك » •• وتعود فتتذكر حرص « بيل » ، وحكمته ، وتعلقه بأبويه •• ترى هل لها ان تطمئن الى انها وأولادها سيظلون يجدون صدرا رحبا لدى هذا الرجل الذى يتردد أبواه على الكنيسة ، ويحترمان القانون ؟

وأثارتها هذه الافكار ، فنهضت الى داولر وهتفت به : « خذنى من هنا •• لم أعد أحتمل ! » •• وتطلع اليها مشدوها ، حائرا •• لقد رآها تثرثر وتضحك

مع العجوز منذ لحظات ، فما الذى أثار جزعها ؟ ٠٠ وقال أخيرا : « لك ماشئت ، متى رغبت ٠٠ ولكن ، ما الذى جرى ؟ »

ودت أن تقول له انها تخشى أن يهجرها ويتخلى عنها ، ولو اكراما لأبويه المتدينين اذا هما أراداه على ذلك ، ولكنها قاومت ، وابتسمت قائلة : « انما مللت الاقامة هنا ٠٠ أريد أن أرى شيئا من الحياة ٠٠ لنذهب الى (برايتون)٠٠

وفى (برايتون) أخذت تخرج للنزهة معه على شاطىء النهر ، تؤثره وحده بابتساماتها ، ونظراتها ، رغم الانظار التى كانت تلاحقها ٠٠ وكان هو - من ناحيته - فخورا بها وبمظهرها ، وقد نسقت شعرها وفق آخر طراز ، وارتدت ثوبا من أحدث الازياء - وان لم تكن قد سدت ثمنه بعد آ - وقبعة ثبتت الريش فى أحد جوانبها بحيث يميل فيكسوها ٠٠

وفى هذه النزهات كانت تنسى الدنيا ، وهمومها ٠٠ كان الناس حولها يروقون لها - فهذا هو المجتمع الراقى الذى طالما قرأت عنه وتمثلته فى خيالها !ـ

وفى ذات يوم ، التقت بجيمس بيرتون ، ثانى الاثنين اللذين نزلا لدى أمها حين عرضت بعض غرف بيتها للايجار ٠ ولم يسألها عن زميله «جوزيف كلارك» ، وكأنما ألم بالواقع من النظرة الاولى ، فلم يدهش له ٠٠ واستطاعت فى ذلك المساء أن تتهرب من « داولر » وأن تلقى « بيرتون » ، فتبادره لفورها « اننى أريد بيتا فى لندن ٠٠ وليكن عقد الايجار لعشر سنوات ! »

وتطلع اليها فى دهشة ، وكأنه يتساءل عمن سيتولى الانفاق ٠٠ وقالت وكأنها تجيبه : « أحب أن تعرف اننى هجرت جوزيف نهائيا ٠٠ وسأعول نفسى ،وأقيم مع أمى وأولادى »

وقال لها أن لديه منازل فى ميدان (تافستوك) يتراوح ايجارها بين ألف جنيه وألف وأربعمائة فى العام ٠ فلما حاولت أن تستوضحه نظام الدفع ، ابتسم قائلا : « مثل هذه المسائل تدبر فيما بعد ، لا سيما مع صديقة مثلك ! »

واتفقا على أن يتم الانتقال قبيل الربيع ٠٠ ولكن الشهور القلائل التى مكثتها فى (برايتون) لم تذهب عبثا ٠ كان « داولر » كلما وافاها فى نهاية الاسبوع وجد لديها أصدقاء ، أو ألفاها على مواعيد !٠٠ وكانت تروغ منه اذا سألها ، قائلة : « اننى لم أنعم فى حياتى بتسلية أو لهو » ٠٠ وكان عليه أن يقبل الواقع أو ينصرف !٠٠ وصادف فى تلك الاثناء أن حظه لم يكن مواتيا فى البورصة ، فلما انتهى موسم الاصطياف فى (برايتون) ، وانقضى الخريف، جاء يعرض عليها أن تنتقل معه الى بيت ريفى قريب من مسقط رأسه ٠٠ واذ ذاك ، فاجأته بأنها استأجرت منزلا فى (تافستوك) !

وأدرك ان (برايتون) لم تكن المسرح الذى كانت تتطلع اليه ، وانما كانت مجرد تجربة ٠٠ ولم ينصرف ، بل قرر أن يبقى ، ويتفرج !

القسم الثانى

◆ كان البيت أنيقا ، بهيجا ٠٠ وعندما دق الجرس ، وسأل عن مسز كلارك ، صافحت سمعه أصوات عالية ، وصافحت بصره معاطف ، وعصى ، وقبعات ، أكدت له انه لم يخطىء البيت !٠٠ ودعى الى الصعود الى الطابق العلوى ، فى غير ماكلفة ـ تماما كما قالوا له ! ـ واستقبلته فى قاعة بالطابق العلوى سيدة مسنة ، صافحته بيد معروقة ، وقالت له : « اننى مسز فاركهار ٠٠ ان ابنتى لم تصل بعد من (رامسجيت) »

وقدم اليه قدح من النبيذ وبعض البسكويت ٠ وكان ثمة أطفال يحدثون ضجيجا وهرجا ، وبعض السادة الضيوف ـ الذين عرف بعضهم بالنظر ، اذ كانوا من الشبان الذين يحومون حول الدوائر الملكية ! ـ يلاعبونهم ٠٠ وتذكر الرسالة التى تلقاها من « توم تايلر » ٠ لقد قال فيها : « نستطيع فيما بيننا أن نصوغها لتليق للشخص الذى تعرفه ! »

وحدث فجأة شيء من الهرج ، واندفع الاطفال والشبان الى الباب ٠٠ وبين الضجيج داعبت الاذن ضحكة وصوت يجتذب الانتباه : «لا ترهقونى يا احبائى ٠٠ لن تصدقى ياأماه اننا جئنا من (رامسجيت) فى خمس ساعات ٠٠ ولكن أين « ايزوبل » ؟٠٠ اننى أكاد أموت جوعا ٠٠ من هنا ؟ ٠٠ جونى ؟٠٠ كيف انت ٠٠ جميل ان نراك ٠٠ وهارى أيضا ٠٠ وبوبى ٠٠ من هذا الواقف فى الركن ؟٠٠ ما أرانى أعرف وجهه »

وتقدم الغريب فانحنى وقبل يديها ، وغمغم باسمه مقدما لها بطاقة ، انعمت العينان الزرقاوان فيها ، ثم تفرستا فى وجهه : « كأنى بها كانت تتساءل عما ابغى ٠٠ لقد أصاب « توم » ٠٠ هذا هو الطراز الذى نريد : ذكية ، وثابة الطموح ! »

ورفعت حاجبيها ، وقرأت مهنته تحت اسمه فى البطاقة ، ثم هتفت :«اوجيلفى؟ ٠٠ من ادارة التعيينات فى الجيش ٠٠ لابد انك جم المشاغل ، فان الحرب على الأبواب ، وعشرات الشبان يتلهفون على العمل مع الجيش »

وأذهلته ابتسامتها الساخرة ٠٠ وتمتم : « ان لك دارا بديعة ، فى موقع رئيسى ٠٠ لابد ان لك أصدقاء كثيرين يأتون كل مساء للسهرة ؟ »

ولم يختلج لها جفن ، بل قالت : « اننا نرحب بالاصدقاء المقربين ، ولكنهم لا يأتون الا اذا دعوناهم ٠٠ ثم لا يلبثون ان ينصرفوا بعد العشاء ٠٠ تعال فى الساعة العاشرة تجدنى وحدى !»

العشرة الأعلون !

◆ وكان المنظر عندما عاد ، كما تخيله : أضواء خافتة ٠٠ وربة البيت فى ثوب خفيف مضطجعة على أريكة ، تحيط بها الوسائد ٠٠ فبادر قائلا : « سأكون جد صريح معك ، فقد جئت لمهمة خاصة ٠٠ لقد فهمت انك تظهرين بمظهر الارملة ٠ انبأنى « توم تايلر » بصراحة ٠ وهو الذى أوصانى بهذه الزيارة ، اذ اننا نعمل معا ٠٠ فهو يرسل لى نصف عملائه : كل ضابط صغير يطمع فى ترقية ! »

ـ اذن ، فستواتيك الظروف اذا أفلح « بيت » ودخلنا الحرب ؟

ـ الواقع أن عدد الذين يمارسون هذه العملية قد ازدادوا فى هذه الايام ، ومن ثم فانى أعتزم أن أعمل من وراء ستار ٠٠ فى السر ٠٠ وهنا يأتى دورك

ـ وكيف ؟ ٠٠ أتقصد أن أقيم مآدب لأصدقائى من رجال الجيش وادعوهم الى شراء الترقيات من « وليم أوجيلفى » ؟٠٠ ثم اننى لاأعرف من الضباط الا عددا قليلا من الشبان يأتون ليلعبوا فحسب ٠٠

ـ لا يامسز كلارك ، انما نحن نبحث عن منبع : الرجل الذى يستطيع أن ييسر الترقيات ٠٠ فاذا وجدناه ـ اقصد أنت وتوم تايلر وأنا ـ واستطعنا استدراجه ، ووقع فى هواك ، فهل تشتركين ؟ ٠٠ ان الرجل الذى نسعى اليه ـ ولا حاجة بى الى ذكر اسمه ـ سيتيح لك دارا تبلغ ثلاثة أمثال هذه فى الحجم، ويومئذ سترين أصدقاءك الحاليين مجرد نكرات !

وأدرك أنه افلح فى استهوائها ، فقد ضاقت عيناها الزرقاوان ، ثم اتسعتا ٠٠ وخيل اليه انه يرى عقلها يستعرض جاهدا علية القوم من لوردات ودوقات ٠٠ ولكنها كانت مترددة ، موجسة ، فقال لها : « انك تستطيعين ان تركنى الى٠٠ ان حياتى ـكحياتكـ لم تكن ميسرة ٠٠ ولقد ولد كل منا فى لندن ، فله ماللآخر من عقل وذكاء ، وها امامنا طبقة معينة يسمونها « العشرة الأعلين » ، أو « أعلى عشرة » ، ورثوا ثروات ، وخمولا ، وغرورا ٠٠ فلنعمل معا ٠٠ زورى توم تايلر ، رقم ٩ بشارع (بوند) ، ولن تندمى على الزيارة ! »

ووقفت ترقبه اذ تحرك نحو الباب ، واخيرا قال : « يوم الجمعة ، فى الساعة الثامنة ـ من المساء طبعا ـ سنرسل عربة لتقلك ، ويحسن ان تعدى بعض لوازمك ، فقد تدعين لقضاء بضع ليال خارج المدينة ! »

وعبست ، ثم ابتسمت ، ثم ضحكت ٠٠!

دوق يورك ٠٠ خلف الستار !

◆ كان « توم تايلر » فى انتظارها فى القاعة ، فرحب بها فى حفاوة ،وقبل أناملها ، وصعد بها السلم الانيق المكسو بالأبسطة ٠٠ وفيما كان متأهبا ليتناول وشاحها فى البهو ، اخذ يتأمل ثوبها بعين الخبير ، ثم قال : « ثوب فاتن ،

وفتحة الصدر كما ينبغى ٠٠ هل أحضرت قفازين ؟٠٠ انهما يكملان الرواء ٠٠ أستطيع أن أعيرك قفازين ٠٠ تفضلى ٠٠ »

وتأملت ماحولها متفحصة : مقاعد من المخمل الأحمر ٠٠ شمعا احمر ٠٠ بساطا سميكا ، وأريكة تشبه الاريكة التى فى دارها ، أمامها منضدة عليها زجاجات وقنينة شمبانيا ٠٠ ولاحظت بسرعة خاطرها ان الكؤوس كانت ثلاثا ٠٠ وكانت الستائر منبثة فى جنبات المكان ، وعلى الجدران صور تمثل « كيوبيد » سابحا بين السحب ، ومرآة كبيرة تعكس صورة الاريكة والمنضدة ٠٠

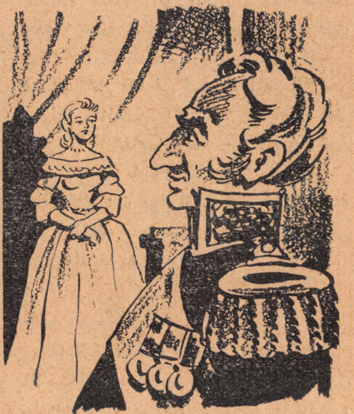
وقدم اليها كأسا من الشمبانيا ، وهو يسألها عن أبنائها ، فمضت تصف له كيف أن أصدقاءها من حزب المحافظين يهزون رؤوسهم فى استياء ، بينما يكاد أصدقاؤها من الاحرار يطيرون فرحا ، للظروف القائمة ! ٠٠ وأخيرا قالت : « لقد ارتحت الى صديقك وليم أوجيلفى ٠٠ ولكن ، ما الذى تدبرانه ؟ »

فوضع أصبعه على فمه ، وهمس : « دعى هذا لما بعد ٠٠ »

ورفع صوته قائلا : « وماذا لديك من أحاديث القوم ؟ »

ـ لا شىء سوى ما اقرأه فى الصحف ٠٠ الا حدثتنى ، فلا بد انك تعرف من عملائك من الاسرة المالكة ٠٠ هل صحيح ان « دوق يورك » قد استدعى أخاه « دوق كنت » من جبل طارق وفصله ؟

وأكفهر وجه توم تايلر ، ثم احتقن ، وراح يسعل ٠٠ حتى اذا استعاد هدوءه، استطردت تقول : « ان فردريك اوجستس ـ دوق يورك ـ يزداد طغيانا ٠٠ وقد فصل « دوق كنت » ، ويأبى أن يعهد باحدى القيادات الى امير ويلز ٠٠ وكل هذا يعود الى انه الأثير لدى الملك المسن ! »



وكان الحرج يتجلى على وجه الرجل ، وراح يشير اليها ، ولكنها لم تنتبه ٠٠ وما لبث أن أقبـــل خادم ، همس له ، فأسرع يبارح الغرفة ٠٠ وداخلها شك مباغت ، فنهضت لتلحق به ، ولكنها سمعت حركة وراءها ٠٠ والتفتت فاذا الستار القائمة خلف الاريكة قد انزاحت، فكشفت عن باب مفتوح يؤدى الى حجرة أخرى ٠٠ وعنده ، وقف رجل طويل ، داكن زرقة العينين ، ذو أنف كبير ، يبلغ الأربعين من العمر تقريبا ٠٠

كان « فردريك أوجستس » ، دوق يورك !

فى رعاية « الدوق » !

◆ كان « أوجيلفى » على حق ٠٠ كانت هذه لحظتها ٠٠ اللحظة التى خلقت لها ٠٠ اللحظة التى تودع فيها حياتها السابقة ، و « بيل » !٠٠ وكانت امامها ستة شهور قضتها تحت التجربة ، فلما اثبتت نجاحا وجدارة ، وهبها الدوق قصرا فى ميدان « جلوستر » وألف جنيه تدفع لها فى كل شهر للانفاق على القصر !٠٠ وقال لها : « لن يطالبك احد بعد الآن بشىء ، وسأعمل على ان يعرف الجميع - بما فيهم التجار - انك تعيشين فى رعايتى ! »

وكان لعبارة « فى رعاية الدوق » فعل السحر فى النفوس ٠٠ ونصحها « ويل أوجيلفى » بأن تخطو على مهل ، قائلا : « تعلمى الصنعة ، وسوف أبصرك بمقتضياتها ٠٠ لقد قطعت صلتى بالجيش ، ومن اليوم سأعمل لحسابك ، بالعمولة ٠٠ سأقدم لك الراغبين فى الترقيات ، وعليك ان تزكيهم لدى « الدوق » ٠٠ فاذا ظهرت اسماؤهم فى الصحيفة الرسمية ، تسلمت انت المبلغ ، وتقاضيت انا العمولة ٠٠ ولن يسألك صاحب السمو الملكى عن شىء ! »

ومضى كل شىء فى هدوء ، وسهولة ! ولم يكن « الدوق » يرد لها رجاء ٠٠ واصبحت لا تعرف غير علية القوم واصدقاء الدوق ٠٠ حتى اذا كانت اواخر شهر يوليو ، افزعها ان اقيل السكرتير العسكرى لوزارة الحربية ، وتولى مكانه الكولونيل « جوردون » الذى كان يقظا مدققا ، لا سيما وقد اخذت الشائعات تتناثر عن الترقيات العسكرية ٠٠ ولكن « أوجيلفى » قال لها : « رفهى عن نفسك ٠٠ لن تلبث الضجة ان تهدأ ! »

واستمرت اللعبة ، ولكن فى حذر زائد ، وتؤدة ٠٠ ولم تعد « مارى آن » تستطيع ان تتحول عنها ، فما كان ثمة وسيلة أخرى لتمكنها من العيش ، وكانت اشد ما تكون حاجة الى المال ٠٠ فليس من السهل على من بلغ القمة أن يتراجع ٠٠ وكانت متكلفة بدفع نفقات منزل ميدان « تافستوك » ، اذ كانت أمها واختها تقيمان فيه ٠٠ كما ان « ايزوبل » خطبت لاحد اخوة « ماى تايلر » وكان لابد من مائتى جنيه للاعداد لزفافها ٠٠ فضلا عن ان احوال آل « تايلر » كانت قد ساءت ، وقررت « ماى » واختها ان تقيما مدرسة تكسبان منها قوت الأسرة ، فاضطرت الى ان تمدهما بخمسمائة جنيه ٠٠ وهكذا ، كانت الحاجة الى النقود لا تنقطع ٠٠

الماضى ٠٠ يبرز من الظلمات !

◆ واثار النصر فى معركة (الطرف الاغر) فرحة فى انجلترا ، ولكن انباء معركة (اوسترلتز) ذهبت بالنشوة ، فلئن كانت انجلترا قد تغلبت على نابليون ، الا ان اوربا انهزمت امامه !

وثقلت الاعباء على القائد العـــام « دوق يورك » ، حتى انه كان يقضى عشر ساعات يوميا فى مركز القيادة ووزارة الحربية ، وحتى بدأ يضيق بالمنصب ..

وازدادت الأمور تعقدا ذات يوم ، اذ قضى الدوق مع « وليم بيت » ـ رئيس الوزراء ـ وقتا فى اجتماع خطير ، خرج بعده ليمثل بين يدى الملك ، الذى رفض ان يوقع بعض الأوراق !.. فعاد ـ الدوق ـ الى دار ميدان « جلوســـتر » مرهقا ، مهموما ، ليجد فى انتظاره رسالة قرأها بصوت مرتفع : « يا صاحب السمو الملكى .. وايها الزانى !.. انك ولا شك تعرف القـــانون ، فان كنت تجهله فهناك من يتخذونه مهنة .. ان سرقة امرأة من زوجها ، وتحـــريض أطفال على كراهية ابيهم ، جريمة فى القانون ، وقد ارتكبتها ، فتوقع القصاص ! »

وألقى « الدوق » بالرسالة الى « مارى آن » وقال وهو يطلق ضحكة مغتصبة : « أظنه مجنونا ، يخرج من اعماق ماضيك ! »

.. وعرفت مارى خط « جوزيف » ، ولكن قلبها لم يخفق ، بل قالت وهى تمزق الرسالة : « انه اما مجنون ، او سكير .. ولعله الاثنان معا ! »

ـ ولكن .. هل كان يتوقع من ارملة ان تظل على وفاء لقبر زوجها ؟

ـ يبدو انه يريدنى على ذلك .. لا تشغل بالك !

ذلك انها كانت قد اوهمته ان زوجها مات مسلولا ، وترك لها الاولاد الاربعة .. بلا عائل !

وانقضى اسبوع ، ثم تلقى الدوق رسالة ثانية ـ وصلت الى مكتبه فى الوزارة، فى هذه المرة ـ وقد جاء فيها : « اننى اريد زوجتى واولادى ، فاذا لم تردهم ، فسأتخذ الاجراءات القضائية ، وكم يكون من الطريف ان تتهم بالزنا امام محكمة الجنايات ، والخطر محدق بالبلاد !.. » ، وفى هذه المرة ايضا ، حملت الرسالة توقيع : « جوزيف كلارك »

وعندما قدمها الدوق لمارى آن فى ذلك المساء ، احتارت فيما اذا كان ينبغى ان تبكى أو تضحك .. ولما كانت الدموع دليل الذنب ، فقد آثرت ان تضحك ، قائلة : « اذن فهو لا يزال على قيد الحياة .. لقد أقسموا لى أنه مات »

ـ ولكنك رويت لى انك كنت الى جواره وهو يحتضر

ـ احقا ؟.. لست اتذكر .. كان ابنى مريضا ، وقد الح على القس ـ أخ زوجى ـ ان احمل الاولاد الى (هامبستيد) .. ثم كتب لى ينبئنى باننى صرت حرة ..

ـ سأعرض الخطاب على « آدام » مستشارى الخاص .. وسيتولى مع «جرينوود» تسوية المسألة ..

وغاص قلبها !.. كان « آدام » و « جرينوود » يتوليان شئونه الرسمية ، وكانا يرقبانها فى شك ، وكراهية ، وعدم اطمئنان !

الميت الحى .. يهدد !

◆ وتوالت الضائقات .. وتراكمت عليها الديون .. واضطرت فى النهاية الى استدعاء محاميها « مستر كومرى » تستشيره ، فقال لها : « اعلنى لكل الدائنين انك لست ارملة ، فان القانون اذ ذاك لا يقسرك على الدفع ... بل ترسل المطالبات الى زوجك .. اذا وجدوه ! »

ولم يكن فى وسع « جوزيف » ان يدفع ، بل ارسل المطالبات الى « الدوق » الذى ردها اليه بدوره !.. وزاد على ذلك بأن عهد الى « آدام » بأن يتحرى عن « جوزيف » .. ولم تجسر أن تسأله عن نوع هذا التحرى ، فقد بدا مهموما ، مشغول البال .. وما لبث ان اخذ يتخلف عن موعد العشاء ، وكثر تخلفه عن العودة الى الدار .. وذات يوم ، اوفد اليهـا « آدام » يسألها عن زوجهـا وماضيها ، فطردته .. حتى اذا جاء « الدوق » فى المساء ، كان غضبها فى أشده ، فانفجرت فيه .. واذ ذاك قال محرجا : « انما سـألته ان يبحث عن زوجك ليخلصنا منه .. اننى لا اكاد اجد فى وقتى متسعا لاتولى امرا بنفسى .. »

ـ ولكنك تجد فى وقتك متسعا لتذهب الى المسرح .. وتتناول العشاء مـع مسز « كارى » الراقصة !

وامتقع وجهه .. وسادهما صمت ثقيل ، ما لبث ان قطعه مقدم خادم يعلن اليها ان ثمة ضيفا يريد ان يقابلها .. رغم تأخر الوقت !

وكان الضيف زوجها .. اب اولادها !

وهبطت اليه ، وبادرته متسائلة فى ايجاز عما يريد !.. ولكنه اخذ يتأمل زينتها ، وحليها ، وجواهرها ، ثم ضحك .. ضحكة جوفاء ، تنم عن خبـل وسكر .. وقال : « انك تبدين غاية فى الفتنة »

ـ لا تضيع وقتك ووقتى .. ماذا تريد ؟

ـ أريدك .. وأريد « مارى » و « الين » وابنى ..

ـ تقصد انك تريد نقودا .. عندى هنا عشرون جنيها ، تكفى لخمر اسبوع .. وتقدم نحوها ، فقالت : « حذار ، والا دعوت الخدم ! »

ـ وهل هو هنا ؟.. « صاحب الخسة » !.. لقد افزعته .. ولقـد قابلت محاميه ، فرجانى ان لا الجأ الى المحكمة .. وقابلت من يسمونه وزير المالية ، فأفضيت اليه بكل القصة .. كل ماضيك .. فوعدنى بان يحذر « صـاحب الخسة » من ان يستمر على علاقته بك !

واذ ذاك دعت الخادم فطرده .. وما ان اغلق الباب ، حتى رأت « الدوق » هابطا ، يعتذر بانه سيذهب الى قصر « وندسور » مبكرا ، ومـن ثم فلن يقضى الليل عندها .. وحياها فى فتور ، وكلفة !

قطيعة ٠٠ وفضيحة !

◆ وفى مساء اليوم الحادى عشر ، جاءها « آدام » موفدا من « الدوق » لينبئها باسمه بان علاقتهما يجب ان تنقطع ، وبانه لن يراها او يتصل بها ثانية !٠٠ وأحس الرسول بالدم يغيض من وجهها ، بينما استطرد ينبئها بأن « الدوق » قد تبين انها كذبت فيما روته له عن ماضيها واسرتها ٠٠ وانها اذا أحسنت التصرف فستتلقى منه اربعمائة جنيه فى العام ، تدفع على اربعة أقساط ٠٠

وحملقت فيه مذهولة وقالت : « انك ولابد مخطىء ، فصاحب السمو الملكى يعرف متاعبى المالية ، ويعرف اننى ادفع لخدم القصر وحدهم ربع المبلغ الذى ذكرت ! »

ولكن القول كان فصلا ٠٠ وعبثا حاولت ان تناشد « الدوق » ان يسمح لها بان تراه ٠٠ فجمعت خطابات الهوى التى كان يرسلها اليها ، واستدعت محاميها تستشيره ، ولكن الرجل لم يجد منفذا ٠٠ كانت كل وعود « الدوق » لها شفهية ، فليس من قرينة لاثباتها !

وفيما كانت تفكر فى بيع محتويات القصر ، والنزوح الى الريف ، جاءها « أوجيلفى » ينصحها بأن لا تنقاد للذعر ٠٠ واستطرد قائلا : « أظنك محتفظة بخطاباته ؟٠٠ احرصى عليها ، فقد نحتاج اليها ٠٠ واذا كان لديك أصدقاء من حزب المحافظين ، فتشبثى بهم ، ودعى الاحرار ، فان الوزارة الائتلافية لن تعمر طويلا ٠٠ وسيصبح المحافظون مصدر معارضة قوية ، وسينفخون فى كل فضيحة تخدم مصالحهم ٠٠ ولكن ، حذار من التسرع ٠٠ غادرى لندن ، وتناسى صاحب السمو الملكى لستة أشهر ٠٠ وانصحك بأن تحملى اسم « فاركهار » لأن اسم « كلارك » اصبح محوطا بالشبهات فى بعض الدوائر ! وتذكرى دائما ان من مصلحتنا ان نسعى وراء الانتهازيين ، ولعل افضلهم لك هو « الكولونيل واردل » عضو مجلس العموم عن دائرة (اوكها مبتن) ، فقد عقد العزم على ان يبلغ القمة ٠٠ سواء بالطرق المشروعة او غير المشروعة ! »

بين سوق الهوى ٠٠ وسوق السياسة !

◆ واستأجرت فى نوفمبر دارا فى (ويستبورن) ٠٠ ومهد « أوجيلفى » لها سبيل التعرف الى الكولونيل واردل ، الذى قال لها فى لقائهما الأول : « انك تعرفين ولا ريب اننى وطنى ، غاية مقصدى من الحياة ان احرر بلادى من الفساد واستغلال النفوذ » ٠٠ فقاطعته قائلة : « لندع المقدمات ، ولنبدأ فى

العمل » ٠٠ فضاقت حدقتاه ، وقال : « معذرة ٠٠ ظننتنى اتحدث الى احدى سيدات دائرتى ٠ اننى واعضاء حزبى فى مجلس العموم قد عقدنا العزم على ان نفضح سوء استخدام النفوذ فى الجيش ، لنقصى « دوق يورك » عن وزارة الحربية والقيادة ، اذ انه يمثل نظاما نريد ان نمحوه ٠٠ ولعلنا اذ ذاك نوفق الى قلب الوزارة ، لنتقلد الحكم بعدها ، ونستخدم من يسيرون وفق هوانا ٠٠

ـ يالها من وطنية سامية ٠٠ ومن مرشحكم ؟

ـ « دوق كنت » ٠٠ انك تعرفين ولا ريب ما بين الاخوين من ضغائن وغيرة ٠٠ ونحن نسعى لاذكاء هذه الغيرة ٠٠ وفى وسعك ان تساعدينا بأن تدلى لى ببعض التفصيلات عن الاتجار بمناصب الجيش !

ـ وماذا يعود على من وراء ذلك ؟

ـ سيصلح كل خطأ ٠٠ سيغدو « دوق كنت » قائدا أعلى للجيش ، وقد وعد بان يعوض كل من يساعده باكثر مما فقد ٠٠ بل انه جد مستاء لما لقيت من معاملة ، وقد فهمت انه عول على ان يمنحك معاشا يتألف من بضعة آلاف ٠٠

ـ لقد سئمت الوعود ، لا سيما اذا كانت صادرة من امير !

ـ اذا شئت ضمانات ، فلا بأس من ان اذكر لك ان « ميجر دود » ـ السكرتير الخاص للامير ـ جد مشوق لمقابلتك ٠٠

وتم اللقاء فعلا ٠٠ وسمعت « مارى » من الميجر « دود » ما انتواه لها مولاه : « خمسة آلاف جنيه ، ومعاش سنوى طيلة العمر ، وتخليصك من الديون ، وتدبير مستقبل ابنتيك ٠٠ ان لى ان اعدك بكل هذا ، وبأكثر منه ٠٠ ولسنا نحتاج منك الى اكثر من خطابات تثبت الفساد ، وقائمة باسماء اصدقاء يمكن ان يستدعوا للشهادة ٠٠ وعلى هذه سيقيم « واردل » حملته فى البرلمان ٠٠ ولن يؤاخذك القانون ٠٠ بل ان الرأى العام سيجعل منك بطلة اذا انت فضحت «دوق يورك ! »

وظل الدائنون يلاحقونها ٠٠ ورسائل « أوجيلفى » تلاحقها : « أى أمل آخر لديك ؟٠٠ ماذا يحدث لاولادك اذا رفضت ؟٠٠ ان المسألة تستحق المجازفة ، كمحاولة اخيرة لانقاذ الموقف على الاقل ٠ ان « دود » على صواب ، فلن تتعرضى لأى خطر ٠٠ »

واستقر رأيها فى النهاية ، فأقبلت تستعرض الخطابات وذكريات السنين الأخيرة ٠٠ كانت قد أحرقت كثيرا من الرسائل ، وما تبقى منها يغلب عليه الطابع الشخصى ٠٠ واولئك الذين اشتروا الرتب والترقيات ؟٠٠ كان معظمهم فى الخارج ، ومنهم من فقد ، أو غدا من المنسيين ٠٠ ومع ذلك ؟!

القسم الثالث

الفضيحة تمثل .. على مسرح البرلمان !

◆ فى السابع والعشرين من يناير سنة ١٨٠٩ قدم الكولونيل « واردل » – العضو الراديكالى بمجلس العموم – استجوابا عن تصرفات صاحب السمو الملكى دوق يورك – القائد الأعلى – فيما يتعلق بالترقيات والتعيينات والاحالة على الاستيداع !.. واستطاع « سبنسر برسيفال » – وزير المالية وزعيم الاغلبية بالمجلس – ان يختتم النقاش بحيلة بارعة ، حصل بها على قرار اجماعى بان تتألف لجنة التحقيق من المجلس بأكمله ، وان تجتمع بعد خمسة أيام .. وكانت هذه الأيام الخمسة كافية لأن تتسرب القصة فتحتل صدر كل صحيفة ، حتى اذا عقدت اللجنة اجتماعها ، زخرت المقصورات بالناس ..

واستدعى كولونيل « واردل » شاهده الأول « الدكتور ثاين » الذى قرر انه اتصل فى سنة ١٨٠٥ بمسز « مارى آن كلارك » – التى كان طبيبا لها خلال السنوات السبع السابقة – وسألها ان تتوسط لترقية صديق له يدعى «روبرت نايت » الى رتبة « ليفتنانت كولونيل » ، على ان تنال مائتى جنيه اذا تحققت الترقية .. واذ سأله « واردل » قرر انه سعى لدى السيدة بالذات ، لانها كانت « فى رعاية دوق يورك » ! كما أكد « نايت » انه ارسل المبلغ لمسز كلارك مع خادمه ..

وتطلعت انظار المجلس باسره الى مسز « مارى آن كلارك » ، التى اقبلت فى أبهى زينة ، وكأنها قدمت الى حفلة ساهرة !.. وأجابت عن الأسئلة التى وجهها اليها « واردل » فأقرت بأنها كانت تقيم فى دار للدوق ، وفى رعايته ، وانها تحدثت الى الدوق بشأن « نايت » وأعطته قصاصة من الورق كان الدكتور « ثاين » قد كتب عليها اسم الضابط ، وتقاضت من أجل ذلك ورقتين من فئة المائة جنيه ، أرتهما للدوق !

وسألها سير « فيكرى جيبس » – النائب العام – عما اذا كانت لديها موجدة او ضغينة تجعلها تحقد على الدوق ، وعما اذا كانت قد صرحت بانها ستشهر به اذا لم يستجب لمطالبها .. فقالت انها لم تكن تهدد ، وانما كانت ترجو .. وان الدوق قد ارسل لها مع صديق له يدعى « توم تايلر » انذارا بأنه سيأمر بسجنها وتعذيبها اذا افشت شيئا ضده !

وأثارت اجاباتها الساخرة على أسئلة النائب العام ثائرته ، فأنذرها ، ثم استأنف سؤالها .. وجاءت ردودها بان « الدوق » كان يرعاها ، وكان يعرف

كل شىء عن صفقات الرتب العسكرية ، فلم تكن بحاجة الى اخفاء اتصالاتها براغبى الترقيات ..

الغانية تصبح .. « بطلة » شعبية !

◆ ونسى الشعب حروبه فى غمرة الاهتمام بالتحقيق الذى شغل رجال الصحف ، وكتاب المنشورات ، والرسامين « الكاريكاتيريين » .. بل ان رجال الصناعة استغلوا الظروف ، فظهرت فى (ستافوردشير) جرار للماء تحمل رسم مسز كلارك وفى يدها قائمة باسماء الضباط !.. وظهرت لوحات تمثل دوق يورك فى قميص النوم ، يهبط «من السرير» !.. وأصبح «داولر» وغيره من الشهود نجوما للكاريكاتير .. وانتشرت الاغانى الهزلية التى تدور حول القضية .. الخ .. وهكذا لم يكن من حديث للندن بأسرها سوى القضية !.. وانقسم الرأى العام الى فريقين : فريق يلقى اللوم كله على مسز كلارك ويزعم ان الدوق لم يكن يعلم شيئا عن الرشاوى التى كانت تتقاضاها .. وفريق آخر زعم ان الدوق كان شريكا يتقاضى نصيبا من تلك الرشاوى ..

ووسط هذه الدوامة ، لم يكن يبتسم غير « أوجيلفى » .. الذى راح يرقب النار وهى تمتد الى القش، ثم الى القش وهو يشتعل ، وأنفاس الرأى العام تذكى أواره !.. بينما أخذت « مارى آن » ترقب الموقف وهى تتساءل عن النهاية ؟!.. لكنها لم تدر ان ثمة رسائل كانت تتبادل بين رئيس مجلس العموم وقصر (وندسور) ، مقر الملك .. فقد انذر الرئيس مليكه بأن الموقف يزداد خطورة ، وان الهمسات تعالت بان « الدوق » كان على علم بما كانت « مسز كلارك » تفعله ، ولكنه آثر ان يغمض عينيه !

وكان الثانى والعشرون من شهر فبراير هو آخر ايام التحقيق . وجلست « مارى آن » فى دارها فى (ويستبورن) محوطة بواردل ، ودود ، وعدد ممن ساهموا فى الضجة .. وسألتهم عما اعتزموا ، فقال «واردل» : « لسنا نملك ان نسبق الحوادث ، فمستقبلك ومستقبلنا رهن بمجلس العموم .. وسأنصرف بكل مشاعرى الى المناقشات التى ستدور فى الاسابيع القليلة القادمة .. »

وقال دود : « كنا نتحدث عنك ليلة امس الى الناشر المعروف « سير ريتشارد فيليبس » ، وهو يأمل ان تعكفى على كتابة مذكراتك عن حياتك مع الدوق ، وعمن عرفت من النساء ، فليس من ريب فى انها ستلقى رواجا هائلا ، يعود عليك بالثراء طيلة العمر ! »

فقالت مبهوتة : « ولكننى ظننت ان لا حاجة بى الى مورد وقد وعد « دوق كنت » بأن يمنحنى معاشا ؟! »

وتبدى الحرج على الوجوه .. ثم تعلل الجميع بان هذا الامر لا يمكن ان يغدو مؤكدا قبل ان يبت المجلس فى القضية ..

وراقت لها فكرة الكتابة عن حياتها مع الدوق ٠٠ كانت كل دقيقة منهـا حاضرة فى ذهنها : ماذا كان يلبس ؟٠٠ وماذا كان يحب من الوان الطعام ؟٠٠ غناؤه فى الحمام ٠٠ تثاؤبه عند منتصف الليل ٠٠ رسائله ٠٠ اجل ، كان الجمهور يتلهف على هذه الرسائل ٠٠ وكانت فى حد ذاتها ثروة !

وبينما كانت المناقشات دائرة فى مجلس العموم خلال شهر مارس ، عكفت « مارى آن » على الكتابة ٠٠ وانتهت مناقشات المجلس الى تبرئة الدوق مـن الفساد ، والاغضاء عن استغلال اسمه ٠ لكن هذه التبرئة لم ترجح باكثر من اثنين وثمانين صـوتا ، فظل فى أعين الرأى العام مدانا ، واعتبـر النصر للمعارضة ٠٠ وأصبح كولونيل « واردل » بطلا شعبيا ، ومسز كلارك صاحبة جميل أسدته للشعب البريطانى بأسره !

واستقال « دوق يورك » من منصب القائد الأعلى للجيش ٠٠ ووافقت مسز كلارك ـ عقب مفاوضات ـ على ان تكف عن اتمام مذكراتها ، كما قبل الناشر ان يمتنع عن نشر ما لم يكن قد نشره منها ، مقابل ألف وخمسمائة من الجنيهات كتعويض ٠٠ وتقاضت مسز كلارك عشرة آلاف من الجنيهات ، ومعاشا سـنويا طيلة حياتها قدره أربعمائة جنيه ، ومائتى جنيه معاشا لكل من ابنتيها ـ على ان ترثا معاشـها السنوى بعد موتها ـ فى مقـابل النزول عن خطابات الدوق الغرامية !

القسم الرابع

تنشر كتابا عن الفضيحة !

◆ ولامها « وأردل » و « دود » و « أوجيلفى » ،ولكنها هزت كتفيها قائلة : « انما يهمنى ان اطمئن الى سلامة حياة اولادى ٠٠ »

وخلفوها وحيدة ٠٠ وكأنما آن لها ان تتوارى عن اضواء المجتمع ، وهى لـم تزل فى الثالثة والثلاثين !٠٠ ولكن فى ١٠ يناير سنة ١٨١٠ ، قرر الاوصياء على معاشها وثروة ابنتيها ان نفقات دارها فى (ويستبورن) تنطوى على اسراف، ومن ثم تقرر ان تنتقل الى قصر ريفى فى (بوتنى) ٠٠ وهناك عكفت على وضـع كتابها الذى اطلقت عليه اسم : « الاميران المتنافسان » ٠٠ ولئن كانت لم تمس « دوق يورك » على صفحاته بما يؤذيه ، الا انها فضحت اتصـالات « واردل » و « دود » ورفاقهما بها ، وبينت كيف رسمت الخطة ٠٠ وكشفت عما كان يدور وراء التحقيق ٠٠ الخ

ونفدت الطبعة الأولى من الكتاب بمجرد ظهوره ، وكذلك نفدت الطبعـة الثانية ٠٠ وغدا حديث المجالس زهاء ثلاثة شهور أو أربعة ٠٠ ثم توارى خلف

الأحداث حين ماتت احب بنات الملك ـ جورج الثالث ـ اليه ، فتداعت اعصابه ، وأعلن ان قد مسه خبل ٠٠ ومن ثم عين امير « ويلز » فى سنة ١٨١١ وصيا على العرش ، فكان أول عمل ابرمه ، أن أعاد أخاه « دوق يورك » قائدا عاما !

وهكذا احتضرت الفضيحة ٠٠ ولم تبق حسرتها فى غير نفس مسز « كلارك » ٠٠ فقد غدت حياتها خاوية كئيبة !

تكشر عن انيابها ، لتدافع عن شبلها !

◆ وانقضى عامان ، تضاءلت فيها الآلاف العشرة من الجنيهات الى النصف ٠٠ واجتمعت « مارى » ذات يوم بالأوصياء على ثروتها : « داولر » ، واخيها « تشارلى طومسن » ، ومحام يدعى « كوكسهيد مارش » ٠٠ وقالت انها ترى ان تستغل الخطابات التى تحتفظ بها من معارفها القدامى ، ولكن الأول والأخير عارضا رغبتها ، وبصراها بما قد يثيره النشر من حرمانها وابنتيها من المعاش السنوى ، فضلا عن ان لا سبيل لزواج الابنتين الا اذا اخلدت الى الصمت والتوارى ٠٠

وكادت ترضخ لنصحهما ، لولا ان ادركت من حديثهما ان ثمة خطرا يتهدد مستقبل ابنها جورج الذى كان موشكا ان يتخرج من الكلية الحربية ٠٠ « ان ابن المرأة التى حطمت القائد الاعلى ، لن يجد ترحيبا من اى سلاح فى الجيش ! »

وأهاجها هذا الخطر الذى يحوم حول مستقبل ابنها ٠٠ ولم يزدها نصح الاوصياء الا اصرارا على الكفاح ٠٠ وتذكرت ان لديها رسالة من « الدوق » وعد فيها بتعيين ابنها ضابطا فى الجيش حين يبلغ الخامسة عشرة ، فقررت ان تقدمها للقضاء ٠٠ بيد انها لم تعثر عليها ٠ وتذكرت انها كانت قد ارسلتها وديعة لدى « جيمس فيتزجرالد » الذى كان من اخلص اصدقائها السياسيين ، والذى اعتزل السياسة بعد قضية « الدوق » ، واستقر فى ايرلندا ، قانعا بعضوية برلمانها ٠٠ بينما لمع نجم ابنه وصار وزيرا للمالية هناك !

وأرسلت اليهما فلم يجيبا ٠٠ وعادت تكتب اليهما ، فأجاب « جيمس » بخطاب مقتضب قال فيه ان الرسالة التى تعنيها أعدمت من زمن !٠٠ ولم تيأس ، بل كتبت من جديد ٠٠ وجاء الرد بأن وزير مالية ايرلندا « لا يريد ان يتذكر مسز كلارك » !

وكانت الصدمة قاسية ، ضعضعت تفكيرها فى البداية ٠٠ ولكنها لم تلبث ان نشطت للعمل ، فنشرت كتيبا حملت فيه على الأب وابنه بعنوان « رسالة الى الرايت اونرابل وليم فيتزجرالد » ٠٠ فكان ان قدمت للمحاكمة ـ فى السابع من فبراير سنة ١٨١٤ ـ بتهمة التشهير ، رغبة فى ابتزاز المال !٠٠ ولم يجد الدفاع فرصة مواتية لمصلحتها ، اذ كان الشعور العدائى يطغى على هيئة المحكمة،

فقضي عليها بالحبس لتسعة شهور ، على ان تدفع ضمانا قدره ٢٠٠ جنيه ، ترد اليها اذا احسنت السلوك ثلاث سنوات عقب الافراج عنها ٠٠ ولكن على ان لا يتم هذا الافراج الا اذا دفعت مبلغين آخرين ، مجموعهما ٢٠٠ جنيه ، ككفالة !

ولم تصدق اذنيها ٠٠ وتلفتت حولها ، فلم تر وجها مشرقا !٠٠ كان اخوها « تشارلي » ، و « بيل داولر » قد نكسا رأسيهما ٠٠ ودمعت عيناها ٠٠ ولكنها حين أقبلت تودع أصدقاءها اصطنعت المرح ، وغمرتهم بالفكاهات ، وكأنها منطلقة في رحلة سعيدة !

وفى أولى لياليها فى السجن ، تلقت وريقة تحمل اسم مقر القيادة العليا للجيش ، وقد جاء فيها بايجاز - ودون ان يكون الخطاب موجها الى احد - ان جلالة الملك منح « جورج كلارك » رتبة فى الفرقة السابعة عشرة من فرق الفرسان الخفيفة ، على ان لا يسرى التعيين الا فى ١٧ مارس ، يوم يبلغ السادسة عشرة ٠٠

وهكذا اثبت القائد الأعلى انه قد تذكر وعده !

السراب الخادع !

◆ وغدت حياة الاسرة بعد خروج مارى من السجن سلسلة من الترحال ٠٠ لا تكاد تستقر فى مكان ، حتى ترحل الى آخر ، مطوفة بالمدن الاوربية ٠٠٠ واخذت « مارى آن » تبيع حليها ومجوهراتها بالبخس ، لتكمل ما عجز الاوصياء على مالها عن توفيره ٠٠ ومع ذلك ، فكم من قروض عجزت عن سدادها !

ولم يأت الدوقات والامراء الذين كانت تحلم بتهافتهم على ابنتيها ٠٠ و يقر ابنها « جورج » سياستها هذه ، بل كان يقول لها : « ان البنتين لن تتزوجا مالم تستقرى ٠٠ ثم ان باريس ليست بالمكان الذى تختارينه للاستقرار! » ٠٠ ورغم هذا التقريع الموجع ، فقد لذ لها أن يكون ابنها قد كبر ، وان يفرض عليها رغباته فتصدع بها !

وفى النهاية ، أقبل الزوجان اللذان اختارهما القدر للبنتين ، ولم يكن بينهما صاحب مجد أو لقب أو مال !٠٠ فقد كان من نصيب « مارى » انجليزى يدعى « باولز » ، غمرها بالحب حينا ثم هجرها !٠٠ وكان من نصيب « الين » مغمور من الفرنسيين يدعى « بيسون دى مورييه » ٠٠

الوداع الأخير !

◆ وبلغت « مارى » وسط العمر وهى فى المهجر ، تعيش غريبة ، منسية ، مغمورة ٠٠ ولكنها ظلت تهتم بالاحداث ، وتعيش فى الحاضر ، وتتطلع الى المستقبل ٠٠ وفى هذه الاثناء ، مات « تشارلس فاركهار طومسن » - أخوها ، وزميلها منذ الصغر - ومات « بيل داولر » ، الحبيب الذى قنع بأن يظل وراء « كواليس » حياتها ، متأهبا لان يخف الى خدمتها متى احتاجت اليه !٠٠ بيد

انها ، رغم هذه المكاره ، لم تشأ أن تستسلم للقدر ، بل ظلت ترى ان الحياة مغامرة مستمرة ، وان الغد يجب أن ينسى لتعيش فى الحاضر ٠٠ ومع ذلك، فانها لم تكن تقوى على مغالبة اغراء الماضى ، وذكرياته !

ثم جاءت الصدمة القاسية : ففى صباح أحد أيام شهر يناير سنة ١٨٢٧ ، وصلت الصحف من لندن مجللة بالسواد ! ٠٠ وحرصت ابنتاها على أن تخفياها عنها ، ولكنها عثرت عليها ٠٠ وكأنما هز النبأ كيانها ، فحملت الصحف وصعدت الى مخدعها ، فأوصدت بابه ، وخلت الى تلك الصحف ، تقرأ ٠٠ نعى « صاحب السمو الملكى فردريك أوجتسس دوق يورك واكبانى » ، الذى توفى فى الخامس من يناير عن أربع وستين سنة ٠٠

وكان قد تقرر ان تعرض الجثة فى قصر « سانت جيمس » يومى ١٨ و١٩ يناير ٠٠ ولم تنبىء « مارى آن » أحدا بما اعتزمت ، بل تسللت فى صمت ، وعبرت « المانش » متنكرة ـ منتحلة اسم « مدام شامبر » ـ وضاعت فى غمرة السيل البشرى الذى كان يتجه من جميع الارجاء الى لنـدن ، والى « سانت جيمس » بالذات ٠٠ وهناك صعدت السلم مع الصاعدين ، وفى القاعة الرئيسية كان الجثمان ٠٠ وكان ثمة صمت رهيب ٠٠ وألفت نفسها فجأة تنظر الى السيف ٠٠ سيفه الملكى ٠٠ السيف الذى كان جزءا من الرجل الذى عرفته ٠٠ ومن الماضى انبعثت اصداء قعقعته اذ كان يرتطم بدرجات السلم والدوق يهبط عقب الفطور ٠٠ السيف الذى كان يخرجه من قرابه ليريه لابنها « جورج » ٠٠ لا شأن لهذا السيف بالجسد المسجى ، فهو ليس جزءا من الحزن والموت ، وانما هو جزء من الحياة ٠٠ حياة صاحبه ، وحياتها !

ولم تر غير السيف ٠٠ نظرة عابرة ، ثم جرفها التيار البشرى الى الخارج ٠٠ كان وداعا غريبا !٠٠ وسارت الى درجات سلم كنيسة « سانت مارتن » ، تشق طريقها بين الجموع المتزاحمة ، المنكمشة فى نفسها تحت لذعات الريح القارسة، وانهمار المطر ٠٠

وقدمت لها امرأة كانت تجلس الى جوارها خبزا وجبنا ٠٠ وعرض عليها رجل جرعة من البيرة ٠٠ وضحك شخص ما ٠٠ وبزغت الشمس تبدد السحب وتبعث الدفء ٠٠ وبدأ شخص وسط الجموع يغنى ٠٠ وتذكرت ابنتيها « العذراوين » ـ كما كانت تسميهما ـ وقد تركتهما فى « بولونى » بفرنسا ٠٠ وفى ابنها « جورج » يتيه خيلاء بزيه الرسمى !

وفجأة ، تبددت الرؤى ٠٠ وتبدد اهتمامها بأولادها ٠٠ حتى بجورج ، الاثير ٠٠ لم تعد تحفل الا بأنها فى الموطن الذى لاترتاح لغير سواه ٠٠ فى قلب لندن !

كتب الأولون



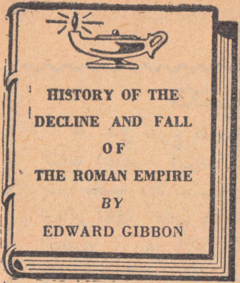
كنوز الكتب القديمة

عزيزى القــارىء ...

قرأت معى فى الاعــداد الماضية من كتابى ، من روائع الكتب القديمة ، هذه الكتب على التوالى :

« ديكاميرون » : بوكاشيو
« دون كيشوت » :
« الالياذة » : هو
« اميل » : جان جاك رو
« حى بن يقظان » : ابن طفيل
« روبنسن كروزو » : دانييل ديفو
« غرام الاخوين » : (كاتب فرعــونى مجهول)
« يوتوبيا » : توماس مور
« الجمهورية » : أفلاطون
« الكوميديا الالهية » : دانتى
« الاوديسة » : هوميروس
« العالم كما يسير » : فولتير
« غرام مشبوب » : لين يوتانج
« رباعيات عمر الخيام »
عفاف (كوزى سانكتا) : فولتير
« رسالة الغفران » : المعرى
« نظرية التطور » : داروين
« رأس المال » : كارل ماركس
« العقد الاجتماعى » : روسو
« الابطال وعبادة البطــولة » : توماس كارليل
« أسرار انحــلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » (الجزء الاول) : ادوارد جيبون

وفيما يلى أقدم لك الجــزء الثانى والاخير من هذه التحفة التاريخيــة الجبارة !



أسباب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية

الكتاب الخالد للمؤرخ الانجليزي "جيبون"



تلخيص : محمد بدر الدين خليل

الكتاب الذى خلد اسم صاحبه !

◆ حين شرع المؤرخ الانجليزى الكبير « ادوارد جيبون » فى وضع كتابه الخالد « أسرار انحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » ، كان يعلم مقدما أنه سوف يفنى من عمره أكثر من عشرة أعوام ، ليخرج للعالم تحفة تحتل مكانا هائلا بين المؤلفات التاريخية التى ألفت على مر العصور . ومع ذلك ، لم يعبأ بتلك الخسارة الفادحة ، مؤثرا الخلود !.. ولم يخب ظنه ، فقد أصاب الكتاب نجاحا مجيدا ، اذ أشاد به أعظم أساطين الفكر والبحث والتأريخ فى أكبر جامعات العالم ، كما قرأه وشغف به ملايين القراء فى شتى بقاع الارض ، بجميع اللغات التى ترجم اليها ..

.. وهكذا ، كتب لادوارد جيبون ولمؤلفه الخلود !

والآن ، تعال نقرأ الجزء الثانى والأخير من هذا العمل الشامخ .. الذى خلد اسم صاحبه !

١ – تيودوريك ملك « القوط »

◆ **تعاقب** على عرش القسطنطينية ، خلال الخمسين عاما التى تلت سقوط الامبراطورية الغربية ، أباطرة ضعاف .. بينما أخذت ايطاليا فى تلك الاثناء تزدهر تحت حكم ملك من القوط، استحق أن يخلد اسمه الى جوار اسماء عظماء الرومان الأقدمين .. ذلك هو « تيودوريك الأوستروجوث » أو الأكبر . و « اوستروجوث » لقب اتخذه ملوك القوط الشرقيون فى القرنين الرابع والخامس . وقد كان « تيودوريك » العاهل الرابع عشر من سلالة أسرة « امالى » القوطية المالكة ، أوفد الى بلاط امبراطور الشرق « ليو » – مذ كان فى الثامنة من عمره – فتلقى العلم فى القسطنطينية ، حتى اذا مات أبوه خلفه على عرشه ، واشترك فى تنفيذ رغبات الاباطرة فى فترات القلاقل الداخلية

واذ عاب عليه قومه انصرافه الى الترف ، أراد أن يثبت لهم شجاعته وطموحه ، فقرر أن يخلص روما من ربقة امبراطور

جائر يدعى « أودواسر » ، وقاد قومه لهذا الغرض فى سنة ٤٨٨ خلال بلاد معادية حتى وفق الى هزيمة « أودواسر » ، وتعاهد معه - فى سنة ٤٩٣ - على أن يشركه فى حكم ايطاليا٠٠ لكنه لم يلبث ان اغتاله ، وانفرد بالحكم حتى سنة ٥٢٦ ، فاقترن عهده بعودة السلام والرخاء الى ايطاليا ، وامتازت سياسته الداخلية والخارجية بالحكمة ومراعاة الضرورة ، وأسكن قومه البلاد التى احتلوها ، ثم تحالف مع «الفرنجة»و«الفاندال»، وصد أطماع القبائل الهمجية الأخرى (البرابرة) ٠٠ ومع انه كان من اتباع مذهب « آريوس » ، الا انه أتاح للكاثوليك من رعاياه تسامحا وعدالة ، لولا أن الكاثوليك هاجوا ضد اليهود، حين أصدر الامبراطور « جستنيان » قانونا حرم على اتباع « آريوس » ان يقتربوا من الكنائس ، فانقلب « تيودوريك » يصلى الكاثوليك من رعاياه أشنع الاضطهاد ٠٠ ثم مات فى ٣٠ أغسطس سنة ٥٢٦ ، وقد داخله الندم والخوف على مستقبل امبراطوريته من بعده !

٢ - جستنيان الأكبر

• **تبوأ** « جستنيان » الأكبر عرش الامبراطورية الرومانية، فبقى فى الحكم ثمانية وثلاثين عاما ، وأشرك معه زوجته «تيودورا» التى كانت يوما ممثلة وراقصة ٠٠ فكان جشعها ، وكانت قسوتها وعجرفتها مادة لكتاب العصر ٠ ولكن الخير الذى أسدته لذوات الحاجة من بنات جنسها ، والشجاعة التى أبدتها وسط الخطوب والشغب ، خففا من سوء سمعتها ٠

وكانت القسطنطينية فى عهد « جستنيان » نهبا بين المحاربين الذين كانوا يقاتلون على عجلات تجرها الجياد ، اذ كان ثمة فريقان منهم : أحدهما يرتدى أفراده الزى الأخضر ، والثانى يرتدى فرسانه الزى الأزرق ٠ وقد عضد «جستنيان» الزرق فى البداية ، فأثار التمرد فى العاصمة - تمرد الخضر والزرق



صورة للامبراطور « جستنيان » مأخوذة عن رسم محفور على الرخام بكنيسة « سانت فيتال » برافين

على السواء ! ـ ودامت الثورة خمسة أيام (فى يناير سنة ٥٣٢) كاد « جستنيان » يهلك خلالها ، لولا حزم « تيودورا » التى سيرت ٣ آلاف من المحاربين الأوفياء خلال شوارع المدينة التى شبت فيها الحرائق ، فأخمدوا الثورة. بيد ان الفوضى لم تلبث أن عادت ، وظلت فرق الخضر والزرق مصدر ازعاج لجستنيان والامبراطورية الشرقية ، التى كانت تضم بلادا وراء بحر الادرياتيك ، كما امتدت حدودها الى الحبشة وفارس ، باسطة سلطان جستنيان على ٦٤ ولاية و٩٣٥ مدينة !!

ومع ان الفنون والزراعة ازدهرت فى عهد جستنيان ، الا ان جشعه أرهق رعاياه ، اذ كان يسرف فى البناء ، مستنزفا موارد الامبراطورية ، فارضا الضرائب الباهظة والاحتكارات الشديدة الوطأة .. وكان أعوانه وموظفوه يقلدونه فى تشييد الصروح بدماء الشعب وأمواله .. وقد أقدم « جستنيان » على ازهاق انفاس المذاهب الفلسفية اليونانية القديمة ، اذ أغلق المدارس والمعاهد التى حفظت هذا التراث فى « أثينا » . وعندما اغتصب « جليمر » تاج « الفاندال » فى افريقيا ـ سنة ٥٣٠ د ـ انتهز امبراطور الشرق الفرصة للتدخل ، فأوفد جيشا فى أسطول مؤلف من ٦٠٠ سفينة ، استطاع أن يقضى على « جليمر » ، وأن يفتح الولاية التى كانت من قبل تابعة للرومان ، وأن يطرد « الفاندال » أنفسهم فى سنة ٥٣٤ !

٣ ـ ايطاليا تحت حكم القوط

• **تولت** « أمالاسونثا » ـ ابنة تيودوريك ـ حكم ايطاليا (أو الجزء الغربى من الامبراطورية الرومانية) ، باسم ابنها القاصر الذى خلف أبوها ، حتى اذا قدر لهذا الابن أن يموت في السادسة عشرة من عمره ، تزوجت « ثيوديتس » ابن‌عمتها، متحايلة على القانون الذى كان يجعل منه خليفة لابنها ! ٠٠ بيد أن القوط حنقوا عليها فنفوها٠وقد ماتت فى المنفى سنة ٥٣٥٠

وأثارت هذه القلاقل أطماع « جستنيان » ، فأوفد «بليزاريوس» ـ الذى هزم الفاندال فى افريقيا ـ على رأس جيش استطاع أن يدخل روما فى ديسمبر ٥٣٦ ، حتى اذا حاول القوط أن يقاوموه ، فرض عليهم حصارا قويا ، حتى اضطرهم الى الانسحاب في مارس سنة ٥٣٨ ، واستطاع أن يفتح « رافينا » ـ العاصمة الثانية لايطاليا ـ وان يصد هجوما من الفرنجة ٠٠ ولم يحن شهر ديسمبر سنة ٥٣٩ حتى كان قد أخضع مملكة القوط ٠٠ **ولكن نجاح « بليزاريوس » ،ومكائد أعدائه ، أوغرت صدر « جستنيان » عليه ، فاستدعاه ، وعين بدلا منه خصيا من «طواشي» قصره !**

وكانت ثورات « اللومبارد » و « الصقالبة » و « الآفار » والأتراك لاتكف عن قض راحة جستنيان ، كما كانت اغارات ملك فارس الموفقة من أهم أحداث عهده ٠٠ وقد استنزفت حملاته على افريقيا وايطاليا موارد الدولة ٠٠ وفى سنة ٥٤١ تجددت ثورات القوط بقيادة ملكهم الجديد « توتيلا » ، الامر الذى أغرى الامبراطور على أن يعود الى ايفاد « بليزاريوس » لاخضاعهم ، فوفق بعد عامين الى رد مملكة ايطاليا الى الامبراطور ٠٠ ثم تحول الى محاربة « البلغار » الذين عبروا نهر الدانوب أثناء تجمد مياهه ، وأغاروا على الامبراطورية ٠٠ فاستطاع أن يتغلب عليهم ٠ بيد ان الوشايات أوحت الى الامبراطور بأن قائده المظفر كان يتآمر عليه ، فأمر باعتقاله ٠٠ حتى اذا تبين

براءته ، أطلقه وأكرمه ، ولكنه لم يعش طويلا بعد ذلك ، فمات فى ١٣ مارس سنة ٥٦٥ ٠٠ ولحق به الامبراطور بعد ثمانية شهور

على أن أخلد أعمال « جستنيان » لا تتمثل فى انتصاراته ، ولا فى الصروح الشامخة التى خلدها ، وانما فى وضع مجموعة القوانين المشهورة باسمه ، التى ضمنها خلاصة التشريعات المدنية الرومانية ، والتى انعكست على القوانين المدنية فى أوربا بأسرها ٠٠ وتعتبر الى اليوم المصدر الرئيسى للقانونين الفرنسى والمصرى ٠٠ الخ

٤ ـ جريجورى الاكبر

◆ **خلف** « جستنيان » على العرش ابن أخيه « جستين » الثانى ، الذى عاش حتى شهد ملك اللومبارد « آلبيون » يستولى على معظم ايطاليا ـ فيما بين سنتى ٥٦٨ و ٥٧٠ ـ فتتداعى على يده الدولة الرومانية الغربية ٠

ولقد ظلت ايطاليا مائتى عام موزعة بين قوتين : ملك اللومبارد ، ونائب الامبراطور فى (را فينا) ٠٠ وانحدرت روما الى اسوأ حال ، كما تحولت سهول (كامبانيا) الخصبة الغنية الى قفار مجدبة ٠٠ **ولقد كان من المحتمل أن ينمحى يومئذ اسم روما من الوجود ـ الى الابد ! ـ لولا ما كان لها من مكانة دينية ، كموطن لاثنين من القديسين أعدمهما «نيرون» ، ثم بفضل نشاط وهمة البابا « جريجورى » الذى اكتسب لقب « جريجورى » الاكبر عن جدارة ، خلال توليه سلطانه الروحى من سنة ٥٩٠ الى ٦٠٤** ٠ فقد وفق فى واجباته الروحية والدنيوية ، اذ أصلح بين أنصار مذهب « آريوس » فى ايطاليا واسبانيا ـ وكان يعتنقه معظم البرابرة ـ وبين الكنيسة الكاثوليكية ٠٠ وفتح باسم الصليب بريطانيا ٠٠ ووطد لنفسه الحق فى التدخل فى ادارة شئون اليونان ، وأسبانيا ، وبلاد الغال (فرنسا) ـ بوصفها تابعة كلها

لزعامته الدينية .. ومع ان البلاط الامبراطورى فى القسطنطينية كان غير راض عنه ، الا انه وجد من شعوب الامبراطورية احتراما لائقا بعاهل جليل مثله ..

وعندما مات « جستين » سنة ٥٧٨ ، خلفه « تيبريوس » حتى سنة ٥٨٢ .. ثم مات بدوره تاركا العرش الامبراطورى لخلفه « موريس » الذى حكم عشرين عاما ، فى عدل وحكمة ، ثم اغتيل فى سنة ٦٠٢ . كما اغتيل خليفته التالى فى سنة ٦١٠ ، تاركا العرش لهيراكليوس - هرقل - ابن نائب الامبراطور فى افريقيا ، فظل يحكم الدولة الرومانية اثنين وثلاثين عاما ، **أخمد خلالها تأجج قوة الفرس ، وطرد جيوش كسرى من مصر وسوريا وفلسطين ، كما حطم حصار « الآفار » والفرس للقسطنطينية ، وأجبر ملك الفرس على أن يقصر نشاطه الحربى على الدفاع ، حتى مات كسرى وخلفه ابنه « سيروس » - كورش - فعقد مع « هيراكليوس » معاهدة صلح وسلام فى سنة ٦٢٨**

وفى العام التالى ، حج « هيراكليوس » الى بيت المقدس ليرد الصليب الى الضريح المقدس . وفيما كان هناك ، أغارت على بلدة صغيرة فى أطراف سوريا جموع من البدو مزقوا قوات الامبراطور حين تعرضت لهم ! .. وكان هؤلاء المغيرون الذين اقبلوا من جوف الصحراء ، من أتباع النبى محمد .. وقد استطاع العرب خلال السنوات الثمانى الاخيرة من حكم « هيراكليوس » ان يستولوا على الولايات التى كان قد استردها من الفرس ، وهى : مصر وسوريا وفلسطين !

ومات هيراكليوس فى سنة ٦١٢ ، فظل خلفاؤه يتوالون على عرشه حتى سنة ٦١١ .. ثم اضطربت ولاية العرش حتى انتقلت مقاليد حكم الامبراطورية الى أسرة « ايساور » ، اذ ارتقى « ليو الثالث » - عميدها - العرش فى ٢٥ مارس سنة ٧١٨

٥ ـ عهد شارلمان

• **يعتبر** عهد أسرة « ايساور » من أبرز العهود ، لما قامت به هذه الاسرة من دور فى التاريخ الكنسى ، اذ أدى ادخال الصور على الكنيسة المسيحية الى شيء من التعقيد فى العبادة ٠ وكان « ليو » بحكم نشأته وتعليمه يكره الصور ـ ولعل اتصاله باليهود والعرب هو سبب هذه الكراهية ـ فسن قانونين بتحريم استخدام الصور الدينية وتداولها ٠ وتبعه فى هذه السنة بعض خلفائه من الاباطرة ، مما جعل البابوات يتمردون على سلطانهم ، ويعملون على اعادة السلطان والحكم الى روما ٠

وكان جريجورى الثانى قد أنقذ روما من هجمات «اللومبارد» واستولى على (رافينا) فى سنة ٧٥١ ، واستعان بالحاكم الحقيقى لفرنسا اذ ذاك « شارل مارتل » ـ الذى صد المسلمين عن أوربا ـ للاحتفاظ بروما ٠ واستطاع ابن مارتل ـ « شارلمان » ـ أن يعزز سلامة العاصمة الرومانية القديمة فى سنة ٧٧٤ ، اذ غزا اقليم (لومباردى) ، وظل يحكم الرومان ستة وعشرين عاما ، لم ينقصه خلالها سوى أن يخلع على نفسه لقب «الامبراطور» ٠



صورة للأمبراطور « شارلمان » مأخوذة عن تمثال ، للمثال الفرنسى روشيه

وكان شارلمان قد أهدى الى البابا المدن والجزر التى كانت من قبل تابعة لنفوذ الاساقفة ، ثم عاد فاستردها ، فعمد البابوات الى الخداع بعد اذ جردوا من سلطتهم الدنيوية ٠٠ وكان من حيلهم أن قدم البابا « هادريان الأول » الى شارلمان

وثيقة مزورة تزعم ان الامبراطور « كونستانتين » كان قد خلع على البابوات السيادة على روما وايطاليا وولايات الغرب ! ٠٠ فما كان من « شارلمان » الا أن استغل هذه الوثيقة فى فصل روما عن سلطان الامبراطورية الشرقية !

ومما ساعد على استكمال هذا الفصل بين الشرق والغرب ، أن عمد البابوات الى احياء الامبراطورية الغربية ، على أمل أن يستردوا سلطتهم الدنيوية على اليونان ، التى كانت تسعى الى التحرر من التبعية للكنيسة الغربية ٠ وفى سبيل هذا الاحياء ، ابتكروا تقليدا يوجب على أباطرة الغرب أن يتوجوا بأيدى خلفاء القديس بطرس - أى البابوات - اذ عمد البابا « ليو » - تحت الدوافع السالفة ، ورغبة فى اكتساب ود شارلمان - الى انتهاز فرصة زيارة الملك الفرنسى للعاصمة الرومانية ، فتوجه امبراطورا فى نهاية الاحتفال بعيد الميلاد ، سنة ٨٠٠ ٠٠ وبهذا بدأت أوربا عهدا جديدا ٠٠ عهد بعث الامبراطورية الغربية !

الجزء الخامس

١ - بلاد العرب قبل ظهور محمد

◆ **كان** الشائع بين الاغريق واللاتين ، أن بلاد العرب تنقسم الى ثلاثة أقسام : رملى ، وصخرى ، وسعيد ! ٠٠ ومع ان هذا التقسيم لم يعد مأخوذا به ، الا أن (اليمن) لا تزال تمثل حدود القسم «السعيد» من بلاد العرب ، لموقعها الفريد ، وتوفر الغابات والماء والفاكهة والحيوان فيها ، فضلا عن أنها كانت تضم أقدم مدن بلاد العرب وأكثرها ازدحاما بالسكان ٠ ولكن مكانة هذه المدن خبت حين حظيت (مكة) و (المدينة) بمجد النبوة ٠ وكانت مكة - لصلتها بميناء جدة - سوقا لخيرات افريقيا التى كانت القوافل تحملها الى اليمن وسوريا ٠

ولقد اشتهر العرب بين جيرانهم ـ قبل محمد بأجيال كثيرة ـ بالجرأة والشجاعة فى الحروب ـ هجومية كانت أو دفاعية ـ ونبذ خصوماتهم الداخلية اذا تعرضوا لعدو مشترك ! ٠٠ وكانت القبائل العربية تتصف بالبأس وحب الثأر٠٠كما كان العرب كاليونان ، يعوضون خشونة طباعهم بغزارة لغتهم ـ حتى لقد كانوا يعرفون للاسد خمسمائة اسم متباينة ، فى الوقت الذى كانت فيه اللغة تعتمد على ذاكرة قوم أميين !

وكان العرب يعبدون الشمس والقمر والنجوم الثابتة ٠ بيد أنه كان لكل عشيرة ـ بل لكل أسرة ولكل محارب فرد ـ طقوس وآلهة ، وان كان قد وحد بينهم الحج الى الكعبة ، فكانت مكة تغص بالحجاج فى الشهر الاخير من كل سنة ٠٠ وكانت بعض مراسم الحج الاسلامية تمارس فى زمن الجاهلية ٠٠ ثم ازدادت عقائد القبائل تباينا واختلافا ، بتسرب بعض الديانات الاخرى اليها ٠٠ كعبادة النار ، وكاليهودية والمسيحية ٠٠ ومع ان العرب كانوا يمارسون الوثنية ، الا انهم كانوا يؤمنون بوجود اله واحد ، وقد أقروا ما جاء عن الوحدانية فى التوراة عند ترجمتها للعربية

٢ ـ نشأة النبى

◆ **وكانت** قريش تحظى بحراسة الكعبة ، وقد تولت هذه المهمة المقدسة أسرة بنى هاشم ، يتوارثها أبناؤها ٠ وفى هذه الاسرة ، التى كانت تستمتع بأقدس وأرفع مكانة ، ولد «محمد» فى سنة ٥٦٩ ٠٠ فلما بلغ الخامسة والعشرين ، عمل لدى « خديجة » ، وكانت أرملة غنية من الاشراف ، فسرعان ما كافأته على أمانته بالزواج منه ٠٠ وفى سن الأربعين اتخذ لقب « نبى » ، ودعا الى دين القرآن ٠٠ ومع أنه كان أميا ، الا ان كتاب الطبيعة والانسان كان مفتوحا لبصره ٠٠ ولنا أن نستنتج أنه جمع معرفة من اتصاله بالحجاج الذين كانوا يتوافدون على مكة كل عام ، وباليهود والمسيحيين الذين كانوا يزورون مكة فى المواسم ٠

وبينما ينبذ محمد الوثنية ، نجده يعترف بدعوات كافة الانبياء منذ آدم حتى عيسى ٠٠ بل انه دعا أتباعه الى احترام الدين المسيحى بوجه خاص ، وأحاطه بتوقير عظيم ، حتى أن الكنيسة اللاتينية لم تجد حرجا فى أن تقتبس عن القرآن ما ورد فيه عن السيدة مريم ٠٠

وقضى محمد ثلاث سنوات يدعو فى غير جهر الى دينه ، حتى هدى أربعة عشر شخصا ، كان أبرزهم على بن أبى طالب ابن عمه ٠ وفى العام الرابع ، خرج بدعوته على الناس ، فجمع حوله فى عشر سنوات حوالى مائة مسلم ، بينهم عمه حمزة ، وعمر بن الخطاب ٠ وكان عمه أبو طالب يحميه من نقمة قريش ، فلما مات عمه ، أمعنوا فى عدائهم ، وتآمروا عليه ، لولا أن أوحى اليه فهاجر الى المدينة فى سنة ٦٢٢ ـ وقد صارت هذه الهجرة بداية حساب السنين فى التقويم الهجرى **ـ وبدأت دعوة محمد تتخذ نهجا جديدا ، اذ دعا أتباعه الى نشر الدين بالسيف ٠٠ وبخضوع اليهود لهم فيما بين سنتى ٦٢٣ و ٦٢٧ ، والقبائل العربية ـ سنة ٦٢٩ ـ عزز محمد سلطانه بالمال والقوة ، فدخل مكة فى يناير سنة ٦٣٠ ، وحطم أصنام الكعبة ٠٠ كما قضى على الوثنية فى وادى (حنين) فى الشهر التالى ، ولم يكن عام ٦٣٢ حتى وصل الاسلام الى ساحل البحر الاحمر !**

وكان بدء احتكاك محمد بالامبراطورية الشرقية فى سنة ٦٢٩ ، اذ أغار اتباعه على فلسطين ، فتصدت لهم قوات الامبراطور « هيراكليوس » ٠٠ وبرز « خالد » فى هذه الحملة حتى استحق القيادة ولقب « سيف الله » ٠٠

وفى يونية سنة ٦٣٢ ، توفى محمد وهو فى الثالثة والستين من عمره ٠

٣ ـ فتوح خلفاء محمد

◆ تولى الخلافة تباعا كل من أبى بكر ، سنة ٦٣٢ ٠٠

وعمر ، سنة ٦٣٤ ٠٠ وعثمان ، سنة ٦٤٤ ٠٠ ثم على ، سنة ٦٥٥ ٠٠ فلما قتل على فى سنة ٦٦١ ، تولى الخلافة معاوية بن أبى سفيان ٠٠ وكان الخلاف على الحكم قد أوجد فرقة لا تزال آثارها الى اليوم بادية فى مذهبى « الشيعة » و « السنة » ٠٠ ولم تنقض مائة عام على هجـرة محمد من مكة الى المدينة حتى كان سلطان خلفائه قد امتد من الهنـد حتى ساحل المحيط الاطلسى ! ٠٠ ولم تستطع الامبراطورية الشرقية أن تصـد زحفهم ، بل توالى انهزام قوات « هـيراكليوس » فى سوريا وفلسطين ومصر !

وقد فتح مصر « عمرو بن العـاص » ، بعـد أن أتم فتح فلسطين فى يونية سنة ٦٣٨ ٠ وقـد رحب به أقباطهـا ، واطمأنوا الى بقاء حقهم فى ممارسة دينهم ٠٠ واستتب الامن والنظام فى مصر تحت حكم « عمرو » ، وشقت قناة طولها ٨٠ ميلا على الاقل ، بين النيل والبحر الاحمر ، وأصبحت مصر تمد بلاد العرب بكميات وفيرة من الغلال ٠٠

ولقد بدأ المسلمون فتح افريقيا فى سنة ٦٤٧ ، ولـكن انتصارهم لم يتم الا فى سنة ٧٠٩ ٠ فبعد أن تغلبـوا على طرابلس والبلاد المجاورة ، أوقفوا زحفهم عشرين عاما ٠ وما لبثت الضرائب الباهظـة التى فرضـها عاهل الامبراطورية الشرقية على بطريرك قرطاجنة ، أن حملت أهل شمال افريقيا على أن يطلبوا العون من « معاوية » ، فسارت قواته بقيـادة « عقبة » اليها ، واستولت عليها ، حتى بلغت شاطىء المحيط الاطلسى ٠٠ وبعد تسع سنوات من موت « عقبة » ، اسـتولى المسلمون على المدن الساحلية التى كانت باقية فى أيدى اليونان والقوط ، وباعتناق أهل مراكش الدين الاسلامى ، تمت للعرب السيطرة على شمال افريقيا !

على أن الكونت « جوليان » ـ قائد القوط الذى كان قـد أنشأ لقومه دولة فى اسبانيا ـ عمد الى الغدر ، الامر الذى حمل

العرب على أن يعبروا البحر الى أوربا ٠٠ **فهبطت قواتهم بقيادة « طارق » فى (جبل طارق) فى أبريل سنة ٧١١ ، وأخذت تستولى على مدن اسبانيا تباعا ، فى زحف سريع ، ساعد على سرعته ما أبداه « طارق » من عدالة وانصاف للمسيحيين واليهود ٠٠ وبلغت القوات فى زحفها خليج (بسكاى) مظفرة** ٠٠ ثم حملت الدسائس الخليفة على استدعاء « طارق » واعادة تعيين « موسى بن نصير » ـ الذى فتح شمال افريقيا ـ قائدا للجيش ، فأكمل فتح اسبانيا ، وعقد معاهدة مع « ثيودمير » ـ ملك القوط ـ وتقدم لفتح بلاد الغال ، ولكنه استدعى بدوره اثر وشايات أوغرت صدر الخليفة ضده ، وجرد من أمواله ، ومات كسير الفؤاد ٠

٤ – تقلص الامبراطورية العربية

◆ **لم تنقض** ستة وأربعون سنة فقط على هجرة محمد الى المدينة ، حتى كان أتباعه يقفون بأسلحتهم عند أسوار القسطنطينية ! وظلت جيوش « معاوية » من سنة ٦٦٨ حتى سنة ٦٧٥ تحاول ـ بالحصار تارة وبالهجوم تارة أخرى ـ أن تستولى على عاصمة الامبراطورية الشرقية ، ولكن المدينة استماتت فى المقاومة ، وصمدت للمحاولات ، وانتهى الصراع بانسحاب الغزاة العرب ـ فى سنة ٦٧٧ ـ بعد أن تعهدوا بأن يدفعوا للامبراطور الرومانى جزية ٠٠

على ان القسطنطينية منيت بحصار اسلامى آخر فى سنة ٧١٥ ، اذ حاصرها الخليفة « سليمان » ثلاثة عشر شهرا ، ثم استطاعت قوات الامبراطورية بمساعدة جيش من البلغار أن ترغم المسلمين على الانسحاب ٠٠ **وكان من أهم عوامل فشل الحصارين الاسلاميين ، استخدام الرومان لما كان يطلق عليه « النار اليونانية » التى لم تكن فى الواقع سوى بارود متفجر ـ أو ان البارود كان من أنواعها ـ وقد ظلت دولة الرومان**

الشرقية تحتفظ بهـذا الاختراع ، حتى تمكن المسلمون من الوصول الى سره ، فاستخدموه فى الحروب الصليبية فى مصر وسوريا !

وبفشل العرب فى الاستيلاء على القسطنطينية ، تعذر عليهم الوصول الى أوربا من الشرق ، وان كان جنودهم فى الغرب قد هددوا بلاد الغال (فرنسا) فى سنة ٧٢١ ، اذ كان الضعف قد استولى على ملوكها ، فاقتسم زعماء عشائر الفرنجة البلاد ٠٠ وساعدت هذه الفرقة قوات العرب على الوصول الى ضفاف نهر (اللوار) ٠ ولم ينقذ سلطان المسيحية في فرنسا سوى « شارل » ، وكان ابنا غير شرعى لزعيم الفرنجة ، فقد ظل يتحين الفرص حتى التقى بالغزاة بين (تور) و(بواتييه) فى معركة استمرت سبعة أيام ، قتل خلالها « عبد الرحمن » قائد المسلمين ، وانتهى الامر بجنوده الى الفرار ٠٠

وما لبثت سلسلة من الخلافات أن أدت الى تفكك الامبراطورية الاسلامية ، وانتهى حكم الامويين فى سنة ٧٥٠ ، لينتزع العباسيون منهم الخلافة ٠ وفى غمرة الصراع ، فر من الاسرة المالكة الاموية فرد استولى على عرش اسبانيا ، وأنشأ دولة فى (قرطبة) ـ سنة ٧٥٦ ـ دامت حوالى ٢٥٠ سنة ٠ وحذا الفاطميون حذوه فى مصر ٠٠

أما العباسيون ، فقد اتخذوا من بغداد عاصمة لهم ، وأسبغوا عليها الابهة الشرقية ، فى الوقت الذى قامت فيه دولة أموية فى اسبانيا ، فى الغرب ٠٠ **وأدى الرخاء والترف الى تجريد العرب من حماسهم ، ومن روح الجرأة التى تميزوا بها ٠٠ فتحولوا عن الحرب الى العلم والطب ، ووصلوا فى الفلك ، والكيمياء ، وعلم النبات ، والطب ، والتشريح ، الى اكتشافات جليلة ٠ كما أنشأوا جامعات فى بغداد والقاهرة ٠ وكان دليل التقدم العلمى فى اسبانيا وجود ثلاثمائة كاتب ، وسبعين مكتبة عامة .**

على ان حروب هرون الرشيد ضد الرومان ـ من سنة ٧٨١ الى سنة ٨٠٥ ـ وفتح بلاد ، منها جـزيرة قبرص ، وجزيرة صقلية ٠٠ وغزو روما ـ سنة ٨٤٦ ـ أكملت نجاح الجيـوش الاسلامية ، فبلغت امبراطورية العرب أقصى مداها ، قبل أن يتحول « مدها » الى « الجزر » والتقلص ٠ فان ادخال الجنود المرتزقة من الاتراك فى بغداد لتدعيم عرش العباسيين ، مهد لفرض سلطان العسكريين من سنة ٨٤١ الى سنة ٨٧٠ ، وأخذ الاتراك يتحكمون فى تنصيب الخلفاء ، وخلعهم ٠٠ فتكررت فى الدولة العـربية مآسى الحرس « البريتـورى » فى الدولة الرومانية !

وعجل بانهيار الدولة العربية قيام تسع أسرات حاكمـة مستقلة داخل الامبراطورية ! ٠٠ فلم تحن أواسط القـرن العاشر حتى كانت سلطة خلفاء بغداد قد اضمحلت بفضـل الصراع الضروس بين قواتهم العسكرية ٠٠ فشهدوا انتصارات الفاطميين ، واستعادة اليونان لانطاكية ولمدن صقلية وقبرص ٠٠ وانتعاش الرومان ٠

الجزء السادس

١ ـ الامبراطورية الرومانية المقدسة

◆ **لم تكن** الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ كما أطلق على الامبراطورية الغربية التى اعاد « شارلمان » انشـاءها وظلت حتى نزل فرانسيس الثانى عن عرشه تحت ضغط نابليون فى سنة ١٨٠٦ ـ جديرة فى الواقع بهذا اللقب : « المقدسة » !٠٠ **وقد امتدت امبراطورية الفرنجة هذه شرقا وغربا ، من نهر (الايبرو) حتى نهر (الالب) أو (الفستيولا) ٠٠ ومن دوقية (بنيفينتم) شمالا ، حتى نهر (ايدر) جنوبا ٠٠ وقد ضاعف من قيمة « شارلمان » الشخصية والسـياسية ، تلك المل‍مات والفرقة التى كانت شائعة فى بقية أوربا ٠٠ فلم تر اليونان**

حرجا من الاعتراف به امبراطورا ، ما دامت بطولته توحد أوربا ٠٠ ولكنها لم تعتبر ابنه «لويس التقى» حين خلفه ـ من سنة ٨١٤ الى سنة ٨٤٠ ـ أكثر من «ملك الفرنجة واللومبارد» ٠٠ورفضت اليونان بعد ذلك أن تعترف بملوك ألمانيا «أباطرة» على الغرب ، لجهلهم وفقرهم ٠ على أن أسرة « شارلمان » ظلت تتشبث بلقب الامبراطورية الغربية ، الى أن تنازل « شارل السمين » عنه فى سنة ٨٨٤ ٠ وأدى اختلال عقله الى تمزق الامبراطورية حتى استطاع « أوتو » ـ ملك ألمانيا ـ أن يعيد انشاء الامبراطورية الغربية بالسيف والنار ، فى سنة ٩٦٢ ، واستطاع ـ بغزوه ايطاليا ، وانقاذه البابا ـ أن يضمن تاج الامبراطورية لالمانيا ٠ ومن ذلك الحين ، قام عرف يتألف من شقين :

١ ـ ان الامير الذى ينتخب ملكا لالمانيا يكتسب من لحظة انتخابه لقب ملك ايطاليا وروما ٠

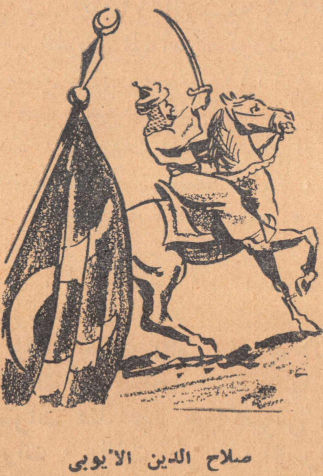
٢ ـ لا يستحق هذا الملك لقب « امبراطور » و « عاهل » رسميا ، الا حين يتسلم التاج من البابا الرومانى !

ومن ناحية أخرى ، كان للاباطرة الغربيين سلطة اسمية كبرى ، فلم يكن « البابا » يحظى بمركزه قانونا الا اذا اعترف الامبراطور ـ بوصفه راعى الكنيسة ـ بتعيينه ٠ بيد ان « جريجورى السابع » ألغى هذا العرف فى سنة ١٠٧٣ ، وضمن لمجمع الكرادلة حرية انتخاب « البابا » وتعيينه ٠ كذلك كان للاباطرة السلطان الاسمى على روما ، الى أن ألغى فى القرن الثالث عشر ٠ ولكن السلطة المستمدة من لقب الامبراطور ظلت قائمة فى أوربا فى القرن الرابع عشر ، فكانت للعاهل الالماني الزعامة على الامراء المسيحيين ، وكان الرئيس الدنيوى لدولة الغرب ، وكان ينازع البابا السلطة العليا فى تعيين الملوك ، وعقد المجالس والمؤتمرات ٠ وكان تلاميذ المدارس فى عهد « شارل الرابع » يلقنون أنه العاهل الشرعى للارض من مشرق الشمس الى مغربها ! ٠٠ وظلت نسبة الامبراطورية

الشرقية الى روما والرومان قائمة ، حتى فى اسوأ فترات التداعى . ثم جاء النزاع على الصور الدينية ففرق بين الشرق وروما ، وباعد بين ايطاليا والعرش البيزنطى ، ومهد لغزوات الفرنجة .. وزاد من تقلص الامبراطورية الشرقية قيام الاسلام وانتصارات المسلمين .. وبانتصار الحملات التى كان البلغار والمجر والروس يشنونها على الولايات والعاصمة ، بدا ان الامبراطورية الشرقية تقترب حثيثا من نهايتها . ثم قام المغامرون النورمان ـ من أبناء الشمال ـ فأنشأوا مملكة قوية فى « ابوليا » وصقلية ، فزعزع سلطانهم عرش القسطنطينية فى سنة ١١٤٦ ، ولم تتوقف خططهم العدوانية حتى سنة ١١٨٥ .

٢ ـ حكام القسطنطينية اللاتينيون

• **انضم** رعايا البابا وشعوب الغرب باسم « اللاتين » تحت لواء الصليب ، ليستردوا الضريح المقدس .. ولقد جزع أباطرة الشرق للآلاف من الحجاج الذين زحفوا على القدس مع «جودفرى» والامراء المسيحيين بين سنتى ١٠٩٥ و ١٠٩٩ ، لكنهم أثروا أن يتحفظوا فى موقفهم . **وتتابعت الحملات الصليبية الثلاث، وبذلك اندمجت أوربا وآسيا فى حرب دينية زهاء مائتى عام ، تمكن العرب خلالها من مقاومة الدول الغربية فى شجاعة واستبسال ، حتى تسنى لصلاح الدين الايوبى ومماليك مصر أن يجلوا قواتها فيما بين سنتى ١١٧١و١١٩٣**



صلاح الدين الأيوبى

وخلال تلك الحروب ، تحولت بعض القوات التابعة لفرنسا والبندقية الى البسفور وأغارت على العاصمة الرومانية الشرقية فى سنة ١٢٠٣ ، واستولت على عرش القسطنطينية ، ومن ثم تتابعت ـ لحوالى ستين عاما ـ سلسلة من الامراء اللاتينيين ، اتخذ كل منهم لنفسه لقب « الامبراطور » ،وكانوا ينتمون الى أسرتى الفلاندر وكورتنى ٠ وقد أجمع الغزاة المتحالفون على أن يكون تعيين الامبراطور بالانتخاب ، بوساطة اثنى عشر ناخبا يختارون بالتساوى من الفرنسيين والبندقيين ٠ وكان الامبراطور يتولى حكم ربع الامبراطورية الشرقية ، أما الباقى ، فكان موزعا بالتساوى بين جمهورية البندقية وبارونات فرنسا ٠

وانتخب « بلدوين » ـ كونت الفلندر وهينوت ـ امبراطورا وفقا لهذه الاتفاقية من سنة ١٢٠٤ الى سنة ١٢٠٥ ، حين هزم فى حرب مع البلغار ومات أسيرا ، فانتقل العرش الى أخيه هنرى من سنة ١٢٠٥ الى سنة ١٢١٦ ٠ وبموته انتقل التاج الامبراطورى الى أسرة كورتنى ،فكان من نصيب بيتر ـ كونت أوكسير ـ بين سنتى ١٢١٧ و ١٢١٩ ، ثم أسره « تيودور » صاحب السيادة الشرعية على القسطنطينية ، وخلفه بالتوالى ابناه ٠ وانتهت عودة الحكام الشرعيين باستيلاء اليونان على القسطنطينية فى سنة ١٢٦١ ، وانقراض سلالة الحكام اللاتين٠ وقد عاشت أسرة « كورتنى » بعد ذلك فى (اديسا) وفرنسا وانجلترا ، ويستطيع لوردات (ديفونشاير) ـ بانجلترا ـ الى الآن ، أن يزعموا انهم أصحاب الحق فى تاج الامبراطورية الشرقية !!

ولقد نعمت الامبراطورية الشرقية بالهدوء والرخاء فى الفترات التى كانت تنتظم فيها وراثة العرش ، وقد بدأت هذه الفترات منذ عهد هيراكليوس واستمرت ابان حكم خمس أسرات ٠ وظلت آخر هذه الاسرات ، وهى أسرة « كومنينى » ،

تتشبث بحقها فى التاج ، حتى اذا انقرض آخر الورثة الذكور ، نقلت الحق الى الاناث • فلما تمكن الكاثوليك من استرداد القسطنطينية ، قفز الى العرش « ميشيل باليولوجوس » - رغم انه لم يكن صاحب الاسبقية بين سلالة « كومنينى » فى وراثة الحكم - وبقى فى الحكم حتى سنة ١٢٨٢ ، وقد بذل جهودا تذكر لتوحيد الكنيستين اليونانية والرومانية ، ولكن هذه الوحدة لم تستمر بعد عهده لاكثر من عام واحد !

وكان هذا الحاكم قد استطاع بدبلوماسيته أن ينقذ امبراطوريته ، اذ أوقع ممالك الغرب فى غمرة التمرد والثورات• على ان الصراع أنجب رجالا أشداء ، هاجموا الامبراطورية فى عهد ابنه ، فبينما انضوى آلاف من محاربى (جنوا) و (كتالان) تحت لواء الامبراطور فى حربه مع الاتراك ، أنشأ آلاف غيرهم ما أسموه «الجماعة الكبرى» ، وانتزعوا السلطة من الامبراطور، وهزموا جنوده ، واستباحوا أراضيه ، واتحدوا مع أعدائه ، ثم زحفوا الى بلاد اليونان فقضوا على ما كان باقيا من سلطان اللاتين ، وظلوا من سنة ١٣١١ الى سنة ١٣٢٦ مبعث ذعر للولايات الاغريقية • ثم انتهت بهم الخلافات ، الى الاعتراف لاسرة « أراجون » بالسيادة ، وظل الحكم فى (اثينا) ما تبقى من القرن الرابع عشر فى أيدى ملوك صقلية • فلما تغلب عليهم الفرنسيون والكتالان ، اتسع نفوذ أثينا ، وأصبح ملكها فى أيدى أسرة « أكايولى » الفلورنسية ، بين سنتى ١٣٨٤ و ١٤٥٦ •• حتى تغلب السلطان « محمد الثانى » على آخر دوقات هذه الاسرة •

٣ - نهاية الدولة الرومانية

◆ **أدى** نهوض المغول والتتر تحت قيادة أباطرتهم من سلالة « جنكيز خان » ، الى هز أركان الصين وبولندا واليونان فيما بين سنتى ١٢٠٦ و ١٣٠٤ • وفى تلك الأثناء شاعت الفوضى فى الدولة الاسلامية ، اذ دبت الفرقة فى الجيش المغامر الذى

كان يضم كثيرا من التركمان ، فانقسم تحت عـــدة رؤساء ، كانوا يعيشون على السلب والنهب • وقد خدم بعضهم تحت لواء عــلاء الدين أمير « ايكونيم » (من سنة ١٢١٩ الى سنة ١٢٣٦) ، وكان منهم أجداد العثمانيين •• **ذلك ان جنـــود أحدهم – وكان يدعى «ارطغرول» – اعترفوا عند موته بالزعامة لابنه عثمان (١٢٩٩ – ١٣٢٦) الذى قادهم عبر جبل أوليمب فأغار على (بيثينيا) وأراضي (نيكوميديا) • وبعد عدة حملات ضد المسيحيين ، تضاعفت قواته بما انضم اليهـــا من أسرى ومتطوعين ، واستطاع أن يعزز موقفه ضد اليونان • وفى السنة الاخيرة من عهده ، تلقى أنباء تغلب ابنه «أورخان» على (بروسا)، فكان فتح هـــذه المدينة البداية الحقيقية لعهد الامبراطورية العثمانية •**

وحكم « أورخان » حتى سنة ١٣٦٠ ، فقاد الاتراك موغلا فى أوربا ، ثم خلفه « أموراث الاول » ، فبايزيد الاول (١٣٨٩ – ١٤٠٣) الذى سار بجيوشه المظفرة من نهر الدانوب الى نهر الفـــرات ، وبذلك انكمشت الدولة الرومانيـــــة فى ركن من « تراقيا » – عند البحر الاسود – لم تتجاوز مساحته ثلاثين ميلا عرضا ، وخمسين طولا ! ولقد أوشكت القسطنطينية أن تقع فى قبضة بايزيد – فى عهد الامبراطور مانويل (١٣٩١ – ١٤٢٥) – لولا أن نهض المغـــول فى تلك الاثناء تحت قيادة « تيمورلنك » ، وبعد أن فتحوا فارس (١٣٨٠ – ١٣٩٣) ، وبلاد التتر (١٣٧٠ – ١٣٨٣) ، وهندوســـتان (١٣٩٨ – ١٣٩٩) ، وجد تيمورلنك نفسه وجها لوجـــه أمام السلطان « بايزيد » فأسره فى قفص حديدى كان يتبعه فى فتوحاته ، حتى قدر لبايزيد أن يموت فى ٩ مارس سنة ١٤٠٣ • وما لبث تيمورلنك أن لحق به بعد عامين،فبدأت دولته تتفكك تحت حكم ابنه ، فى حين أخذت الدولة العثمانية تلم شعثها وتوطد ملكها تحت قيادة أبناء بايزيد ! وفى عهد حفيده « أموراث الثانى » ،

حوصرت القسطنطينية (١٤٢٢) ، ولكن الحظ حالف الامبراطور « مانويل » اذ استدعى « أموراث » الى آسيا لاخماد ثورة داخلية ، فتخلى عن الحصار !

واذ أصبحت الامبراطورية الرومانية الشرقية منكمشة فى رقعة لا تكاد تعدو القسطنطينية ، لجأ « مانويل » الى الدول الغربية ينشد عونها ، وحذا خليفته حذوه تحت ستار العمل على توحيد الكنيستين الشرقية والغربية . وما لبثت هذه الوحدة أن تمت فى مجلس فلورنسا فى سنة ١٤٤٩ ، فساد السلام الكنيسة . وكان من نتائج ذلك ، ان سير ملك بولندا والمجر جيشا ضد الاتراك (١٤٤٣) بايعاز من البابا « يوجينيس » ، فهزم قوات السلطان ودفعها الى الانسحاب الى سيبيريا ، ثم عقدت هدنة لعشر سنوات ، ولكنها لم تلبث أن خرقت فى العام التالى ، ومات « لاديسلاوس » - ملك بولندا والمجر - فى الميدان ، فكان من كرم السلطان أن أمر باقامة نصب حيث مات ، تقديرا لشجاعته .

وفى أول نوفمبر سنة ١٤٤٨ ، تولى الملك « كونستانتين » آخر أباطرة الرومان ، فانهمك فى اعداد المشروعات الخاصة والعامة ، ولكنه لم يجد وقتا لتنفيذها ، اذ شن عليه الاتراك حربا انتهت بدفنه بين أطلال الامبراطورية !

٤ - حصار القسطنطينية الاكبر

◆ **تولى** محمد الثانى الملك فى ٩ فبراير سنة ١٤٥١ ، وسرعان ما تجلت نواياه العدائية للعاصمة ، اذ شرع فى بناء حصن على (البسفور) يشرف على المورد الذى تستمد منه المدينة المؤن ! فلما كان العام التالى ، وجد فى شجار نشب بين بعض اليونانيين والاتراك ، حجة لاعلان الحرب ، وكان المسلمون قد عرفوا سر البارود والمدافع ، فنصبوا مدافعهم على الميناء ، وأخذوا يتقاضون الضرائب من كل سفينة تلجه . بيد ان الحصار ارجىء حتى ربيع سنة ١٤٥٣ . ففى تلك السنة أشرف محمد

بنفسه على الاستعدادات ، وأخذ يشجع جنوده ، ويتباحث مع القادة والمهندسين ، وأمر بمدفع ضخم ـ تصل قذيفته الى مسافة الميل ـ أن يقام أمام الاسوار ٠ واذ عجز الامبراطور كونستانتين عن استثارة عطف أوربا ، بذل قصارى وسعه للدفاع ، مستعينا بأربعة آلاف وتسعمائة وسبعين رومانيا و ٢٠٠٠ من جنود (جنوا) ٠٠ وبدأ الحصار فى ٦ أبريل سنة ١٤٥٣ ، وقد أبدى كونستانتين خلاله أروع بطولة ، وتجلت الشهامة الرومانية ، والفروسية الغربية فى جنوده ٠ ولكنهم استنفدوا ما كان لديهم من بارود ، ولم يكن بوسعهم أن يقيموا مدافعهم قريبا من الاسوار ، خشية أن لا يحتمل بنيانها اهتزازات الانفجار

وكان الصراع حاميا ٠٠ ووقف العالم المسيحى يرقب الحرب في فتور وبرود ، فلم تتعد مساعداته أربع سفن استطاعت أن تقتحم لنفسها طريقا الى المرفأ ٠٠ على أن محمدا لم يلبث أن تبين ان لا سبيل لاغتصاب المدينة الا عن طريق المرفأ ٠ وهنا تجلت عبقريته ، اذ أرسل اسطولا حملت وحداته على البر مسافة عشرة أميال ، خلال ليلة واحدة ، ثم أنزلت السفن فى الميناء الضحل ، الذى لم يكن فى وسع السفن اليونانية أن تتوغل فيه ، ثم أقيم جسر بين سفن محمد ، نصب عليه واحد من أكبر مدافعه ٠٠ واقتربت السفن ـ وعليها الجنود مجهزين بسلالم ـ من أضعف بقعة فى السور ٠ وبعد أربعين يوما ، لم يعد فى وسع الحامية أن تقاوم الهجوم المزدوج ، وأن تتفادى المصير المحتوم للعاصمة !

وفى يوم الاثنين ٢٨ مايو ، أعدت العدة للهجوم الاخير ، وراح محمد يذكر جنوده بجزاء الدنيا وثواب الآخرة ٠ وترددت فى معسكره الهتافات : « الله الله ! ٠٠ لا اله الا الله ، محمد رسول الله » ، وانتشر وهج نيران المسلمين يضىء البحر والبر من (غلطه) حتى الابراج السبعة ٠٠ وكان كونستانتين قد

جمع فى قصره أشراف الاغريق ، وأشجع حلفائه ، فى تلك الليلة الاخيرة من عمر الامبراطورية ، وراح يطلعهم على الاخطار الماثلة أمامهم،والواجبات التى ينبغى أن يؤدوها٠ولجأ الامبراطور ونفر من أوفى مرافقيه الى كنيسة « سانت صوفيا » ـ التى كان مقدرا لها أن تتحول بعد ساعات الى مسجد ـ وأخذوا يصلون٠ وبعد أن استراح الامبراطـور قليلا ، سأل كل من أساء اليهم الصفح ، ثم امتطى جواده وذهب يزور الحراس ويتفقد حركات العدو ٠٠ وكان سقوط كونستانتين أمجد من أبهى عصـور الرخاء فى بيزنطة !

ومع مطلع نهار ٢٩ مايو ، هاجم الاتراك المـدينة من البر والبحر ٠ وصمد اليونانيون للهجـوم ساعتين ، وصـوت الامبراطور يتردد بعبارات التشجيع ٠٠ وكان الاتراك يجلبون القوات الجديدة باستمرار لتحل محل القوات المرهقة ٠٠ **واشتد الهجوم ٠٠ وكان العثمانيون يلقون فى الميدان خمسين جنديا ـ وربما مائة ـ فى مقابل كل جندى مسيحي ! ودكت المدافع الاسوار ، فما لبث المحاصرون أن وجدوا ثغرة نفذوا منها فى أفواج متكاثرة ٠٠ وفى غمرة الاضطراب ، لم ير اثر للامبراطور الذى أتم كل واجباته كقائد وجندى ٠٠ وسمع صـوته وهو يهتف فى أسى : « أليس ثمة مسيحى يقطع رأسي ؟ » ٠٠ وكان آخر خـوف تملكه ، هو أن يقع حيا فى أيدى أعدائه ٠٠ وفى عنفوان الصراع ، سقط صريعا بيد مجهولة ، ودفن جسده تحت أشلاء الصرعي ٠٠ واذ ذاك انهارت المقاومة ، وتبدد النظام ، وقتل ألفا يونانى بالسلاح الابيض**

وهكذا سقطت القسطنطينية ـ التى تحدت قوى الفـرس والخلفاء الراشدين ـ فى قبضة محمد الثانى ، بعد ثلاثة وخمسين يوما من الحصار ٠٠ وأمكن الاهتداء الى جثة كونستانتين تحت أشلاء القتلي ، بوساطة النسرين الذهبيين اللذين كانا يزينان حذاءيه ، فأمر محمد بتشييع جنازته فى حفل متواضع

وعمرت المـــدينة ـ التى أريقت دماء الكثيرين من أهلها ـ بسكان جدد ، وصروح جديدة ٠٠ واقتسم المسلمون والمسيحيون كنائسها ، وبذل محمد من الضمانات المؤكدة للسلامة وحرية العبادة ما أغرى اليونانيين على العودة الى عاصمتهم ٠٠

وأثار الاسى والذعر اللذان أحدثهما ســقوط القسطنطينية روح الحماس التى عرفتها أوربا من قبل ، فى الحروب الصليبية ، أو هكذا لاح ، اذ حاول البابا « بيــوس » الثانى أن يثير المسيحيين لمحاربة الاتراك ، ولكنه اضطر فى نفس اليوم الذى اعتلى فيه جنوده السفن ، الى سحبهم ثانية ، والى العدول عن المحاولة ٠ فان حصار الاتراك لمدينة « أوترانتو » واجتياحهم اياها ، قضى على كل تفكير فى حرب صليبية جديدة ! ٠٠ ولم تلبث حدة الشعور أن خفت بوفاة محمد الثانى فى العام الحادى والخمسين من عمره

(تم الكتاب)

تولستوى
أناتول فرانس
تشارلس ديكنز
جان وولفجانج جيته
ستيفان زفايج
جان جاك روسو
دستويفسكى
بول بورجيه
فيكتور هوجو
مكسيم جوركى
سومرست موم
أندريه مــوروا
البرتو مورافيا

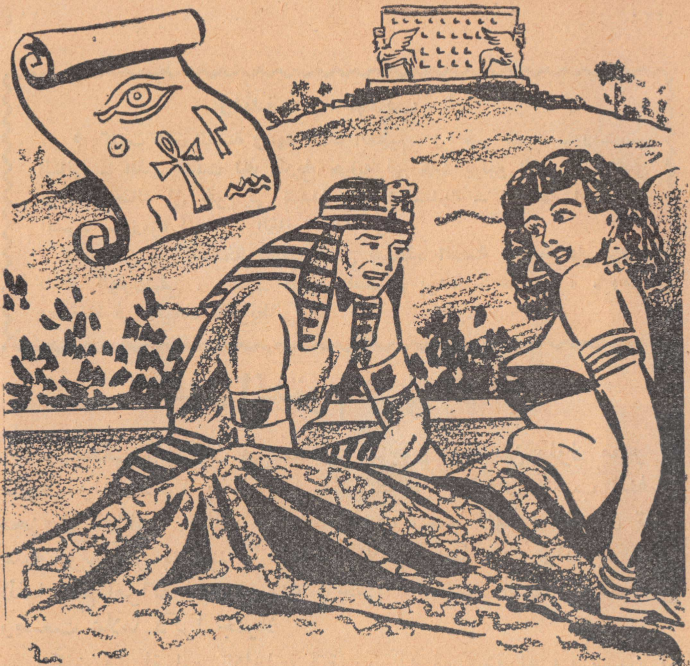
.. وعشرات غيرهم..من أعظم كتاب العالم ، القدامى والمحدثين ..

تقرأ الترجمة الكاملة لانتاجهم الأدبى الخالد الرفيع

فى الأعداد القادمة من :

مطبوعات كتابى

السلسلة العربية الوحيدة من نوعها ، التى تقدم لك الترجمة الكاملة لأمهات الكتب العالمية ، بأرشق أسلوب .. أسلوب « كتابى » وكفى !



حُكم القدر!

مأساة دامية كتبت فى عهد رمسيس الثانى



رائدة .. « أوديب » !

◆ كتبت هذه القصة فى عهد الملك العظيم « رع مس سو » - رمسيس الثانى - الذى قدمت لك تاريخ حياته فى عدد يوليو الماضى ، والذى يوشك تمثاله أن يقوم فى ميدان باب الحديد - بعاصمة الجمهورية المصرية - رمزا لنهضتنا الغابرة والحاضرة

وقد عثر على النسخة الوحيدة من هذه القصة مكتوبة على بردية بالخط الهيراطيقى ، وتعرف اليوم باسم بردية « هاريس » ، وهى محفوظة فى المتحف البريطانى .

القدر المحتوم على الأمير !

◆ **يحكى** أنه كان فى قديم الزمان ملك من ملوك مصر لم ينجب ولدا ذكرا يخلفه على العرش ، فكان كئيب النفس محزون الفؤاد . ولما برح به الشوق ، دعا آلهة زمانه أن تنعم عليه بولد يقر به عينا ، فأجابت الآلهة دعاءه .. واذا به ينفق الليل مع امرأته فتحمل منه ، حتى اذا أتمت أشهر الحمل وضعت غلاما ذكرا جميلا ..

وكان أن أقبلت الالهات ليقررن له مستقبله ويرسمن له حظه . فلما دخلن على الوليد ونظرن اليه قلن : « لسوف ينتهى أجله بسبب تمساح أو ثعبان أو كلب ! » .. وسمع من كانوا حول الامير الوليد بذلك القرار الذى اتخذته الالهات ، فتحدثوا به الى الملك ، فاذا قلبه يمتلىء حزنا وكمدا ، فيأمر من فوره ببناء قصر حصين من الحجر على حافة الصحراء . وألحق به الخدم والحشم ، وجهزه بالاثاث الفاخر ، وبأطيب ما كان فى القصر الملكى ، وأمر أن يقيم الامير فى ذلك القصر الحصين لا يبرحه أبدا !

ومرت الأعوام والصبى يشب وينمو حتى أشرف على الشباب . وانه ليصعد يوما الى سطح قصره فيرى كلبا

يتبع رجلا كان يســير فى الطريق ، فالتفت الى تابع له كان يقف الى جانبه وسأله : « ما هذا الذى يتبع الرجل المقبل علينا من الطريق ؟ » .. فقال التابع : « انه كلب ! »

قال الفتى : « فاني أريد أن يؤتى لى بكلب مثله »

وما أن سمع الخادم ذلك حتى أسرع الى الملك فحدثه بما سمعه من الأمير ، فقال الملك : « **اذن فليحمل اليــه كلب صغير حتى لا يحزن قلبه » .. وكان أن أحضر له ذلك الكلب الصغير !**

ومضت الأيام يتلو بعضها بعضا .. وأصبح الصبى شابا، فضاق بتحديد اقامته فى ذلك القصر ، وكتب الى أبيه يقول : « الى متى سيفرض على البقاء فى ذلك المكان ؟.. **انظر ، فانه قد كتب على أن أموت باحدى وســائل ثلاث ، فان كان الأمر كذلك ، فليؤذن لى بالخروج والسفر حرا ، وليفعل الرب ما قدر وما يشاء »**

وأجاب الملك ولده الى ما أراد ، فاعدت له عجلة حربيــة جهزت بكل نوع من آلات الحــرب والقنص ، وعين له خادم ليتبعه ثم صحبه جمع من الناس حتى بلغوا الجانب الشرقى من مصر . وبعد ان عبروا الحــدود قالوا له : « اذهب حيث تشاء ! »

وصحب الأمير كلبه معه ، وسار حيث هوى فؤاده ، فولى وجهه شطر الشمال فى البادية .. وكان فى طريقه يحيا على خير أغنام البرية وأنعامها

★ ★ ★

◆ **وبلغ** الأمير مقر عاهــل بلاد النهرين . وكان هــذا الملك قد أنجب بنتا واحدة وبنى لها قصرا منيفا عالى الذرى ، مرتفع النوافذ بمقدار سبعين ذراعا عن الارض ، وبعث فطلب أبناء العظماء والأمراء من أرض سوريا وقال لهم : « **من تسلق**

منكم القصر فسبق أترابه ، فبلغ الى نافذة ابنتى قدمتها اليه زوجة » !



وتتابعت الايام ، والأمراء لا يكفون عن المحاولة ٠٠ فلما وفد الأمير المصرى عليهم ، أحسنوا استقباله ، وصحبوه الى بيوتهم حيث أزالوا عنه آثار السفر ووعثاء الطريق ، وقدموا له الطعام٠٠ بل بالغوا فى الحفاوة به ، فدلكوا بالطيب جسده ، وضمدوا ما أصاب قدميه من جراح خلال السفر ، وأطعموا خادمه واعتنوا بجواده ، ثم طفقوا يتحدثون اليه ويسمرون معه ٠ وانهم لكذلك اذ سألوه : « من أنت ومن أين أقبلت أيها الأخ الكريم ؟» ٠٠ فأجاب الفتى : «اننى ابن ضابط من أرض مصر ، ماتت أمى فتزوج أبى من امرأة أخرى حلت مكانها فى البيت فكرهتنى واضطهدتنى ، فخرجت الى هذه البلاد هاربا » ٠٠ فطيبوا خاطره معانقين مقبلين فى كل موضع من جسمه !

ومرت أيام كثيرة على اقامة الشاب بينهم ٠ وذات يوم سألهم : « ما هذا الذى تفعلون فى كل يوم ؟ » ٠٠ قالوا : « أنظر ، لقد أمضينا الأيام والشهور الطويلة حتى يومنا هذا ، ونحن ننفق الوقت محاولين الرقى الى نافذة الأميرة ٠٠ فان أميرة النهرين تغدو زوجة لمن يقدر له النجاح فى بلوغ النافذة »

قال الأمير : « وددت لو فعلت مثلكم ، فهل تأذنون لى بأن اجرب قدمى ، عسى ان أرقى الى النافذة ؟ »

وخرج معهم الى حيث اعتادوا أن يقوموا بمحاولاتهم كل يوم . على انه آثر فى البداية ان يقف على كثب يرقب ما يفعلون دون أن يشترك فى المحاولة .. وظل أياما يقنع بالمراقبة ، ويقهر الرغبة فى المحاولة ، **الى أن كان ذات يوم أطلت فيه الأميرة الجميلة من نافذتها ، فوقع بصرها عليه .. والتقت نظراتهما ، فاذا هو يقدم على المحاولة ، فينجح فى تسلق القصر ، والوصول الى الأميرة التى فرحت به ، فعانقته وقبلته فى كل موضع من جسمه !**

وأسرع الناس يبشرون أباها بأن شابا نجح فى الوصول الى نافذة ابنته . ويسأل عاهل النهرين ابن من هو من الأمراء ، فيقولون له انه ابن ضابط مصرى أقبل الى هذه البلاد فارا مما لاقى من اضطهاد زوجة أبيه ، فيغضب غضبا شديدا ويصيح قائلا : « **أأعطي ابنتى لشريد من أرض مصر ؟!.. اذهبوا اليه وأبلغوه أمرى أن يعود الى بلاده** »

وذهب رسول الملك يحمل الأمر الى الفتى المصرى قائلا له : « هل لك أن تعود من حيث أتيت ؟ » .. ولكن الأميرة تعلقت به وأقسمت وهى تصيح : « بحق اله الشمس فى الافق لئن أخذتموه مني لأصومن عن الطعام ، ولأضربن عن الشراب .. بل لأقتلن نفسى فى الحال ! »

وعاد الرسول ليعلن أباها بكل ما تحدثت به ، فما كان منه الا أن بعث رجالا يقتلون الشاب ، فصاحت الأميرة : « بحق أبدية رع ، لئن قتلتموه فلن تغرب على الشمس الا ميتة ، ولن أحيا ساعة واحدة بعده » !

وعاد الرسول يحدث أباها بالذى نادت به . واذا بالعاهل يذعن آخر الأمر ويطلب دعوة الشاب وابنته الى حضرته .. فلما أقبلا عليه ، راعه ما كان عليه ذلك الأمير المصرى من

الهيبة والوقار ودماثة الخلق ، فعانقه وقبله فى كل موضع من جسمه ثم سأله قائلا : « حدثنى ٠٠ من أنت ؟ وما أحوالك ؟ فقد أصبحت اليوم بمنزلة ابنى » ٠٠ فأجاب الفتى قائلا : « اننى ابن ضابط من أرض مصر ، ماتت أمى وتزوج أبى من امرأة أخرى كرهتنى أشد الكره ، فأتيت الى هنا هاربا منها » !

وكان أن زوجه الملك من ابنته ، ومنحه دارا وحقولا ، وأعطاه من الأغنام والانعام ومن كل الطيبات

* * *

◆ **ومرت** الأيام على الزوجين السعيدين ٠ وفى ذات يوم ، قال الأمير لزوجه : « لقد كتب على أن أموت باحدى وسائل ثلاث : تمساح أو ثعبان أو كلب » ٠٠ فأجابته مرتاعة : « مر أحدا فليقتل الكلب الذى يتبعك » ٠٠ قال لها : « ما كنت لأسمح بأن يقتل الكلب الذى ربيته كأنه ولد لى » ٠٠ فكان أن بالغت فى العناية بحراسته ولم تعد تسمح له بأن يخرج وحده

وأحس الأمير بالحنين لأرض مصر فعول على السفر اليهـا ، فصحبته حاشيته حتى عبر الصحراء ووصل الى بلاده ٠ وخرج يوما للصـيد والقنص ، فاذا بتمساح هائل يخـرج من الماء فيتجه الى المخيم حيث كان الأمير ، فيهاجمه محاولا افتراسه ، ولكن عملاقا قويا ، كان يسكن هناك ، استطاع بقوة سحرية أن يشل التمساح عن أن يقترب من الأمير ٠ وكان العمـلاق يخرج ، اذا جن الليل ونام التمساح ، فيتجول فى المنطقـة لحراستها ، حتى اذا أشرقت الشمس قام بينهما صراع عنيف ٠ وظلا يفعلان ذلك كل يوم خلال شهرين من الزمان ٠

وتتابعت الأيام والأمير فى بيته ينعم بالأمن والسـعادة مع عروسه الجميلة ٠ وانه لمضطجع يوما فى سريره ، وقد جن الليل ، اذ غلبه النوم واستولى على أعضائه ، على حين كانت



زوجه ساهرة الى جانبه ، وكانت قد وضعت اناء من لبن وخمر الى جانب الفــراش ، **واذا بثعبان عظيم يخرج من جحره فيتجه الى الأمير يريد أن يعضه ٠ ويجد الثعبان الاناء فى طريقه فيشرب منه حتى يتخدر ، ويرقد ممتدا عـلى الأرض ، وعندئذ تعمـد الأميرة الى الثعبان فتقطعه أربا بفأس**

واستيقظ الأمير من غفوته وتلفت حوله فرأى الثعبان قطعا ممزقة على الأرض ، واستفسر عن الأمر ، فأجابت الأمـيرة : « انظــر ٠٠ لقد وضع الاله في يدك أحد أعدائك المقـدرين عليك ، ولعله يوقعهم جميعـا فى يدك » ! ٠٠ ثم توجهت الى الاله رع بالقرابين والحمد والشكر وظلت تسبح بقوته كل يوم !

* * *

◆ **وخرج** الأمير ذات يوم ليتفقد أملاكه فى ضياعه ، واذا بكلبه قد اقتنص حيوانا بريا طفق يجرى به ، فتبعه الأمير حتى أشرف على النهر ، ونزل من ورائه الى الماء ٠ واذا بالتمساح يفاجئه ويحمله الى مكان من البر ٠٠ واذا العملاق يبرز فيطرد التمساح وينقذ الأمير ٠٠ فقال التمســاح للأمير وهو يولى عنه : « انظر ٠٠ اننى القدر الذى كتب عليك ، والذى سـوف يتبعك أينما كنت ٠٠ ربما حاولت الافلات منى ، ولـكنى أعرف كيف أظفر بك آخر الأمر كما أظفر بالعملاق ٠ اننى أتركك تفلت الآن ، ولكن قضاءك محتوم ، وليس لك أن

تفكر فى النجاة الا اذا اقسمت لى أن تقتل العملاق • أما اذا حرصت على نجاته فانك تحرص فى الوقت نفسه على موتك !

ومهما يكن من شىء ، فقد وقع الأمير ، فى احدى الليالى ، فى قبضة التمساح • فلما أن أضاءت الأرض وحل يوم جديد ، أقبل الكلب على النهر حيث وجد سيده فى قبضة التمساح الذى كان يقول للأمير : « هل تقسم على أن تقتل العملاق ؟ » فيجيب الأمير : « كيف أقتل الشخص الذى يحمينى ؟ » •• فيقول التمساح : « اذن فمصيرك نافذ لا محالة ، انك اذا لم تحقق اليمين التى طلبتها منك فسوف ترى الموت بعينيك » !

فلما سمع الكلب صوت سيده أسرع عائدا الى البيت حيث كانت الأميرة تبكى لغياب زوجها •• واذ رأت الكلب عائدا من غير سيده طفقت تصرخ وتضرب على صدرها وتمزق ثيابها • غير أن الكلب أخذ يجذب أطراف ثوبها نحو الباب ، وكأنه يدعوها الى أن تتبعه ، فنهضت وتناولت الفأس الذى قتلت به الثعبان من قبل ، ثم تبعت الكلب حتى بلغت ضفة النهر حيث كان العملاق ، فاختبأت وسط الغابة وطفقت تصلى وتدعو الآلهة أن تنقذ زوجها

ولما أقبل المساء ، خرج التمساح بالأمير وأخذ يقول له : « هل تقسم لى على أنك سوف تقتل العملاق ؟ •• اذا لم تفعل جررتك الى قاع النهر فترى الموت بعينيك » !

وكان الأمير يجيب قائلا : « وكيف لى بقتل الشخص الذى يحمينى ؟ » ••

وفيما هما فى هذا الحوار ، اقترب التمساح بصيده من مخبأ الأميرة ، فلم تلبث ان تسللت من بين أشجار الغابة ، وجمعت قواها ثم هوت بالفأس على التمساح •• وفى اللحظة ذاتها ، قفز العملاق من مكمنه فأجهز عليه ••

وعانقت الأميرة زوجها قائلة : « انظر •• لقد وضع الاله

فى يدك ثانى أعدائك ، ولا شك أنه سيضع الثالث عما قريب» ٠٠ ثم طفقا يصليان للاله ، ويقدمان القرابين اليه كل يوم ٠

★ ★ ★

◆ **وعادت** الأميرة مع زوجها الى أبيها عاهل بلاد النهرين ٠ وفى أحد الأيام خرجا معا للصيد والقنص والسياحة فى أنحاء هذه البلاد ٠٠

وكان أمراء سوريا قد غضبوا على أمير النهرين ، اذ زوج ابنته من المصرى الذى لا يعرفون عنه سوى انه ابن أحد الضباط ، فحشدوا عجلاتهم الحربية وهاجموا بلاد النهرين فهزموا ملكها وأسروه ، ثم طفقوا يبحثون عن الأميرة وزوجها، فلما اخفقوا فى العثور عليهما ، انقسموا الى فرق انتشرت فى كل مكان للبحث عنهما ، واتفقوا على أن لمن يجد الزوج الحق فى أن يقتله ويفعل بالأميرة ما يشاء ٠

وأقبل فريق على المكان الذى نزل فيه الأمير المصرى وزوجته، فرآهم العملاق وأسرع الى سيده محذرا : « **لقد أقبل سبعة من أبناء أمراء سوريا يريدون أن يقتلوك ويفعلون بالأميرة ما يشاءون ، وهم أكثر من أن تتغلب عليهم بمفردك ، وخير لك أن تنجو بنفسك فتختفى عن عيونهم ، وسأعود أنا الى عشيرتى » ٠٠**

واصطحب الأمير زوجه وكلبه فلاذوا بكهف فى احد الجبال ٠٠ ولبثوا فى مكمنهم يومين وليلتين ٠٠ ثم قدر للأمراء المطاردين أن يمروا بالكهف ـ ومعهم عدد من رجال القبائل ـ دون أن يفطنوا الى من فيه ٠٠ **على انه لم يكد آخرهم يتجاوز الكهف ، حتى هب كلب الأمير المصرى وراح ينبح متحرشا بهم ٠٠ واذ ذاك عادوا أدراجهم ، فوجدوا الزوجين فى الكهف ٠**

ورفع أحدهم سيفه ليطعن الأمير ، ولكن الأميرة ألقت بنفسها على زوجها تحميه ، فاخترق السيف جسدها وأرداها

٠٠ وعندئذ نشب صراع عنيف ، قتل الأمير خلاله أحد أعدائه ، كما فتك كلبه بآخر ٠٠ بيد ان مقاومتهما انهارت في النهاية ، واثخنتهما الجراح ، وكفا عن الصراع ٠٠ فعاد الأمراء السوريون من حيث أتوا ، ليقتسموا أملاك أمير النهرين ٠٠

ولكن الأمير المصرى لم يكن قد مات ٠٠ فما لبث أن أفاق من غشيته ، وفتح عينيه فى بطء فرأى زوجه وكلبه قتيلين ، وصدرت منه أنة موجعة ، ثم قال هامسا : « **حقا لقد نفذ المقدور وتحقق المكتوب !٠٠ لقد قررت الآلهة منذ طفولتى أن أموت بسبب كلب ، وهأنذا أموت كما قدروا ، فان الكلب هو الذى أرشد أعدائى الى ٠ وانى لارحب بالموت ، فلا احتمال للحياة من بعد هذين المخلوقين المخلصين الوفيين : زوجى وكلبى** » !٠٠

ثم رفع يديه الى السماء داعيا : « أيتها الآلهة ، اننى لم اقترف اثما فى حقك ، وانى لأتضرع اليك أن تنعمى على بدفن طيب فى هذه الدنيا ونصر مؤزر فى محكمة الآخرة » !

وفاضت روحه

بين القصة الفرعونية ٠٠ وقصة « أوديب » الاغريقية

◆ وبعد ، فهل قرأت هذه القصة التى كتبت فى القرن الرابع قبل مولد المسيح ؟٠٠ ألا تذكرك بقصة قديمة أخرى قرأتها من قبل هى قصة أوديب الاغريقية ؟

لقد ورد فى القصة الاغريقية أن « لايوس » ملك (طيبة) لم ينجب خليفة له ، فلما اشتاق للولد ، استجابت الآلهة لدعائه ولكنها انبأته بأن هذا الابن سيقتله ويتزوج من امه ٠٠ وخشى الملك النبوءة فعهد بالطفل الى أحد عبيده ليلقى به فى مكان ناء على الجبل ، ولكن العبد أعطى الطفل لراع حمله بدوره الى ملك (كورنثة) الذى لم ينجب كذلك ٠ وشاءت الاقدار أن يهاجر « أوديب » من كورنثة الى طيبة ، فرارا من القدر الذى كتب عليه ٠ وانه لفى طريقه فى ممر ضيق اذ يواجه والده الاصلى ـ ملك طيبة ـ فلا يعرف حقيقة صلته به ، ويتنازع معه على أسبقية المرور فى الطريق ، ثم يقتتلان ، فلا يلبث

أن يتحقق الشـق الاول من النبوءة بأن يقتل أوديب غريمه دون أن يدرى أنه أبوه •

وواصل أوديب سيره الى طيبة فوجد الناس فى هلع من شراسة «الاسفنكس» التى أقامت على صخرة عالية ، وطفقت تلتهم كل من يعجز عن حل لغـز طرحته عليهم • فاتفقـوا على أن من يحل اللغز ويخلص طيبة من نقمـة « الاسفنكس » حق له ان يظفر بعرش طيبة الشاغر ويد ملكتها الارملة •

وقدر لأوديب أن يحل اللغز ، فاستحق العرش وتزوج من «جوكاست» دون أن يدرى انها أمه •• وبذلك نفذ القضاء المحتوم الذى انتهى آخـر الامر نهاية مفجعة •

ومن هنا نرى ان القصتين تشتركان فى الهدف الذى ترميان اليه • فـكل منهما تعبر عن القدر المحتوم الذى لا مفر منه • وتشتركان أيضا فى كثير من الوقائع اشتراكا عجيبا : فلقد كان كل من ملك مصر وملك طيبة يتمنى ان يرزق بولد •• وقد أنذرت الآلهة كلا منهما ـ اذ اسـتجابت لدعائه ـ بأن هذا الولد الذى يشتاق اليه لن يعمر بخير ، وأنه سوف يتعرض لمصـائب تجعله يتمنى لو انه لم يولد • ويخشى الملكان النبوءة ، فأما الملك المصرى فقد ابتنى لولده قصرا نائيا على حافة الصحراء ليعيش فيه ، وأما الملك الاغريقى فقد اختار لابنه أيضا مكانا نائيا ليموت فيه ، ولكنه عاش • وتعود القصتان فتلتقيان فى أن كلا من الولدين غادر مسقط رأسه ، وواجه مشكلة استعصى على غيره حلها بينما نجح هو فى ذلك • فأما المشكلة المصرية فهى الصعود الى نافذة عاليـــة لفتاة جميلة ، وأما المشـــكلة الاغريقية فهى لغز طرحته « الاسفـنكس » التى كانت تقيم فى مكان مرتفع كذلك • وتلتقى القصـتان مرة أخرى ، فى أن الجـائزة التى كانت ترتقب كلا من الاميرين الفـائزين ، تمثلت فى الزواج • هذا ، فضلا عن أن الخطر الذى تعرض له أوديب ونجا منه ـ وهو « الاسفنكس » ـ تعرض لمثله الأمير المصرى فنجا منه ـ وهو التمساح ـ مع فارق البيئة والعقيدة فى البلدين •

ثم تمضى القصتان فتنتهيان بالقدر المحتوم الذى لا مفر منه •

وبعد ، ألا تحس أن هذه القصة المصرية قد عبرت القرون والحدود لتكون الهاما لأدباء اليونان ، يستمدون منها ويكتبون على نسقها بعد ذلك بتسـعة قرون ، وأن الخلاف بين القصتين انما كان أمرا طبيعيا أحدثه اختلاف البيئة والعقيدة مع ما أصاب الرواية من تحريف على طول القرون ؟•• وهل رأيت الأدب الاغريقى ـ وهو من منابع الآداب الاوروبية الى يومنا هذا ـ من أين استمد عناصره ؟!

الخالدون



عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : « ديفاليرا » .. و « غاريبالدى » .. و « لويس باستير » .. و « اميل زولا » .. و «ماركونى» .. و «تشايكوفسكى» .. « فمصطفى كمال » .. ثم «شوبان» .. و « جى دى موباسان» و «مختار» و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن» و « موسولينى » و « شيللى » و «بلزاك» و «بودلير» و «دستويفسكى» و «موليير» وأخيرا « كونفوشيوس » و «جيته» .. و «بوذا» ، والجزء الاول من حياة ومأساة الاديب الانجليزى الاشهر «د.ه.لورنس» ، داعية الادب المكشوف !

واليوم ، أقدم لك الجزء الثانى والاخير من حياة «لورنس» ورائد سيجوند فرويد ، العالم النفسى الكبير

وفى الاعداد التالية أعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، بروانج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشه ، أرسطو .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، اديسون ، فورد .. والتر سكوت ، ديماس .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل انجلو ، روفائيل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



احدث كتاب عن حياة وانتاج الأديب الكبير :

د . ه . لورنس

ابن المرأة !

تلخيص : صلاح الدين الشريف

تجربة هائلة ٠٠ بدون مقابل !

◆ « د ٠ ه ٠ لورنس » ٠٠ مرة أخرى !

الأديب الضحية ٠٠ أو الرجل الذى وضع نفسه على المشرحة ، وراح ينقب فى جوانبها عن حقيقتها ٠٠ ثم خرج على الناس بفلسفة واقعية ، ومذهب من نوع جديد : ان الجسد ٠٠ تلك المادة التى تعود بعض الناس أن ينظروا اليها كما ينظرون الى حيوان حقير ، انما هو حقيقة علوية سامية ، تقف على قدم المساواة مع « الروح » ، ان لم تتقدمها !

وهكذا مجد لورنس الجسد ، ودعا الى تقدير أحاسيسه ومشاعره ٠٠ بل تقدير ميوله وغرائزه ٠٠ لأنها هى الحياة ٠٠ فى أسمى معانيها !

وقد قدمت لك فى العدد الماضى الشطر الأول من حياة ومأساة هذا الأديب العظيم ، فرأيت كيف اتخذ من نفسه مثلا ، وجعل من مأساته الخاصة عبرة للأمهات اللواتى يدفعهن الجهل الى التعلق بأبنائهن تعلقا يبلغ درجة « المرض » الذى يتلف كينونتهم ، ويفسد ذاتيتهم ، ويقوض سعادتهم !

واليوم ، تقرأ المزيد عن لورنس ٠٠ بل تمضى جولة أخرى فى داخل تلك النفس البشرية التى تعذبت كثيرا ، وتألمت كثيرا ، فصهرت عذابها وآلامها ، لتصوغ منهما تجربة مروعة هائلة ، تقدمها طواعية واختيارا ٠٠ وبدون مقابل ٠٠ الى الانسانية !

مغامرة جديدة ٠٠ فى القارة العذرا !

◆ **وجاب** لورنس أوربا كلها ٠ وأخيرا ، شعر بنفسه الحائرة ، المعتركة أبدا فى ملاحم لا تهدأ مع جيوش من مخاوفها وظنونها ، شعر بها أضيق ما تكون بأوربا التى تغط فى بلادتها وعجز شيخوختها !٠٠ ان آفاق هذه القارة ، من أقصى الغرب الى أقصى الشرق ، تحمل له مع أنسامها ورياحها ، وتيارات فكرها ، أهوالا من الضيق ، والركود ، والعفن ، والمرارة ، تطير لها نفسه شعاعا ، وتتبدد معها « وحدته الآدمية » كما يتبدد الهشيم الذى تذروه الرياح ٠ يالله !٠٠ ان غابات الشمال الوقورة ، ذات الرائحة الصنوبرية النفاذة ، تحت سمائها الداكنة الملفعة بغمامها على مدار العام ، وسواحل الجنوب ذات السماء الوديعة الصافية ،

بزرقتها اللازوردية الحالمة ، غدت كلها مصادر لضيقه وانطوائه و « سوداويته » ، بعد أن كانت مصادر ولادة لوحيه والهامه وعبقريته !

وظل يبحث عن جو جديد ، ويلهث ، بخياله وفكره ، وراء « نموذج » جديد لهذه النفس الانسانية الخالدة ‥ نموذج فذ وخارق للعـــادة ٠ ولا مراء فى أن مثل هذه الصـــورة الانسانية « المثالية » عند لورنس ، لا يمكن أن تنمو وتنضج الا فى أجواء أقرب ما تكون الى التحرر والطلاقة ، ومثل هذه الاجواء لا تكون الا مع حياة الفطرة ، بكل ما فى الفطرة من أشواق عارمة وأسرار !

فليول وجههاذن نحو الشرق ‥ الشرق الحبيب البعيـد ‥ الشرق المسربل منذ أقدم القـدم بغموض سحرى يفتن ويروع ٠ ويكفى الفنان متعة أن يعبر الى هذا الشرق محيطا مائيا هائلا هو هذا « المحيط الهندى » بعبابه الشاعرى الدائم التراتيل ، تنفسح رقعة أمواجه تحت سماء عجيبة التحـول والتقلب ، فهى تارة تسفع بشمسها الحارقة المتوهجة غماغم أمواجه ، وأخرى تسح بمائها الرطب النمير لتطفىء حـرائق اللهب الذى أشعلته على أديم الماء ٠ ان هـذه السماء لأقرب صور الطبيعة شبها بنفسه هو التى تخفق بين جنبيه ، فهى تارة تتوهج وتتقد ، حتى لتسفع كيانه كله في غير ما رحمة ، فتخرجه ـ فى رأى معاصريه ـ عن كل طور مقبول و «معقول» من أطوار النفوس والعقول ‥ وتارة أخرى تعود فتصـــفو آفاقها ويعذب وردها ، فتعكس لقراء أدبه آراء و « نظريات » عميقة رصينة ، جديرة بالدراسة والتأمل ، قمينة بالخلود !

هاهى ذى الهند «المقدسة» على قيد أميال منه ! ان آكامها وقممها الرمادية الشاهقة ، تبدو له من بعيد أطيافا تسبح خلال ضباب غامض نسجته على حاشية الافق البعيـــد أيد مسحورة ٠ يالله ! ‥ ان وراء هذه القمم والآكام لأسرارا

تفتن النفس الاوربية بجو من « الشذوذ » والغرابة ليس له نظير ٠٠ وها هى ذى الروح الهندية العريقة تتهادى اليه عبر هذه الرقعة المائية الجياشة ، التى تفصله عن سواحل الاسرار ، لتحمل له مع زفيف الريح البحرية ذات الانين ، هديرا كهدير الأمواج ، لا بل هو هدير أشبه مايكون بذلك الهدير الخفى لنفسه « المهلهلة » التى يحملها بين جنبيه ٠٠ نفسه التى ما تزال حبيسة وراء ضباب خانق من ضيقها ومللها ، وركودها المميت ٠٠ لكم يود من أعمق أعماقه أن يجتلى هذا السحر الرائع المروع معا ، ويكشف على مهل هذا الخفاء العريق ، ويفعم على مر الايام روحه وقلبه وحسه جميعا بأسرار هذه الروحانية « المتأبدة » تأبد تلك الغابات العذراء والاحراش التى لم يهتك لها سر ، تلك التى تشتهر بها الهند منذ القدم ٠٠ أواه !٠٠ لم لا يهبط أرضها المقدسة اذن ، وهو الهائم هياما بالشرق ، عله يتذوق « تجربة » حسية وعقلية جديدة ، مشبعة و « متبلة » بمذاق من لون حاد ، له وهج ولهب ؟!٠٠ أما يحتمل أن يكون فيها « نبى » جديد من أنبياء الفكر ، أو رائد من رواد حضارة عقلية وروحية جديدة ، لا تتنكر للجسد تنكر « الهندوسية » له ، ولا تخنق الحواس كما يخنقها هؤلاء النباتيون النحاف ، سمر الوجوه ، فى « قماقم » فولاذية من « الرياضات » الشاقة والشعائر القاسية المتزمتة ، التى تنتهك ـ فى رأيه هو ـ حرمة هذا « الجسد » الانسانى ، وتجعل الصراع المحموم رهيبا ومحتوما بين شقيه ، خلال رحلة العمر بأسرها ، فى غير ما فائدة أو جدوى على الروح والجسد ؟!

ولكنه ـ ولا ندرى حقيقة السبب ـ يشفق من « أهوال » التجربة ، ويتفاهم باديء ذى بدء مع نفسه ، ليقنعها بتأجيل هذه التجربة ، ريثما يأخذ لها أهبته ويستوفى حظه من زاد المران النفسى الشاق الذى قد تتيحه له ، الى حد ما ، قراءات

مستيفضة عن الهند ، ودراسات متقصية لعقائدها وفلسفاتها . أما قبل هذه الجولة العقلية « المستكشفة » ، فى محيط التراث الهندوسى العريق ، فلا يجوز له أن يقتحم أرض الاسرار ويغزو معاقل لا تزال مستعصية على الغزاة من بنى جلدته ..

وبالفعل ، لم يجد دافعا يغريه بالهبوط من السفينة الى (بومباى) . وبعد يوم أو بعض يوم ، أقلعت به فى سرعة حثيثة ، لتواصل رحلتها الى أقصى الجنوب الشرقى .. الى استراليا ، فهى بدورها أرض ما تزال عذراء ، ولا تخلو طبيعتها البكر السخية من « الهام » فيه ومض السر والسحر !

ملاك الرحمة .. فى استراليا !

• **واختار** لورنس غرب استراليا أول ما اختار ، فالجو هناك يلائم مزاجه الفنى كل الملاءمة . فهو بأحراشه ومروجه الخضر الممتدة الى أبعاد سحيقة ، وسمائه المبرقعة بغلائل الغمام حينا ، والسافرة بزرقتها الساهمة حينا آخر .. ثم هذه « الجواسق » والاكواخ الريفية البديعة ، المنتشرة على مد الوديان والسفوح والربى ، لتؤلف مواطن سعيدة لرعاة الأبقار والماشية ، ومحلات ساذجة للباحثين والباحثات عن الذهب ، « اله » الحضارة ومعبود الجميع ، كل أولئك يسبغ على وجدان لورنس وخياله ، وعقله ، يقظة « فنية » مشبوبة ، تفتح كل نوافذ الوعى الظاهر والباطن فى كيانه المخدور ، الذى لم يفقد مع خدره أوتاره الحساسة ومشاعره المرهفة !!

وكانت أبدع سلوياته طرا ، تلك الرحلات الممتعة التى يمتطى خلالها صهوة جواد استرالى فاره ، فى ساعة البكور المطلول ، أو عندما تزحف بعد الاصيل مواكب الغروب .. انه يطلق له العنان كما يطلقه لفكره ، وكما يركض به الجواد الاصيل فى سرعة مجنونة وحبله على غاربه ، يركض خيال لورنس وفكره فى عوالم جديدة مسحورة ، جناتها

ومسارحها تلك البرارى والادغال الزاخرة بقطعان الماشية والفهود المرقطة والذئاب المتحفزة ، المشرعة الناب والظفر ٠٠ ثم ذلك الحيوان السعيد فى هدوئه وبلادته ، وسهومه الفلسفى ، وجلسته العجب كأنه راهب من رهبان الفكر !٠٠ ذلك « الكانجارو » ، الذى اشتهرت به استراليا دون قارات الدنيا جميعا ، لحكمة ليس يدريها أحد ٠٠

وذات يوم ينزلق لورنس من فوق صهوة جواده الراكض ، ويحمل حملا بعد ساعات من التوجع الصامت الى مستشفى ريفى صغير ليمرض فيه ٠ وفى هذا المستشفى البسيط الذى خاله عشا صغيرا للسلام والحنان و ٠٠ الحب ، يتعرف الاديب الشاعر الى ممرضة حسناء ، هى مس « رالدا فاين » ٠٠ يالعجائب الصدف !٠٠ لقد كانت هى الاخرى أديبة فنانة ، شاعرية الحواس فى وهج مشبوب هو طابع هذه القارة التى مازالت أكثر بقاعها تحى على بساطة الفطرة و «وحشيتها» معا ٠٠ وكان لقاء لم ينسه لورنس ، فقد ظل بقية عمره يجتر فى أعمق أعماقه آثاره ورواسبه !

كانت لرالدا ، ذات العينين الزبرجديتين كأنهما مرجان صغيران من مروج استراليا الحالمة ، مواهب أبدعتها تلك الطبيعة العذراء الموحية ، التى ترضع من أثدائها السخية كل الأحياء من انسان وحيوان ونبات ، فيضا من لبن وعسل ٠٠ والهاما كله السحر !٠٠ فهى تزهو بجمال « برى » من لون فريد ٠٠ جمال على غرار ذلك الجمال « الفطرى » الذى تشعه تلك البرارى المترامية ، والمروج اللائذة أبدا بخضرتها، المتضرمة بنبض الطبيعة الجياشة بكل ما فيها من فتون وسحر !٠٠ لكأنها « غزال » من تلك الغزلان التى تعيش مع التياتل البرية فى هذه المسارح الساهمة ، منطلقة على سجيتها ، مسترسلة فى توفز دائم وراء أحلامها «الغريزية» ، رغم كل الاخطار التى تحدق بها هنا وهناك من تلك الكواسر

المسعورة الناب والظفر ٠٠ وكان هذا الجمال الاسترالى المتوهج لونا جديدا لم يلتق به لورنس فى أى بلد آخر من البلاد التى عرفها خلال أسفاره ورحلاته ٠٠ لكأن رالدا هى « استراليا » أخرى ٠٠ قارة جديدة لا تزال مستغرقة فى سكرة حلمها اللذيذ ، مطوية على مجاهل كثيرة تغرى المغامرين من هواة الرحلات بمداومة الارتياد والتنقيب ، والكشف الدائب عن أسرارها المحجبة ٠٠

وعول ، بينه وبين نفسه ، على أن يكشف من فتاته كل يوم « منطقة » بعد منطقة ٠٠ فجعل فى خلال فترة النقاهة يخرج معها الى نزهات خلوية بديعة ، يجوبان خلالها هذه البقعة السحرية من أقصى الغرب الاسترالى ٠ فهما فى الصباح الباكر ، المبلل الجبين برطوبة أندائه وبرحيق الزهور البرية المتضوع عبيرا مسكرا ، ينتبذان من العالم كله مرتفعا صخريا غزير الاحراش ، يستشرفان منه على روائع من الجلال والجمال تتعاقب على مرآة البصر ، لتسكب السحر و « العشق » فى قلبيهما معا ، وتغريهما اغراء بالمناجاة والمطارحة ساعات لايحسان بمرها السعيد الخاطف ، كأنها ليست من ساعات العمر !

وبدأ لورنس جولته الاستكشافية ، فاذا بالفتاة أديبة مشبوبة الخيال ، طليقة الحواس طلاقة هذه البوادى الاسترالية ، وهى شاعرية «الوجدان» ، لكن شاعريتها من نوع عارم متأبد كهذه البيئة العذراء التى نمتها وأنضجتها ٠ وان لها لأنوثة آسرة طاغية ٠٠ أنوثة متأهبة للامومة الخصيبة ، السعيدة ٠٠ يالله !٠٠ دائما «الامومة» ، بشتى معانيها النفسية والجنسية ، تلتقى مع هذا الشقى المعذب « لورنس » ، فى كل طريق سلكه واختاره من طرق الحياة !!

وكانت الفتاة بسيطة ساذجة فى تعابيرها وحديثها ٠٠ ولكن وراء هذه البساطة والسذاجة ، تكمن أفكار فوارة المغزى

لافحة الوهج ، لا تصدر الا عن « أنوثة » تحس بسلطانها على الناس والأشياء ، وعلى الممتازين من رجال الفكر بصفة خاصة !.. ولورنس الذى بدأت تتذوق رحيق فكره الثائر ، واحد من هؤلاء بلا نزاع ..

الرجل والمرأة .. فى وليمة الحياة !

◆ وبدأت تبثه « ميلها » اليه ، على طريقة البيئة الاسترالية ، الساذجة فى تكشفها وتحفظها .. ولكن لورنس الأريب اللماح ، أحس فى قرارته أن هذا « الميل » العاطفى من جانبها ، ليس ميلا « جنسيا » عارما عرام هذه البيئة التى حج اليها لكثرة ماسمع من انها متدفقة أبدا بالوهج واللهب ، وبالشباب والعنفوان !.. ان الحب عند لورنس شرارة كونية ، تحرق لتخلق، وتفنى ذاتها لتتجسد فى ذات أخرى ، على نهج « فطرى » وغريزى صريح ، لا مواربة فيه ولا نفاق مما يصنعه لنا زيف المدنية و «قشرتها » المموهة التى تحاول أن تلبس الناس والاشياء « طبائع » غير طبائعهم الراسخة فى صميمهم! .. هذه الطبائع المستقرة هنالك تحت وشى الثياب والزينة ووراء زخرف كاذب من آداب الاجتماع عند من يسمون أنفسهم بالمتحضرين !

لكن لورنس الذى اسقمه جسما وروحا ، جو أوروبا المتهالك تحت تقاليد حضارية « متكلسة » ، وآداب اجتماعية متعفنة ، ملؤها الرياء والزيف .. لورنس هذا يفهم أن من طبيعة هذه « الشرارة الكونية » أن تنقدح فى أعماق « جسدين » توفر لهما قدر متناسب من حظ الأنوثة والرجولة ، ليتلاقيا معا على وليمة الحياة ، عاشقا وعشيقة .. لهذا ، كانت « الصراحة » و « المصارحة » فى تلبية نداء الجنس ، أولى بالتقديم - عند لورنس - من النفاق والمصانعة .. لكن لورنس لايدعو الى أى عشق ، ولو كان عشقا شاذا ، أو عشقا لشخص من جنس العاشق نفسه ، وانما هو يدعو الى فلسفة واقعية لاترضى - وهى بسبيل تحليلها العميق لحقائق النفس البشرية - بعشق « النزوة » العارضة ، أو بدفعة الصرخة الحيوانية الموقوتة ، التى تنطفىء بأسرع مما تنقدح ، لتخلف من بعدها دخانا وركاما ورمادا .. فان الارتجال فى العشق ليس من مبدأ لورنس ولا هو مما توصى به تجاربه التى تؤمن بالعشق السوى الصحيح ، بالنسبة للرجل والمرأة ، وأجيالهما المتعاقبة الى نهاية الزمان

كلهن فى الهم .. نساء !

◆ ولنعد الى فتاتنا الاسترالية العاشقة .. يالله ! انها اذا أرادت أن تمثل حقا دور « العاشقة » ، التى ستحيا وفق طبيعة جنسها ، على غرار مايفهم لورنس هذا الدور الخالد ، فلا بد من أن تكون صريحة كل الصراحة مع

نفسها ومع عواطفها ٠٠ ومع رجلها الذى سيشاركها الحياة بكل مافيها من جمال وجلال ، ووقد ونبض ، ومنح وتملك ، وأثرة وايثار ، وسلام وحرب ، الى نهاية عمر الحب أو عمر الحياة ٠٠ لكن ، واأسفاه ! لقد انتهت مراحل الكشف لنفسية الفتاة ، وتعرت « دخائلها » - أمام لورنس - من كل زخرف ٠٠ فاذا هى لا تعدو أن تكون «صورة» مكررة من ملايين الصور الآدمية لبنات جنسها ! فهى الاخرى تمثل دور العاشقة الى حين ٠٠ أى الى أن تنبض فى أحشائها حياة جديدة ، لمولود جديد ، لن يلبث أن يطفىء فى جوارحها بغتة وميض العشق الجنسى المحموم لرجلها ٠٠ وهكذا حال جميع هذه « النسخ » الآدمية المكررة «المزيفة»،التى تذكره بروح العصر الفيكتورى بكل جمودها وهمودها وزيفها !٠٠ ولكن ، ترى ما الذى رابه من فتاته ، وأزهده فيها ؟٠٠ انها تلك القصة التى ألفتها ودفعت بها اليه ليقول رأيه - كناقد - فيها ٠٠ لقد سمتها « الفلام فى أحشاء الدغل » ، وكشفت فيها - من خلال سطورها وأفكارها - عن شوق محموم الى « الامومة » الموعودة !

على أن القصة فتحت عقل لورنس وحسه على عوالم جديدة وطريفة ، فقد أوحى له « جوها » العاطفى بزاد من المشاعر والافكار والحقائق ، فاعتزم أن ينقح القصة ويطبعها لها ولو على نفقته ، وهو الفقير الذى لايملك مالا !

على ان الفتاة اذا كانت أزهدته فيها - كأنثى - بعد وقت لم يطل ٠٠ لكنها استطاعت أن تشعل فى أعمق أعماقه ضرام وحى فنى جديد ، كان مصدرا خصبا لخطوط قصة جديدة رائعة من قصصه ، هى قصة « كانجارو » ، التى ظلت - فى رأيه - أغلى تحفه الادبية جميعا !٠٠ وقدأطلق لورنس على القصة اسم ذلك الحيوان العجيب الذى تفردت به استراليا دون قارات الدنيا جميعا ،واستوحى جوها من جو تلك القارة الفسيحة « العذراء » ، فجاءت القصة عالما روائيا حافلا بالروائع ٠٠ وحافلا فى الوقت نفسه بالنقائض و « الفوضى » النفسية والعاطفية الممتعة ، والشطحات الذهنية الساحرة !٠٠ وبطل القصة « رتشارد لوفات سومرز » وان كان جديدا فى اسمه ، الا انه قديم فى صورته وطبيعته، فهو صورة أخرى لمؤلفه « د ٠ هـ ٠ لورنس » ، بلحمه ودمه ، وأفكاره ومشاعره ، وعقده ونقائصه ، وجرأته وصراحته ٠٠ أو بعبارة أخرى بثورته المدمرة البانية فى وقت معا !٠٠ فكما كان لورنس فى حياته ، نرى«سومرز» فى هذه القصة : صريحا مع الناس ٠٠ صريحا فى نظراته ، الواقعية والنفسية، الى الاشياء والقيم ٠٠ صريحا فى مواجهة نفسه بكل مايعتلج فى اعماقها من مشاعر ٠٠ وهو فى الوقت نفسه قاس مع نفسه ، ومع الناس ، والتقاليد ، والنساء ! ٠٠ قاس فى نظرته الى آداب الاسرة والجنس ٠٠ فهو على الدوام يبدأ عاصفا عاتيا ، مدمرا ، كاعصار مجنون ٠٠ ثم يحس ، بعد أن يستهلك الصراع

انفاسه ، بذوبان قواه العارمة ، وانحلال عزائمه الراسخة الواثقة ، الى حد أن يلهث فى النهاية تعبا واعياء ، كأنما عاد لتوه من ملحمة من تلك الملاحم «الاولمبية» المروعة التى سجلتها مخيلة « هوميروس » فى « الالياذة » الخالدة !

السمو بالحياة .. وهل يكون بالزهد ؟

◆ لكن لورنس – كفنان له اصالته – انما يهدف من وراء هذه القسوة العارمة ، التى تكاد تصطبغ بصبغة « عدمية » (NIHILIST) ، الى غاية يراها هو جليلة ومقدسة وسامية ، هى تصوير النفس الانسانية كما هى ، بلا « رتوش » أو صناعة .. أو زخرف خادع !.. وهو يخلع على كل دافع حيوى يأخذ بزمام النفس الانسانية « قدسية » تبلغ درجة « التأليه » !.. بل انه ليجعل كل حافز من هذه الحوافز بمثابة « اله » آمر ناه فينـــا ، قادر تلك القدرة الهائلة التى تعلو فوق مشيئتنا .. وتسيطر على ارادتنا .. وترسم كما تشاء أقدارنا ومصائرنا ، منصفة أو ظالمة ، رحيمة أو قاسية ، ماضية فى انفاذ قضائها أو متمهلة فيه ، لحكمة تظهر حينا ، وتخفى أحيانا !.. فسومرز مثلا ، وهو بطل القصة ، قادر قدرة رائعة وفذة على التأثير فى الناس واجتذاب قلوبهم ، والاندماج فى أخص مايشغلهم من شئون .. فهو ان شاء منحهم صداقته وحبه ، كأقدر وأسخى مايكون واهب !.. وان شاء قبض عنهم صداقته وحبه ، وتنكر لهم ، وعصف بهم اذا واتاه الظرف الملائم !.. فهو على الجملة يسلك فى حياته مسلك من يتنكر للمسئولية ، ويضيق بأعبائها ، ويتوق الى نعمة التحرر من القيود التى فرضتها الجماعة .. وهو فى كل حالة من حالاته النفسية ، يبدو كأنما يطيع الها من الآلهة لايملك أن يعصى له أمرا !.. والعجيب ان « سومرز » يبدو من خلال المظاهر المتباينة لهذه الطاعة الفريدة التى يستسلم فيها عقله وقلبه وجسمه للآلهة الجبارة الثاوية فى كيانه ، يبدو كأنه اعتنق دينا جديدا لم يعرفه انسان قبله .. دينا يكفل له التحرر مما وصفه بأنه « أوهام النشأة الاولى » !

لكن القارىء المتعمق لقصة « كانجارو » لا يلبث ان يتبين ان هذه الآلهة جميعها التى يخضع لها « سومرز » ، ليست الا مظاهر متعددة لاله واحد ، عملاق ، هو « سومرز » نفسه بطل القصة !.. وفى رأى هذا البطل الاله – كما يعبر عنه لورنس فى قصته – ان الغرض الاصيل الذى تهدف اليه دوافع الحياة جميعها وتشير اليه حكمة الوجود ذاتها ، هو « حب المغامرة العقلية والعاطفية » .. هذا الحب الذى يستهلك قوانا المادية والروحية ، ويجعلنا نلهث بالجسد والروح ، طوال رحلة العمر ، وراء كل بارقة قد تكشف لنا عن سر من أسرار الصراع الأبدى بين الفكر والمادة ، بين القوة والقوة ، بين الجنس

والجنس ، بين الجيل والجيل ، بين حافز الجمود وحافز التطور ، بين الواقعية والمثالية ٠٠ أو بعبارة واحدة : بين النقيض والنقيض !

وتتلخص فلسفة لورنس فى هذه القصة ، وهى الفلسفة التى يسوقها على لسان بطلها « سومرز » ، فى اننا نستطيع ـ لو شئنا ـ أن نرتفع بالحياة ، عن طريق الارتفاع « بغرضها الاصيل » الذى تتحرك نحوه دوافعنا جميعا ٠ لكن هذا الارتفاع أو السمو لا يكون بالزهد والتصوف ، اللذين يقتلان حقائقنا الجسدية بكل مافيها من حوافز البناء والخلق والابتكار ، والكفاح والمقاومة ٠٠ وانما يكون بمواجهة حقائقنا البشرية فى صميمها ، ذلك لاننا لانستطيع أن نكشف عن هذا « الغرض الاصيل » للحياة ، ونتعمق أبعاده كلها ، الا من خلال أشواقنا التى تخلقها لنا هذه « الحوافز » المشبوبة فى كياننا ٠٠ فاذا أصررنا على أن يكون معدن كل حافز من هذه الحوافز مقصورا على خيال محض ، ومثالية مجردة ، سحقنا أشواقنا فى أعماقنا ، وبعدنا أشواطا سحيقة عن جوهر الاشياء ، فتناقضنا مع طبائعنا ٠٠ أى تناقضنا مع الحياة !٠٠ أو ليست أجسادنا ، عند لورنس ، هى مثوى هذه الحوافز ؟ ٠٠ ان لورنس ، نعنى « سومرز » ، يعتقد بأن الغرض الاصيل للحياة سيظل قويا مشرقا ، ماظلت أجسادنا مشرقة بنبض الحياة والصحة ، عامرة بالطموح والأمل ، غنية بالتجربة ٠٠ ولكنه يضعف ويشحب ، وتبهت معالمه ، حين تبدأ أجسادنا تتدهور ، وعنفواننا الحسى والشعورى يضمحل تدريجا ، كقرص الشمس يرسم معنى الاحتضار عند بدء الأفول !٠٠ وهكذا الحال فى قصة « كانجارو » ، فسومرز يحس ـ ودوامات الحوادث تنشره وتطويه ، وتوقظه وتنومه ، ان غرض حياته الأصيل جعل يضعف أمام عينيه ويشحب فى أعماقه رويدا رويدا ٠ ذلك انه أخذ يشعر شعورا عميقا أليما بتخاذل قوى جسده ، مصدر حوافزه الخالقة ، فهو من ثم آخذ فى الانهيار والافول ، منساق برغمه الى مصير حقيق بالرثاء !

يمجد الحب ٠٠ ويخشاه !

◆ والحق ان لورنس فى هذه القصة لا يروعنا بشطحات شاذة من خياله ، أو بأوصاف حسية أو نفسية ، وانما هو ينقل « الواقع » على علاته ، ويكشف لنا بلغة التحليل والوصف والحوار ، عن مأساته هو ٠٠ نعنى عن ذلك الذى بدأ يحسه فى قرارة وعيه ، ويدركه ادراكا عميقا موجعا ، من بداية انهيار قواه الجسدية ، ومعاناته مظاهر الضعف والاعياء تزحف فى مرحلة الكهولة على كيانه ٠٠ فرتشارد سومرز ، الذى هو لورنس نفسه ، يحس ان الايام ، أو عجلة الزمن ، قد بدأت تغلبه على أمره ٠٠ وان معركته معها أخذت تترك آثارها ومخلفاتها و « أخاديدها » على ملامحه ، وقواه ، وشباب جسمه ٠٠ ومع الاعياء

والضعف يأتى حتما هوان الشأن وضآلة التأثير فى الناس والاشياء ، وفى القيم والفضائل .. لأن « سومرز » ، أو لورنس ، لن يعود قادرا قدرة الشباب الاول ، على استشعار معنى الطموح ، وعلى أن يغامر بالفكر والعاطفة والجسد جميعا ، ليحب ويعشق ، ويكون من النساء محبوبا ومعشوقا !.. ذلك ان العشق معاناة ومكابدة ، ولورنس ـ كما عرفنا ـ يمجد العشق ، ولكنه يخشاه ايما خشية ، لما فيه من معاناة ومكابدة ومخاوف !.. لقد كان يخشاه ـ رغم محاولاته العديدة لاخفاء هذه الخشية ـ وهو بعد صحيح الجسم ، فى زهرة عنفوانه وميعة شبابه .. فكيف لا يخشاه ويفر منه وهو اليوم ضعيف متداعى الكيان ، يحس مع مرور الايام بتسرب قواه شيئا فشيئا ، فيسجل مشاعره ومأساته على الورق الصامت ؟!

واخيرا يستسلم ، لكنه حتى فى استسلامه لا يرضى أن تمس كبرياؤه ، او تنال الايام من شبابه الذى يذوى ويشيخ .. لكنه اذا استسلم وتنازل عن كل شىء ، فلن يرضى ـ مهما يكن من شىء ـ أن يتنازل عن « وعيه » الذى وهبته له مدنية العصر .. هذا الوعى العصرى المرهف، «الذى يلهمنا التحرر،والصدق، وعدم الرياء ، فى كل تصرف نأتيه وكل مسلك نسلكه .. ومن ثم فان«رتشارد سومرز » لن ينكس العلم الذى رفعه بيديه .. علم المكاشفة والصراحة .. أتدرى لماذا ؟ لان « رتشارد سومرز » ، حتى فى ضعفه ، انسان عملاق !

المرأة الجديدة كما صورها لورنس

◆ وفى هذه القصة أيضا ، بلغ لورنس الذروة فى رسم صـورة جديدة للمرأة : أما ، وزوجا ، وعشيقة .. فلقد نمت شخصيتها عما كانت عليه فى قصصه الاولى ، وانفسحت الميادين التى تجول فيها مشاعرها وحواسها وأفكارها .. فهو هنا لا يصورها « كائنا » حقير الشواغل ، تافه الاحلام ، لايعنيه الا نصب الحبائل للرجل ، لاصطياده والانقضاض عليه ، وامتصاص دمه ، بدافع من ذلك الصراع الأبدى بين الاجناس .. وانما هو يصورها مخلوقا رقيقا ، نبيلا ، متسامحا ، ينطوى فى سن الاحلام على طفولة عذبة : نزقها معقول ومحبوب ، وغضبها صاخب ، ولكنه سريع الانطفاء قريب الغور ، وأمومتها متفلسفة ساخرة، ولكنها وديعة ناعمة تريد الهدوء والاستقرار .. وهى فى جميع أطوارها فاتنة ساحرة ، ينبعث سحرها من تقلبها السريع من حال الى حال !

وبقدر مانقم لورنس على المرأة انها كانت مصدر شقائه ومكابدته ، فانه أنصفها وقدسها ، ورفع عنها الكثير من المظالم ، لانها الشق الاصيل الذى يتم به صلاح الجنس البشرى .. ومن أجل ذلك وجب أن تشاركه أعباء المعركة !

ومن ثم استحق لورنس أن يسمى « ابن المرأة » غير منازع !

نهاية المطاف ٠٠ !

◆ وتأتى فى النهاية خاتمة المطاف ٠٠ خاتمة الاديب الانسان « لورنس » !٠٠ ففى قصصه الاخيرة ، خرج على الناس بنظرية جديدة : نظرية «انبعاث الجسد» ٠ ولشد ما تبدو تلك النظرية واضحة المعالم فى قصته الرائعة The Escaped Cock

ان « الجسد » ينبعث فى ختام هـذه القصة من جديد ! ٠٠ ينبعث من عالم الجمود الاجتماعى ، ليوحى الى صاحبه ـ أى لكل فرد منا ـ ان لهذا الجسد حياة أخرى يجب أن يحياها ، بكامل أبعادها ـ كما ان للروح فى رأى أنصـارها ، حياتها ـ وان لهذه الحياة الجسدية المبعوثة خطورتها وأهميتها فى كل جانب من جوانبها ! ٠٠ انها « الحياة العظمى » ٠٠ الحياة الحقيقية التى تتناهى عند ساحتها كل القيم التى يخلقها ويجددها لنا صراع هذا الجسد ، بسائر غرائزه ومشاعره ، مع حقائق الوجود المتفاعلة من حولنا !

٠٠ وحين يستيقظ الجسـد ، ويبعث من جديد ، فانما ليتيح لغريزة الحياة ذاتها أن تستيقظ هى الاخرى ، وأن تنبعث فى صور جديدة ملهمة ٠ وما دام الامر كذلك ، فلا مفر من أن يستكمل الجسد ـ فى يقظته هذه ـ بعده الاصيل ، أى المرأة ! ٠٠ فلولاها لما كان لهذا البعث ، ولا كانت للحياة بالنسبة للرجل ، كحقيقة جسدية حية مؤلفة من لحم ودم وغريزة ٠٠ أى معنى ، ولا كانت لحياتها هى أيضا ـ كحقيقة جسدية ـ أى عمق أو مغزى !

ومع ذلك ، ورغم ايمان «لورنس» بهذه الحقيقة الكبرى ، فقد كان ذا « جسد عذرى » ! ٠٠ اذ لم يتح له ، سواء بالتجربة أو الممارسة ، أن يكشف عن أبعاده كلها ، كما كشفها فى قصصه ! ٠٠ وفى نهاية حياته ، يدرك ادراكا عميقا ان حياتنا الجسدية لا تقنع بنهاية واحدة تنتهى عندها ، وان تلك « العـذرية » ، بالنسبة لمن لم تتح لهم فى الحياة تجارب عميقة ذات أهداف ، لا ينبغى أن تؤخذ على مدلولها الظـاهرى ، أى على أنها زهد وتقشف وانطـوائية ، بل هى فى مدلولها البعيد وحقيقتها الحية ، صورة من صور النزعة الغـريزية الكامنة فى اجسادنا ، والتى تدفعنا دفعا الى طلب المزيد من الحقائق ٠ ومن ثم فان هـذه « العذرية » ـ عند لورنس ـ ضرب من التطلع الحسى والمعنوى الى مناطق أخرى مجهولة ، يهفو الجسد الى ولوج عتباتها وكشف أسرارها ، بكل ما فيه من نزوع وشوق !

ولكن « لورنس » الذى عاش حياته معذبا برواسبه النفسية المريرة ، والذى ظل يكابد من ظروفه الخاصة الاهوال ، ويقاسى من تزمت عصره ما فوق الطاقة ، ثار ثورة عاتية على القيم الشائعة فى عصره ٠٠ تلك القيم الشوهاء ، المزيفة ، التى أماتت الجسـد فى سبيل بعث الشق الآخر المـوهوم ! ومن ثم فقد ذهب يطلب بعثا آخر للجسد ، يرد اليه حرمته ، وينقذه من ضلالات عمره وقيوده ،

ليستكمل أبعاد وجـوده الحى . فاذا ما جاءت التعاليم الدينية لتحد من مطالب هـذا الجسد ، بدعوى انقاذه واحياء معنـوياته ، فان « لورنس » يقف موقف الثورة الصريحة من هذه الدعوى ، ويصيح بملء فيه ، بل بملء ما فى جوانحه من عذابات « طفولة » و « شباب » اكتويا الى أبعد حد بالآلام : « لا .. اننى لا أنكر طبيعتى .. اننى لن أتغير .. وعـلى غيرى أن يتغير ! » أى أن عـلى هذا الغير أن يغير من جوهر تعاليمه !

تفوق الفـكرة ..فى الميدان العاطفى

◆ كيف المخرج اذن ، وما هو سبيل الخلاص ؟

ان لورنس يكشفه لنا فى هذه العبارات الصريحة الحاسمة : « عن طريق المرأة ، أعنى عن طريق الجنس ، نحس أن مثلنا « الروحى » الاعلى ينهار ويضيع. وعندى أن ضياعه وانهياره ضرورة واجبة ، ونافعة لنا . ذلك ان « الروحية » ، كمثل أعلى ، هى وهم ملفق ومغرض ، اذ تقوم على انكار حقيقةالجنس فى كياننا ووجودنا ، والجنس هو « المبدأ » الذى له السيطرة القادرة على الحياة نفسها »

ولورنس هنا هو لورنس على حقيقته ، لورنس بلحمه ودمه ، وعقدة نفسه .. لورنس الذى عاش كل تفاصيل هذه المبادىء والافكار التى دونها فى كتبه ! .. لكننا نلاحظ حين نقرأ لورنس ، كلمة تشيع فى الكثير من كتاباته ، هى كلمة « المثالية » .. فماذا يقصد بها ؟.. انه لا يعرف « المثالية » على أنها سيادة المثل الاعلى وتفوقه ، بل سيادة « الفكرة » وتفوقها ، فى الميدان العاطفى والحسى. فالمثالية عند لورنس تؤكد أن الصحة كل الصحة فى الانسان ، والاستواء كل الاستواء فى ذاتيته ، رهن بمدى ادراكه لحقيقه « الدافع الجنسى » الذى يحركنا للخلق والابتداع ، ويحثنا على الخلاص من العقد النفسية ، و « الانحـلال » ، والغموض العاطفى .. ولورنس من هذه الناحية يعد رائدا لسيجموند فرويد ، ولكل من جاء بعده من علماء بيداجوجيين أقروا وجوب ربط عجلة التربيـة ، وعلوم النفس ، بهذه الحقيقة التى لا سبيل الى نكرانها ، فذلك هو السبيل الى توفير الصحة النفسية والعقلية لاطفال المستقبل .

الانسان : هل هو شىء كامل ؟!

◆ وتنهك « لورنس » ـ جسدا وعقلا و « روحا » ـ كل هـذه الرحلات الذهنية والسياحية المضنية فى عوالم القصة ، وعوالم الارض التى جاب معظم أقطارها ، ويحس فى قرارة نفسه أنه مازال متشككا فى أمر خطير : هل أكمل رسالته حقا ؟ .. هل ضمن هذه الرسالة كل تعاليمه ؟ .. هل استطاع من خلال أشعاره وقصصه أن يكون « نبيا » جديدا لعصر جديد ؟! .. هل سيتاح للثقافة الجنسية من بعده أن تبدأ السير والتطور على نهج قويم ؟.. هل سيؤمن أبناء جيله والاجيال القادمة بأن « الحب » الجنسى أو العشق شىء خطير .. شىء

لم يخلق لكى نلهو به فى طفولة وصغار و « صعلكة » ، بل هو ، ماعاشت هذه الانسانية على وجه الدهر ، قوامها الاول وركنها الاصيل ، وان احتقاره أو الغض من شأنه نذير بزوال الجنس الانسانى برمته ، من عالم « حقيقته » وعالم « مجازه » على السواء ؟!

كل هذه أسئلة دقيقة ومحرجة ، تتطلب منه – ليجد أجوبة لها – مزيدا من هدوء وروية ، يعينانه على حياة التأمل والمراجعة التى يفىء اليها رواد الفكر الانسانى ، بعد طول ضرب وتطويف فى كل الآفاق والميادين .. ومن ثم اختار « لورنس » لنفسه ، فى غضون عام ١٩٢٩ ، شاطىء الريفييرا مستقرا ، ومنزلا للوحى !

وفى هذا الشاطىء السحرى ، الذى تمتزج لازوردية أمواهه بسندسيةمروجه الحالمة ، هدته لماحيته الذهنية الى مطلب عقلى جديد ، هو دراسة الجمال والفن ، والخير والشر ، والوجود والعدم ، والمنشأ والمصير .. وخرج بعد عام من تلك الدراسة المجهدة ، بهذا الرأى الاخير : « ان هناك عالما وراء عالم الخير والشر الظاهر لحواسنا .. انه عالم وجودنا الذى نحسه بكل مشاعرنا ونوابضنا .. عالم أبدى تتلاقى فيه الروح بالجسد على وفاق ومصالحة ! وفى هذا العالم ، نستطيع أن تحس – لو عشت فيه – أنك شىء كامل حقا ، وأنك حقيق بأن تحب هذا الشىء لتفهمه على حقيقته ، كما أن من حاول أن يفهمه على صورته الحقيقية المتكاملة ، حقيق بأن يحبه . ذلك أن الحب والفهم وجهان متقابلان لشىء واحد ، لا وجود لأحدهما بغير الآخر ! »

والحق أن هذا الجهد الذهنى الاخير كان قمينا بأن ينهك لورنس الى حد ملحوظ ، وأن يتحيف من قوى المقاومة فى جسده الذى تعب وشاخ ، فلا يهل عليه ربيع عام ١٩٣٠ حتى يصاب بنزلة صدرية حادة ، لا يلبث على أثرها أن يلفظ أنفاسه الاخيرة

.. كان ذلك فى ليلة الثانى من شهر مارس عام ١٩٣٠

شركة مصر للطيران

تستخدم طائرات

ڤايكونت



ذات ٤ محركات توربينية

أسرع وأحدث طائرات فى العالم

انتاج شركة

رولز رويس

الاسكندرية . بورسعيد . مرسى مطروح . الاقصر .
اسوان . الخرطوم . بورسودان . جده . اسمرة .
عدن . بغداد . الكويت . دمشق . بيروت .
القدس . قبرص . بنغازى . طرابلس . تونس .


PROBLEMES DE
L'ADOLESCENCE
PAR
Dr. JULIETTE BOUTONIER
مدرسة الوالدين
للباحثة الفرنسية الدكتورة جوليت بوتونييه
مشاكل المراهقة!

.. لكى لا يشقوا فى حياتهم !

◆ اذا كان للآباء أن يمسكوا أنفاسهم ، خوفا على أبنائهم فى فترات معينة من حيـاتهم ، فان فترة البلوغ والمـراهقة هى أحق تلك الفترات بالخشية ، وأجـدرها بالعناية ، وأوجبها لتتبع انفعالات الابناء ، ومحاولة الجنوح بها الى شواطىء هادئة لا مد فيها ولا جـزر ، حتى تمضى الى غايتها لينة رفيقة ، ولا تخلف وراءها ندوبا قد تجلب وبالا كثيرا على الابناء فى مستقبل حياتهم !

والبحث الذى أقدمه لك اليوم يتناول هذه الفترة الشاقة من حيـاة الانسان ، اذ يتناول مشاكل المـراهقة والبلوغ من الناحيتين النفسـية والمعنوية ، بالشرح والتحليل . وقد أثارت هذا البحث ، الدكتورة «جولييت بوتونييه » ، فى المحـاضرتين اللتين ألقتهما بكلية الطب بجامعة باريس ، وهما من المحاضرات التى نظمتهـا « مدرسة الوالدين » بجامعة فرنسـا الاولى ..

أدق مرحلة فى حياة الانسان !

◆ من الصعب أن نجد تعريفا لكلمة « البلوغ » ، لانه «حالة» أولا ، و «مرحلة» ثانيا . ولذا سنقصر بحثنا فى هذه المحاضرة على البلوغ من حيث هو « مرحلة » أو « فترة من الزمن » تسبق المراهقة وتعبد لها الطريق !

ومع ذلك فمن العسير أن نقيم حدا فاصلا واضحا بين هاتين المـرحلتين ، أو هاتين الفترتين : فترة البلوغ وفترة المراهقة . ولكننا نسـتطيع أن نعـرف البلوغ بأنه « نضوج الغدد التناسلية واكتساب معالم جنسية جـديدة تنتقل بالطفل من فترة الطفـولة الى فترة الانسان الراشد » .. فهى مرحلة تغير كلى شامل وليست أزمة فى النمو فحسب .. بل انهـا تحـول حقيقى كامل من الناحيتين الجسمية والنفسية أيضـا . وهى المرحلة الحسـاسة الفاصلة بين مرحلتين فى عمر الطفل ، والتى نلحظ عليه فى خلالها تغيرا عجيبا فى مظاهـر التكوين الجسمى ، يظل بعيدا عن الاتساق ، مجردا من الانسجام طوال هذه الفترة . غير أن المراهق الذى تتمخض عنه تلك المرحلة يغدو صورة للشاب الراشـد ، ولكنها صورة رقيقة مائعة .. فهى صورة راشد لم يتعرف على شخصيته بعد !

واذن فالبلوغ بالاجمال هو أشبه « بالجسر » الذى يؤمن عبور الطفـولة الى المراهقة التى هى المرحلة الاخيرة اللازمة لانتقال الطفل الى مرحلة الرشد الكامل

التطور العضوى أثناء البلوغ

◆ ويبدأ البلوغ من سن الثانية عشرة الى الرابعة عشرة - وقد يبدأ قبل ذلك - ويكتمل بين سن الرابعة عشرة والسادسة عشرة · وتتخلل هذه المرحلة فترات تختلف باختلاف الاشخاص والاجناس والاجواء · ولعل من الصواب أن نضيف الى ذلك ، ان هذه الفترات تتخللها تفاعلات نفسية وجسمية تختلف باختلاف الاشخاص أيضا والعلامات المادية التى يتميز بها البلوغ يمكن التعرف عليها بسهولة من الناحية الطبية (مثل ظهور الشعر تحت الابط ، وفوق العضو التناسلى ، والاحتلام عند الذكور ، وظهور الطمث (الحيض) عند الاناث)

هذا ويمكن - عن طريق الرسم البيانى - معرفة الدرجة التى يكون قد وصل اليها البلوغ من الناحية الجسمية ، وذلك طبقا للظواهر التى ذكرناها · ولكن اذا كان قد أمكن تحديد ذلك من الناحية الجسمية ، الا ان هذا التحديد غير ممكن من الناحية النفسية ، التى يصعب تحديد مراحلها تحديدا واضحا قاطعا ·

كيف نميز البلوغ من الناحية النفسية ؟

◆ يعتبر البلوغ من الناحية النفسية « ولادة جديدة » ، أى ظهور مخلوق اجتماعى جديد · وقد عرفت « ماريا مونتسورى » الشخص البالغ بأنه « مولود اجتماعى » · وفى الواقع ان البلوغ يعنى دخول الانسان البالغ فى حياة جديدة مستقلة عن أسرته ·· حياة قائمة على الاكتفاء الذاتى ، ومؤسسة على امكان تكوين البالغ أسرة جديدة ، وامكانه أن يصبح ربا لبيت مستقل !

فالبلوغ اذن هو بمثابة « فترة انتقال » تقود الراشد الى الاكتفاء الذاتى الكامل · ولكن هذه « الحالة » ، حالة البلوغ ، كشىء سائر فى طريق التكوين ، توجد البالغ فى موقف دقيق : فهو لم ينفصل بعد عن الماضى تماما ، ولم يكتمل نموه فى الحاضر ، ومن ثم يدفع به هذا الموقف الى معركة تحتدم بين الماضى والمستقبل · ومن هنا كانت سن البلوغ سن المصادمات والمتناقضات !!

وهنا نلفت النظر الى ثلاث ملاحظات :

١ - ان الفكرة الاساسية فى هذه المرحلة ليست هى رغبة البالغ فى أن يصبح « كبيرا » ، بل رغبته فى أن يصبح « حرا » ·· ومعنى أن يكون حرا هو أن يحيا حياة تختلف عن حياته الماضية ، أى أن يتحرر من قيود الاسرة ، وقيود النظم الاجتماعية ، التى كانت الى هذه اللحظة « مقبولة » ، وأن يسمح له بالبحث عن علاقات اجتماعية جديدة تكون وليدة اختياره هو ، أو يعتقد هو أنه حر فى اختيارها (مثل حرية اختيار أصدقائه ، ورؤيتهم ، والخروج معهم عند ما يرغب فى ذلك)



٢ – يظهر البالغ خلال هذه الفترة فى مظهر المعارض لوالديه – وهو الذى كان الى تلك اللحظة يقلدهم ! – وهذا يفسر رغبته فى « الاكتفاء الذاتى » الذى سبقت الاشارة اليه ٠ والبالغ يستشعر رغبة عجيبة فى العثور على « قدوة » جديدة تحل محل الأبوين ٠ فنراه يختار زميلا له فى سنه كقدوة ، أو مراهقا يكبره فى السن قليلا ، أو يتعلق بأحد أساتذته ، أو يعجب بأحد نجوم السينما أو أحد أبطال الحروب ٠٠ الخ ٠ وهو يتعشق هذه « المثل العليا » – فى نظره – بشىء من العناد يتعارض مع رغبته فى أن يصبح حرا ، لان تعشقه لهذه القدوة الجديدة ، أو لهذه النماذج الجديدة ، يجعله فى الواقع « عبدا » لها !

٣ – وفى الوقت نفسه تتضح رغبة البالغ فى تكوين علاقات جديدة لا يمكنه ، بحكم ظروفه ، أن يفكر فيها الا بصورة أفلاطونية ! ٠٠ فهو يتوق الى نوع آخر من « العلاقات » يختلف عن ذلك الذى تعوده فى الاسرة ٠ ولكن هذه «العلاقات» تظهر فى صورة عذرية « أفلاطونية » ، لان هذه هى الطريقة الوحيدة ، أو هو السلاح الوحيد الذى يتسلح به للخروج على طاعة والديه ورفض كل ما يذكره بهما ، وعدم قبولهما كمثل أو كقدوة ، أو الاصغاء الى نصائح الاسرة ٠٠ الخ

واذن فهى مرحلة « الخرق » ، أو الهوج ، التى لا ينفرد بالمرور فيها البالغ فى فترة الانتقال ، بل تجتازها الامم أيضا فى تطوراتها الاجتماعية وقفزاتها الصناعية ٠٠ ففى الوقت الذى يدعى فيه المراهق أو البالغ أنه يريد أن يتحرر من بعض القيود الاجتماعية التى كان عبدا لها فى الماضى ، اذا به يقيد نفسه بقيود جديدة ، ولكنها تختلف عن القيود الاولى فى أنه هو نفسه الذى يبحث عنها ، فاذا ما وجدها لذ له أن يرسف فى أغلالها !

البلوغ ٠٠ من الناحية النفسية

١ – الذكاء :

يتميز البلوغ بظاهرة بالغة الاهمية ، وهى استقرار المستوى العقلى للانسان بصفة نهائية ٠ ومن المؤكد أن الانسان يستمر بعد ذلك محتفظا بقدرته على الاستزادة من المعلومات ، ولكن المستوى العقلى الذى يصل اليه بعد انتهاء مرحلة البلوغ ، هو المستوى النهائى الذى لن يتعداه بعد ذلك ، مهما تتقدم به السنون ٠٠ فالبلوغ من هذه الزاوية هو اذن خاتمة لمرحلة تطوره كلها !

ومن الخطأ أن نعتقد أن نقصا عقليا فى الطفل يمكن اصلاحه أثناء البلوغ أو بعده ، لانه أثناء اجتيازه هذه الفترة وعند انتهائها ، لا يمكن زيادة حصيلة البالغ من الذكاء أو رفع مستواه العقلى مطلقا . ومن ثم فالواجب يحتم علينا أن نحاول رفع مستواه العقلى « قبل » حلول هذه الفترة ، حيث يكون العلاج ممكنا ، وليس بعد انقضائها ، حيث يكون العلاج متعذرا !

وللانسان البالغ ، الامكانيات العقلية نفسها التى للراشد من حيث المبدأ . كل ما هنالك أن الطفل ، عند ما يصل الى هذه المرحلة ، تنقصه الاختبارات والتجارب التى يكون الراشد قد اكتسبها مع مرور الزمن . فالبالغ لم يتعرف بعد من الناحية العملية على الطرق التى سار فيها الراشد قبله فأكسبته خبرة ومرانا . ولذا فان عامل الزمن هو الذى ينقص البالغ فقط . أما الامكانيات العقلية فواحدة عند الاثنين

ولعل أهم ما يتميز به البالغ ، أنه عند ما يحاول استخدام ذكائه نرى أن « منطق العواطف » هو الغالب عليه . وهذا المنطق يلعب الدور الرئيسى فى حياته العقلية ..

٢ - الحساسية :

يسبب « التحرر العاطفى » أثناء البلوغ أزمة لها خطورتها . وأزمة البلوغ لا تعدو أن تكون « أزمة أخلاق » قد تطول أو تقصر ، وقد تظهر بوضوح أو تكون مشوبة بالغموض ! .. وفى الغالب نرى البالغ فى هذه الفترة وقد بدأ يخفى مشاعره عن أبويه ، ويصبح « لغزا » بالنسبة لهما ، كما أنه يصبح خجولا حييا . وهذا التحفظ ، والانطواء على النفس ، انما مرجعهما الى السلبية البادية فى تصرفات الاسرة ، تلك السلبية التى تجعلها لا تحيطه علما بالمسائل الجنسية التى كثيرا ما يسائل نفسه عنها دون أن يجد لها جوابا شافيا !

.. هذا الاحساس الذى يشبه الحياء عند البالغ ، انما هو حياء منه ازاء أسرته فقط ، لانه فى الوقت الذى يستحى فيه من مفاتحتها فى الامور الجنسية، نراه لا يتحرج من أن يفاتح فيها ، أو يبوح بها ، لآخرين من غير أفراد أسرته ! .. فانه لأسهل على البالغ أن يبوح بأسراره للاصدقاء .. ومن هنا تبدأ الصداقة فى الظهور فى محيط حياته ، ويبدأ ظهور « الحب » فى صورة غالبا ما تكون عنيفة فوارة !

ومن المؤكد أن صداقات متينة تنشأ قبل هذه السن ، ولكن الصداقة التى تولد فى سن البلوغ تتميز بطابع خاص يمكن أن يقال عنه انه « طابع جنسى » ، بالرغم من عدم وجود ميل جنسى واضح فيها !

وسن البلوغ هى سن الصداقات المشوبة بالغيرة « الاستيلائية » المغالية . ومن هنا كانت صلة هذا النوع من الصداقة « بالحب » ! .. وهذا الحب قد يكون



مطلق العنان بغير ضابط ، لا يعبأ بجنس الطرف الآخر . فقد يحب البالغ ذكرا أو أنثى ، أو يكون من النوع الذى يولع بالذكر !.. وقد لا تكون الفكرة الجنسية أو الحاسة الجنسية موجودة فى ذهنه أو قائمة فى مخيلته ، الا ان هذا لا يمنع تلك الحاسة من أن تشتعل ذلك الاشتعال الملثم الغامض !

ولعل هذا النوع من الصداقات العاطفية أكثر ذيوعا عند طلبة الاقسام الداخلية فى المدارس . وهو على العموم كثير الانتشار بين طلبة المدارس عامة ، حيث يعم التعلق بالزملاء أو بالاساتذة تعلقا يشبه العبادة ، قد يسر به البالغ الى أبويه ، ولكنه يفضل فى الغالب أن يسر به الى أصدقائه الذين من سنه !

والتعلق بالرئيس هو حاجة تولد بشكل طبيعى للغاية فى نفسية البالغ فى تلك الفترة . وفى بعض المجتمعات (كالمجتمعات الفاشية) لوحظ ميل الشباب واندفاعه فى تلك الفترة الى التعلق بالرئيس تعلقا عنيفا ، وقد استغلت تلك المجتمعات هذه العاطفة لتدفع الشباب الى حب الرئيس والتطلع اليه بعين الاجلال والتقديس !

والبحث عن المثل الاعلى هو أساس هذه الظاهرة . ومن النادر الا يختار المراهق بطلا من الابطال ليتخذ منه مثلا أعلى . وهو يبحث فى مثله الاعلى عن الصفات المطلقة ، أو الخارقة ، بغض النظر عن كون هذه الصفات حسنة أم رديئة ، ما دام هذا المثل الاعلى يمتاز بالعظمة والسمو على غيره من الناس .. وقد قال « كلوديل » : « ان الشباب هو سن البطولة » .. ولهذا ينبغى أن نراقب تلك الميول الرفيعة السامية التى تتميز بها هذه المرحلة من حياة الطفل ، وذلك لأن هذه الميول المثالية ليس من الحتم أن تكون نهائية غير قابلة للتغير ، ولو أنها ناتجة ومتولدة عن حاجة الطفل اليها وتعلقه بها فى تلك الفترة من حياته

وكثيرا ما تخطر فكرة الموت على ذهن المراهق فى هذه المرحلة . وهو يستعرضها بشىء من عدم الاكتراث . ولهذا الاحساس علاقة بما يتطلبه المراهق فى مثله الاعلى ، فهو يتطلب منه شيئا مطلقا ، نهائيا ، يعلو عن مستوى الناس ، ولذلك فهو أقرب الى الموت منه الى الحياة !

الشباب الهتلرى يتحدى الموت !

◆ واستساغة طعم الموت فى هذه السن تتولد عند المراهق من الفكرة التى تستحوذ عليه وهى : أنه يرى منذ هذه اللحظة كل شيء وقد أصبح مقدرا عليه ، ومفصولا فيه .. واذن فما دام من غير الممكن تغيير أى شيء ، فما هى الفـائدة التى تعود عليه من الاستمرار فى الحياة ؟!

وقد كانت بطولة الشباب الهتلرى قائمة على أساس هذه العاطفة المزدوجة ، والطبيعية فى هذه السن وهى : استساغة طعم الموت وتحدى الموت فى آن واحد ! .. ومن هنا رأينا أطفالا يضحون بأنفسهم ويسيرون الى موت محقق ، فى سهولة وجرأة أكثر من التى كنا نراها عند الكبار !

أما الذى يخافه المراهق ويخشاه حقيقة ، بل ويرتعد من تصوره ، فهو : الشيخوخة ! .. اذ يستشعر هؤلاء الصغار كراهية وعداء للحياة التى يحياها من يكبرونهم فى السن ، وعلى الاخص الحياة التى يحياها آباؤهم .. ويخيل للمتأمل فيهم ان هناك تعارضا بين الحياة التى يرغبون هم فيها والحياة التى يحياها الآخرون .. لماذا ؟! .. لان البالغ وهو يجتاز فترة الانتقال ، يريد أن يسمح له فيها بكل شيء ، والا يشاركه أبواه فى هذه الاشياء المسموح له بها ! .. وهو يريد أن يتجاهل ما يحدث للآخرين وعند الآخرين ، وعلى الاخص أقاربه هو ، فى هذا المضمار الجديد أو الحياة الجديدة ، التى هو فى سبيل اكتشاف معالمها وغزوها ، وحده !.. ويعترى المراهق شعور غريب وهو احساسه بتقزز من جميع أنواع الحب التى يتبادلها أشخاص لا يكونون صغارا مثله ! .. ومرجع ذلك الى شعوره بذلك الضيق الذى هو نوع من الخجل ، أمام انفعالاته الجنسية الاولى !

ولرد الفعل الذى ينتاب البالغ عند اكتشافه الاول للنزعة الجنسية ، اتجاه مزدوج : فالبالغ يجتهد فى الهرب منها فى خيالاته وأحلامه ، ولكنه فى الوقت نفسه لا يستطيع تجنب الاهتمام بها ، لانه يجد نفسه مدفوعا بحكم الغريزة الى البحث عنها ! .. وهذه الحالة أو تلك ، يمكن أن تكون أكثر تسلطا عليه من الاخرى ، وكلما تغلبت المشاعر الجنسية على غيرها ، استحوذ عليه احساس بالخجل والذنب !

وتكوين البالغ يتم فى هذين الاتجاهين مجتمعين ، وهما : الخيال والحقيقة ، اللذان يظهران أمامه متناقضين . ومن ثم فعلى البالغ أن يتفهم وحدة ذاته الأساسية المكونة من هذين الاتجاهين ، وهذه هى الحقيقة العسيرة عليه والتى يواجهها بشيء من المقاومة !

كيف نواجه مشاكل المراهقة ؟

◆ قد يكون هناك تفسير آخر مقبول غير ذلك التفسير الذى يقدمه لنا علم

التحليل النفسى لهذا التناقض الداخلى فى نفس الطفل أثناء أزمة البلوغ ٠ الا ان التفسير الذى يقدمه لنا علم التحليل النفسى يمكن أن ينير أمامنا الطريق فى هذا الصدد :

ان فترة البلوغ تظهر كمرحلة أخيرة لتصفية «مركب أوديب» فى نفس الطفل ٠ و « مركب أوديب » هو اشتهاء الطفل جنسيا لابويه !! ٠٠ ذلك لانه ، فى فترة البلوغ ، يتبين للطفل بجلاء لا لبس فيه ، استحالة اشباع هذا الاشتهاء ٠ ومن ثم يتحتم عليه توجيه مشاعره خارج نطاق الاسرة ، للبحث عن « علاقات » مع آخرين ٠ وهذه الضرورة المزدوجة ـ ضرورة التنازل عن اشتهاء الوالدين من جهة ، وضرورة البحث عن علاقات جديدة خارج نطاق الاسرة من جهة أخرى ـ تنطوى على تطلع الى الحب ، ورغبة فى الوفاء والولاء للحبيب ، وتنطوى أيضا على التنازل عن الحنان الذى كان يستشعره فى أسرته من قبل ، والتدليل الذى كانت الاسرة تحيطه به ٠٠ هذا التدليل الذى كانت له عنده قيمة « جنسية » فى طفولته !٠٠ فنرى الطفل فى هذه المرحلة وقد اتجه الى « تحويل » مجرى مشاعره الجنسية من أبويه الى البحث عن حب مثالى خارج الاسرة ٠ وتحويل مشاعره الى الاتجاه الجديد ييسر انفصاله عن أسرته ، ويجعله قادرا على الحب خارج أسرته ، حبا يحاول دائما أن يظهره كأنه بعيد عن المشاعر الجنسية !

ومما لا شك فيه ان البحث عن المتعة الجنسية محظور على الطفل ! واذا كان عليه أن يتعود على حقائق جديدة الا انه يصل الى هذه الحقائق الجديدة عن طريق « الخيال » ٠٠ وكلما استعصى عليه تحقيق خيالاته وبلورتها الى حقيقة جنسية مادية واقعية ، ازداد خياله اشتعالا !

ومن الملاحظ ان الاطفال الذين يواجهون صعوبات عائلية (أى الذين يعانون من عقد نفسية لم تحل) يتعلقون بالآخرين تعلقا أشد من غيرهم وأكثر التهابا ٠٠ ويستوى فى هذا تعلقهم بالمثل العليا أو تعلقهم بالاشخاص ٠٠ وأصدق مثل لهؤلاء هم الايتام !

علاج التركز العاطفى عند البلوغ

◆ ما هو المسلك الذى يتخذ ازاء هذا التركز العاطفى عند البلوغ ؟

يجب اولا وقبل كل شىء أن نتجنب الوقوع فى عثرتين :

١ ـ اظهار عدم الاكتراث : فمن الخطر دائما أن نهزأ بطفل يحب ، وأن نهزأ به وبمشاعره ، برفضنا الاهتمام بتلك المشاعر وعدم حملها على محمل الجد ! ٠٠ أما العثرة الثانية فهى :

٢ ـ الاهتمام الزائد عن الحد : وهو نقيض عدم الاكتراث ٠٠ اذ من الخطر أيضا المبالغة فى الاهتمام بمشاعر الغلام العاطفية واشعاره بأن تلك المشاعر تنطوى على شىء ردىء قبيح ، لان هذا الاشعار قد يخلق فيه « الشعور بالذنب »

.. ونحب أن نفسر قليلا معنى « الشعور بالذنب » فنقول ان الطفل ، اذا أخفناه من تلك الانفعالات الجنسية الطبيعية ، فانه فى كل مرة يحسها - وهو لابد أن يحسها بحكم تقدمه الجسمي نحوالبلوغ - يشعر كأنه يرتكب ذنبا ويقترف وزرا ! ويلازمه هذا الاحساس بالذنب نحو كل ما يتعلق بالحب والحيـــاة الجنسية فى المستقبل . وفى هذا خطر جسيم يتهدد تطوره فى المستقبل ، كما يتهدد توجيهه الجنسى . وليس من طفل بلغ الا وأحس بميل الى «الشذوذ الجنسى» كما بينا من قبل ، عند ما تكلمنا عن « اشتهاء الطفل لابويه » .. فاذا نحن صـــورنا له انفعالاته الجنسية فى صورة بشعة ، فنحن بذلك نخاطر بأن نجعل الشـذوذ الجنسى العابر المؤقت شعورا مستديما لديه !.. كما اننا نخاطر بزعزعة الاتجاهات الروحية التى تظهر عنده فى فترة البلوغ !

وينبغى ألا نحاسب الطفل على كل كلمة يقولها . فقد تصدر منه عبارات لا يعنيها ، لانه لا يعرف مدلولها . فاذا نحن حاسبناه على كل كلمة يتفوه بها ، فقد نثبت فيه مشاعر خطرة قد تكون مؤقتة عابرة

على انه يجب أن نفهم جيدا انه اذا كان علينا ان لا نقاوم أحاسيسه الجنسية بصفة منتظمة ، فليس معنى ذلك أن نقف أمامها مكتوفى الايدى ونعتبرها أمرا مقضيا ، نافذا ، لا سبيل الى تغييره أو التغلب عليه ، لان هذا سـيعوقنا عن معاونته على التطور والنمو فى هذه الاحاسيس فى المستقبل . ومن ثم علينا أن نحترم هذا التطور ، اذ ان البلوغ مرحلة متجهة الى المستقبل القريب ، يصـل الانسان بعدها ، وعن طريقها ، الى مرتبة الراشدين .. فاذا خلا الطفل منأفكار تساوره عن هذا المستقبل ، كان هذا أمرا غير طبيعى ، لان الطبيعى هو العكس ، أى أن تضطرم فيه أفكار واتجاهات ، وان كانت فى الغالب أفكار واتجـاهات عابرة ، الا أنها تثبت أنه يعد نفسه ويجهزها لمستقبل يتخيله ويرسمه لها !

وأخيرا ، تظهر على الطفل فى هذه المرحلة رغبة فى التحرر والاستقلال ، وهو شعور طبيعى . وعلى الآباء أن ييسروا للطفل هذا التحرر قدر الاستطاعة ، لان الاخطاء التى ترتكب فى تربية الطفل أثناء مرحلة البلوغ تنتج تصرفات مرضية شاذة ، هذه أمثلة منها :

١ - السلبية :

◆ كثيرا ما نلاحظ ان بعض الاطفال ينطفئون فى سن البلوغ ، فيصبحون أقل مرحا ، ولا يضطرد نموهم اضطرادا حسنا .. ويكون هـذا عادة ملازما للصعوبة التى يستشعرها الطفل فى انفصاله عن بيئة الاسرة التى يرى أنهـا تبالغ فى حبه . ومن هنا لا يجرؤ على التحرر من أسرته ، مخافة أن يؤلم المحيطين به الذين يحبونه حبا جما . فهو مثلا يتوق الى الالتحاق بالكشـافة ، ولكن الكشافة تستلزم الغياب عن أبويه فى رحلات أثناء العطلات .. وهو يخشى أن

يؤلم ابويه اذا غاب عنهما فى تلك المناسبات ، فتكون النتيجة ان يعدل عن الالتحاق بالكشافة التى يتوق الى الانخراط فى سلكها ، ويستتبع ذلك أن يذوى ويذبل .. وعند ما يكبر فى المستقبل ، يرفض أن يترك أسرته لضرورات العمل الذى يواجهه فى الحياة ، أو لضرورات الزواج ! .. وهذا وضع غير طبيعى ما فى ذلك شك .. وتتمشى هذه السلبية مع الاهمال فى الاعمال التى يزاولها الطفل ..

والعلاج هو مساعدة الطفل على التحرر وتفهم وضعه كانسان له كيان مستقل. ومن الضرورى اعداده تدريجا لترك جو الاسرة ، ومساعدته على الانفصال عنها ، على أن لا يكون هذا الانفصال قطعا لصلاته بها

٢ ـ الانطواء على النفس :

قد ينطوى الطفل على نفسه فلا يستطيع احد ان يتصل به . ويكون السبب فى الغالب ، اما رغبته الطبيعية فى التحرر فى هذه السن ، أو عدم تفهم المحيطين به لمشاكله التى يعانيها ..

والعلاج هو محاولة اكتشاف أساس هذا الانطواء وسببه ، ومحاولة تفهم الطفل جيدا ومساعدته على اصطحاب الاشخاص الذين يستعذب عشرتهم ويمكن أن يأنس اليهم ويفضى اليهم بأسراره

٣ ـ العصيان :

كثيرا ما نلاحظ أن الطفل فى سن البلوغ لا يحتمل ولا يطاق ، سواء فى المدرسة أو البيت ، لعصيانه جميع الاوامر . فاذا أمعنا النظر فى هذا العصيان، رأينا انه رد فعل من جانب الطفل لطريقة معينة تتبع فى تربيته ..

وكثيرا ما تتبلور مثل الاطفال العليا فى أشخاص أساتذتهم . فاذا حدث هذا فان خضوعهم يكون أيسر .. ومما لا شك فيه أن هناك بعض أطفال فى حاجة الى أساليب جديدة فى تربيتهم ، تختلف عن الاساليب التى تتبع فى تربية الاطفال عامة . تبقى بعد ذلك حالة :

٤ ـ المتمرد السىء الخلق ، الخارج على المجتمع :

ويحسن هنا أن نلقى ضوءا على المشكلة المعنوية للبالغ .. فهناك نوعان من البالغين :

النوع الاول : وهو النوع الذى تظهر عليه بوادر الانحلال الخلقى قبل سن البلوغ . وهذه البوادر لا تظهر قبل هذه السن فى العادة ، بل ان ظهورها يكون فى سن البلوغ ذاتها ، ويكون تاما وعلى أكمل صورة . وظهور هذا الانحلال ان هو الا تعبير مادى عن نزعات شريرة كانت جاثمة فى قرارة نفسه قبل سن البلوغ ، فجاءت نزعات البلوغ الجنسية لتميط عنها اللثام !

النوع الثانى : هو النوع العاصى الذى يتعمد عمل كل شىء يضاد الاشياء التى يصنعها أبواه أو يصنعها الذين يعيشون فى بيئته . ولا يجب أن نعتبر هـذا النوع من العصيان انحلالا خلقيا كسابقه ، بل هو عصيان عابر ، الا اذا انخرط الطفل فى جماعة منحلة فاسدة تثبت فيه هذه الاخلاق السيئة

وهذا العصيان للبيئة والابوين ، وثيق الصلة بذلك الاحساس المتناقض الذى يستشعره الطفل ، والذى أشرنا اليه فيما سبق . ذاك لان الطفل يحس نفسه على عتبة الحياة مستعدا للاشتراك فى كل حقائقها ، ولكنه ما يلبث أن يرى أنه من المستحيل أن يشترك معه الآخرون فيها بطريقته التى يريدها ، كما انه من المستحيل عليه هو أن يشترك فيها على طريقة الآخرين !

وفى العدد القادم ، أقدم لك الجزء الثـانى من هذا البحث القيم وهو يعالج « مشاكل توجيه البالغين »

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمي

(التمثيلي... والغنائي)

عزيزى القارىء ..

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

• خطايا الحب : لاوسكار وايلد • نزاهة الحكم : جوجول • سلاح المرأة : أريستوفان • فولبون : بن جونسون • جيوكندا : دانونزيو • كلام الناس : جوزيه اشيجاراى • مدرسة الفضائح : شريدان • سيرانو دى برجراك : روستان • لعبة الحب والموت : رومان رولان • مروحة الليدى وندرمير : وايلد • فاوست : جيته • أوديب الملك : سوفوكل • فى سبيل الحب : جون درايدن • وليم تل : شيللر • الام : مكسيم جوركى • الملك يلهو : فيكتور هوجو • الجنس الآلى : كاريل كابيك • الابن الاكبر : جالزورثى • هرنانى : فيكتور هوجو • ترويض النمرة : شكسبير • الحياة نفاق : لويجى بيراندللو • اغلال الحب : ستيف باسير • المنافق (طرطوف) : موليير • بيت الليل : تيرى مونييه • علموهم الحب : روجيه فردينان • زوج مثالى : أوسكار وايلد • سالومى : اوسكار وايلد • مدرسة الارامل : جان كوكتو • برهان الحب • جان أنوى

واليوم ، أقدم لك هذه المسرحية الخالدة ، لبير كورنى


LE CID
Par
PIERRE
CORNEILLE
البطل
(لوسيد)
القصة التمثيلية الكلاسيكية
لأبي المسرح الفرنسي
پيير كورني

المؤلف

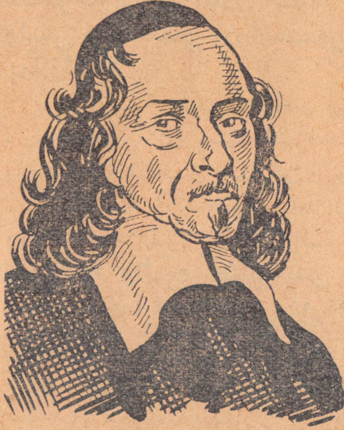
(١٦٠٦ ـ ١٦٨٤)

« بيير كورنى » هو أبو المسرح الفرنسى غير منازع .. فقد تناول المسرحيات الجامدة المتخلفة عن العصور الوسطى فبعث فيها أنفاس الحياة ! .. وقد بدأ محاولاته الاولى فى ميدان الكوميديا الهزلية ، فكتب من هذا اللون : (كليتاندر) ، (الأرملة) ، (الميدان الملكى) ، (التابعة) .. لكنه لم يصادف فى ميدان الملهاة النجاح المنشود ، فأدلى بدلوه فى ميدان المأساة بمسرحية عنوانها « ميديا » كتبها فى سنة ١٦٣٥ ، وقد ظفرت بالنجاح من أول لحظة .. ثم أعقبها فى العام التالى بمأساته الخالدة هذه : « السيد » ، (وكلمة « سيد » CID كلمة اسبانية معناها « البطل » ، لكنها تنطق هكذا بجميع اللغات ، كأسماء الأعلام) .. وهذه المسرحية من الدرامات الخالدة التى تعتبر بداية عهد جديد فى تاريخ المسرح ـ اذ كانت بمثابة البعث للتراجيديا الكلاسيكية الفرنسية ـ لكنها ، ككل جديد ، قوبلت من النقاد لدى ظهورها بموجة قاسية من النقد !.. بينما انبرى للدفاع عنها بحرارة ، من الناحية الاخرى ، فريق من الادباء وأهل الفن الذين يمثلون العناصر التقدمية .. وهكذا نشبت بين الفريقين بشأن المسرحية معركة حامية الوطيس ، سلاحها القلم واللسان .. فلما هدأ غبار المعركة برزت المسرحية لتحتل مكانها الخالد بين روائع المسرح الكلاسيكى الفرنسى ..

وقد كان « كورنى » يستهدف فى كتابة مآسيه هدفين ، أو بالاحرى هدفا مزدوجا : أن يرد للمسرح حيويته القديمة ، ويذكى الروح الوطنية فى بلده .. وقد أفلح فى بلوغ كلا الهدفين ، فجاءت مسرحياته أكثر حيوية من الحياة نفسها ، وشخصياتها أطيب خلقا وعنصرا من بنى البشر ! .. نساؤها يملكن خصائص الرجال ، ورجالها يملكن شجاعة الانسان الاسمى !.. وقد كان « كورنى » يعرف هذا « العيب » فى مسرحياته ، لكنه التمس لنفسه العذر برغبته فى ضرب المثل الخلقية السامية ، «فلكى تصلح الرجال وتجعل منهم أشخاصا أبرارا ، ينبغى أن تضرب لهم أمثلة أطيب من الطيبة ! »

والآن ، تعال معى نستمتع بمسرحيته الخالدة : « السيد » :

- ١ -



بيير كورنى

• **تبدأ** المسرحية فاذا نحن نعلم من الحـوار الذى يدور بين أشخاص الفصـل الأول ان الحسناء « شيمين » ، ابنـة الكونت « جوميز » ، مدلهة فى غرام الشـاب « رودريك » ، ابن النبيل « دييجو » .. فى الوقت الذى يعلق بحب رودريك قلب فتاة أخرى ، هى «أوراك» أميرة (كاستيل) - قسطلة - .. لكن هذه تعلم بمدى استحالة خلط دمهـا « الملكى » الازرق بدم فارس عادى «من الشعب» ! ومـن ثم فهى قـد قنعت بأن تقف موقف « المتفرجة » على المباراة المحتـدمة بين « شيمين » ومعشوقها «رودريك» .. بل انها تهمس الى مربيتها «لينورا» بالقول : « ان ارتباط حياتيهما سوف يثير فى شـعورا هو مزيج من الفرح والالم ! »

لكن الهوى الصادق المشـتعل فى قلبى كل من « شيمين » و « رودريك » لا يسير فوق أرض ممهدة ، فان هناك منافسة سياسية محتدمة بين أبويهما : فقد كان الكونت « جوميز » - والد الفتاة - فى مركز جعله يطمع فى ان يعين معلما خاصا لولى العهد ، فاذا المنصب يعطى لغريمه « دييجو » ! .. واذ احتدم الغيظ فى قلب الكونت جوميز لفوز خصمه بالمغنم الذى كان هو يحلم به ، عجز عن ان يملك زمام أعصـابه فصفع « دييجو » على وجهه ! .. وتحداه هذا للمبارزة .. **لكنه ابى - فى ترفع - ان يقبل النزال ، قائلا لخصمه : « انك أوهن**

شيخوخة من ان تنازل خصما عريقا فى حمل السيف مثلى ٠٠ وليس من شيمتى ان أشهر سيفى ضد خصم غير جدير بمنازلتى ! »

وينهار « دييجو » تحت وقر الاهانة ، فيناشد ابنه « رودريك » ان ينتقم لشرفه ٠٠ وهنا يجد الابن نفسه نهبا موزعا بين عاطفتين جبارتين : واجبه نحو أبيه ، وحبه لحسنائه « شيمين » ، ابنة عدو والده اللدود ! ٠٠ فنسمعه يحدث نفسه وقد مزقته الحيرة : « **ان الشرف يلهب قلبى ويغريه بالانتقام لأبى ٠٠ والهوى يشل يدى ويعوقها ٠٠ وسواء تبعت نداء الواحد منهما أو الآخر ، فان التعاسة تلاحقنى دون رحمة ! »**

★ ★ ★

◆ **غير ان** « حاسة » الشرف تتغلب فيه ، فى النهاية ٠٠ فيتحدى الكونت للمبارزة ، ويقتله ! ٠٠ لكنه ، نتيجة لهذه الفعلة ، يكسب كراهية « شيمين » له ، واستياء الملك منه ! فان الكونت كان محاربا قوى الشكيمة ، حرام ان يفقده الوطن فى مبارزة تافهة ٠٠ سيما وان المغاربة يهددون البلاد ، ولم يبق ـ بعد مصرع الكونت ـ ثمة قائد يأخذ مكانه فى القتال ضدهم ٠٠ ثم ها هى « شيمين » تتهم « رودريك » ، أمام الملك ، بقتل أبيها ٠٠ فانها هى الاخرى ، مثل رودريك ، قد أشعل قلبها احساسها بالواجب البنوى ٠ انها تشعر بحافز قوى يدفعها دفعا الى الانتقام لمصرع أبيها ٠٠ وهى تهتف بالملك : « العدالة يا مولاى ، العدالة ! فلتعاقب قحة هذا الغر المتهور ! »

لكن والد رودريك ـ دييجو ـ يهرع الى الملك ليلتمس منه الصفح عن ابنه : « **سامحه ، يا مولاى ، فانه انما انتقم لشرف أب أهين ! ٠٠ واذا كان ثمة من يستحق العقاب ، فهو أنا ٠٠ عاقبنى أنا ! فلئن كانت يد ابنى التى قتلت ، فقد كانت الارادة ارادتى ! »**

٠٠ لكن الملك يجيبه فى روية : « هذه مسألة خطيرة ، ينبغى ان أتشاور في شأنها مع مجلس وزرائى بكامل هيئته ٠٠ وايا كانت النتيجة ، فلا بد ان تأخذ العدالة مجراها ! »

- ٢ -

◆ **ويجىء** رودريك الى دار شيمين ليتلقى عقابه على يديها : « انه لأقسى عندى من الموت ان أعلم انها تمقتنى ٠٠ فلتقتلنى بيدها ، انتقاما لمصرع أبيها ،كما قتلتأنا أباها لأنتقم لأبى! »

وتصر شيمين ، بدورها ، على ان رودريك يجب ان يموت ٠٠ فان مذهب أهل (قسطلة) فى فهم مدلول الشرف يقتضى عينا بعين ، وسنا بسن ، وموتا بموت ! انها الآن تمقت رودريك ، لكنها مع ذلك لا تزال تحبـــه ٠٠ « ان حبيبى وعدوى ٠٠ شخص واحد ! »

ويناشدها رودريك :

رودريك : انى أهبك حياتى ، كفارة لذكرى أبيك !

شيمين : ان قوتى ينبغى أن تضـارع قوتك ٠٠ يجب أن أثبت - مثلك - شجاعتى فى الانتقام لأبى ٠٠ فاذا تركتك تعيش ، فسوف تكرهنى لجبنى ! وموتك وحده الذى أستطيع به ان أثبت جدارتى بحبك !

رودريك : انه لموت عذب، ذاك الذى يأتى من يدك العزيزة !

٠٠ لكنها لا تأنس من قلبها القدرة على ان تضرب حبيبها ، الضربة القاضية ! ٠٠ فتناشده مستضعفة : « امض فاختبىء من غضب الملك ، واتركنى لعارى ٠٠ فان حياتك لأغلى عندى من شرفى ! ٠٠ اذهب »

رودريك : ان حياتى ملك يمينك ، وسوف تنتهى بأمرك !

٠٠ ويتركها ، ولكن لا ليختبىء ٠٠ وانما ليضع نفسه - على العكس - على رأس الجيش الاسـبانى الذى يواجه غزو المغاربة ٠٠ انه سيأخذ مكان الكونت القتيل ٠٠ وانه لعلى استعداد لأن يلقى موتا كريما ، أو يحرز نصرا مجيدا !

- ٣ -

• **ويكلل** « رودريك » هامته بالنصر على المغاربة ٠٠ واذ يستدعيه الملك الى القصر ، يقف الشـــاب فى حضرته ليبرر اشتراكه فى المعركة دون اذن من الملك : « لقد أشفقت من ان أقود الجيش بغير علمك يا مولاى ، لكنى لم أجرؤ على ان آتى لأسألك موافقتك ٠٠ فلتغفر لى تهورى ، فلقد آثرت ان أموت فى الميدان ، فى خدمتك ، على ان أموت فى الســجن ، بينما رفاقى يحملون السلاح ! »

الملك : ان انقاذ وطننا لهو خير دفاع عن تصرفك ٠٠ ومنذ الآن ، خلعت عليك لقب « السيد » ، بطل (كاستيل) ٠٠ أما بصدد قتلك والد « شيمين » ، فقــد منحتك عنه عفــوا كاملا !

لــكن « شيمين » ليست راغبــة الآن فى الصفح ٠٠ فان احساسها بالشرف كما يفهمه أهل كاســتيل ، قد عاد فثلم حدة حبها ٠٠ فجاءت تناشـــــد الملك من جديد ان يجهز على رودريك !

الملك : يا طفلتى ، ان العدالة قد أخذت حقها ٠٠ فلقد كان والدك البادىء بالعــدوان ، وليس « رودريك » ٠ فلنعالج العدالة بالرحمة ٠٠ دعى رودريك يعيش !

شيمين : ما دام الملك لن يساعدنى على الانتقـام لشرفى ، فانى أناشـــد النبلاء أن يفعلوا ٠ فمن منكم ينازل رودريك نيابة عنى ؟ ٠٠ لسوف أتزوج الرجل الذى يأتينى برأسه !

الملك : لن أسمح باحياء هذه العادة العتيقة ٠٠ فانها قــد سلبت وطننا أقوى فرسانه ٠ وان حياة رودريك لأثمن من ان تترك فريسة لنزوة عابرة من نزوات القدر !

٠٠ عــلى ان والد رودريك ــ على العــكس ــ يعزز طلب « شيمين » ، ويشد من أزرها ٠٠ « ان العدالة تقتضى رودريك ان يدفع لها دينها ، فى ساحة الشرف ! »

الملك : ما دمت تطلب ذلك ، فليكن ما تطلبه ٠٠ من منكم يتصدى للأخذ بناصر هذه السيدة ؟

سانكو (أحد شبان الحاشية) : بحكم تهورى المشهود به ، أقدم على منازلة النبيل « سيد » ٠٠ **مخاطبا « شيمين » :** سيدتى ، انى اقاتل فى سبيل الفوز بجائزة جديرة بالصراع من أجلها ٠٠ فاذا خسرت ، فسوف أستقبل الموت مرحبا ٠٠ أما اذا ربحت ، فسآتى لأطالبك بالوفاء بما وعدت به !

الملك : أى رجل يربح الرهان ، سوف يظفر بيد السيدة !

- ٤ -

• **على ان** شيمين ما تزال نهبا لصراع رهيب بين واجبها ، وحبها !٠٠ وقد جاء رودريك يتزود منها بالوداع الاخير :

رودريك : سيدتى ، انى أمضى الى حتفى ٠٠ ولكنى قبل ان أموت ، أحييك !

شيمين : لماذا ينبغى ان تموت ؟

رودريك : كى أروى كراهيتك ، بحياتى ! ٠٠ ان بطلك الصنديد سوف يجدنى فريسة سهلة ٠٠ سأعرض نفسى لهجماته ، ولا أدافع عن حياتى ٠٠ فلسوف أحس ان يدك هى التى تقبض على سيف سانكو ، وتسدده !

شيمين : ذلك يكون جبنا منك ! ماذا !؟ أو تسمح لقاهر أبى بأن يقهره هذا الدعى العاجز ؟

رودريك : لقد أثبت شجاعتى بالفعل ، بقتالى للمغاربة ٠٠ وانى لعلى استعداد الآن لأن أثبت حبى ، بالموت من أجلك ٠٠ لقد فقدت حبك كى أنقذ شرفى ٠٠ وسوف أفقد الآن حياتى ، كى أسترد حبك !

شيمين : بل فلتعش ، يا رودريك ، وتنقذنى من أحضان « سانكو » ! ٠٠ اذهب فنازله ، كى تساعدنى على ان أفى بواجبى نحو أبى ٠٠ ولكن فلتحرص على ان تتصدى لغريمك

بدفاع ظافر ٠٠ وعندما تعود ، اذا كان قلبك ما يزال يخفق حبا لعزيزتك التعسة « شيمين » ، فمن يدرى ؟٠٠ هيـــا ، اغفر لى هذا الاعتراف المتضرج بالحياء ٠٠ واذهب !

رودريك : من يستطيع الآن أن يهـــزمنى ؟ هيا تعالوا يا فرسان (كاستيل) ، و (نافار) ، و (مراكش) ، يا زهرة الاسبان ٠٠ ان سيفى بمفرده سوف يغلب قوتكم مجتمعة !٠٠ سأسترد شرفى وحبى معا ، من جديد ٠٠ وســـوف احارب العالم أجمع ، وأنتصر ٠٠ من أجل حبيبتى « شيمين » !

- ٥ -

◆ **وتنتظر** « شيمين » فى لهفة وقلق نتيجة المبـــارزة ٠٠ « **ان فاز رودريك ، صرت زوجة لقـــاتل أبى !٠٠ وان فاز « سانكو » ، صرت زوجة لقاتل حبيبى !٠٠ ان انتصار أيهما سوف يجلب لى زوجا ملطخا بدم حبيب لدى !** »

٠٠ ويدخل « سانكو » ! لقد انتهت المبارزة ٠٠ ويقدم لها سيفه

شيمين : ماذا ! يقطر بدم حبيبى ؟ كيف تجـرؤ على ان ترينى وجهك ؟

سانكو : ولكن اصغى الى ، أتوسل اليك !

شيمين : كلا ، لن أصغى الى قصـــتك التى تتباهى بها عن جريمة قتل !

يدخل الملك ، ووالد رودريك :

شيمين : سيدى ، لن أخفى عواطفى بعد الآن ٠ لقـد كنت أحبه ! ٠٠ وها هو قد لقى حتفه ، قتل غيلة بأمر منى !

دييجو : الآن وقد كفت عن ان تخجل من حبها ، تحـدث اليها يا مولاى

الملك : ان رودريك لم يمت ٠ لقـــد جاءك « سانكو » بنبأ زائف !

سانكو : مولاى ، انها لم تدع لى فرصة للكلام ۰ لقد جئت لأقص عليها كيف ان النبيل « سيد » ، بعد ان انتزع سلاحى منى فى المبارزة ، تكرم باعادته الى فى شهامة ورجانى ان أضعه كغنيمة عند قدميها ۰۰

الملك : أى طفلتى ، لقد استرددت شرفك ، وآن لك أن تنعمى بحبك ۰۰

۰۰ وتدخل الأميرة ورودريك ۰ ان الاميرة ماتزال تعشقه !۰۰ والآن وقد ظفر بلقب « السيد » النبيل ، سقطت الحوائل الاجتماعية التى كانت تفصل بينهما ، فصار فى استطاعتها الزواج منه اذا أرادت !۰۰ ولكن ، مرة أخرى ، يتغلب وفاؤها لشيمين على حبها لرودريك ۰۰ فتجمع شمل الاثنين !

الاميرة : كفى عن البكاء أى شيمين ، وتقبلى هذا المحارب الباسل من يد أميرتك

شيمين (تبتسم لرودريك) : انى أتقبل الحكم الصادر لى ۰ انه أمر ملكى ، ينبغى أن أطيعه !

الملك : فلننتظر عاما قبل الزفاف ۰۰ فان الزمن يشفى من كل شىء ، ويطفىء كل أسى ۰۰ سوف تجفف شيمين دموع حزنها على أبيها ، وانت سوف تعصف بالمغاربة لتحقق مجد وطنك ۰۰ فليكن اسم « السيد » مصدر فزع للاعداء ، وحب شيمين الهاما ووحيا لأصدقائك ۰۰

رودريك : أشكر لجلالتك كلماتك الرقيقة ، ولسوف أفعل أقصى ما أستطيع كى أكون جديرا بها !۰۰ بذراع من حديد ، وقلب من لهب ، أقترن بحبيبتى ، وأظفر بالمجد لبلادى ۰۰

(ستار)

الحياة قصة



روائع القصص العالمي

عزيزى القارىء ..

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص : ◆ أموك : لستيفان زفايج ◆ قلب عذراء : جون جالزورثى ◆ مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى ◆ التلميذ : بول بورجيه ◆ أحدب نوتردام : فيكتور هوجو ◆ جريمة حب : بول بورجيه ◆ جين اير : شارلوت برونتى ◆ أيام بومباى الاخيرة : لورد ليتون ◆ مانون ليسكو : الاب بريفو ◆ حديقة الله : روبرت هتشنز ◆ عندما تحقد المرأة : جورج أونيه ◆ آسيا : ايفان تورجنيف ◆ كاس تمبرلين : سنكلير لويس ◆ الشيطان على الارض : برتراند رسل ◆ رسالة من مجهولة : ستيفان زفايج ◆ الحب الاول : تورجنيف ◆ تاييس : أناتول فرانس ◆ بلاد العميان : ه.ج. ويلز ◆ نادى الانتحار : روبرت لويس ستيفنسون ◆ كوخ العم توم : هاريت بيتسر ستو ◆ الزوج والعشيق : سومرست موم ◆ البوهيمية : هنرى مرجيه ◆ فتاة لها ماض : بول بورجيه ◆ شيرى : كوليت ◆ الجريمة والعقاب : دستويفسكى ◆ لحن كرويتزر : تولستوى ◆ أميرة مصر : جورج ايبرز ◆ الامطار : سومرست موم ◆ افروديت : بيير لويس ◆ جيجى : كوليت ◆ الشيطان فى الجسد : ريموند راديجيه ◆ ليبوريللا : ستيفان زفايج ◆ كانديد : فولتير ◆ أشجان فرتر : جيته ◆ فرانشسكا : موباسان ◆ لوريت : ألفريد دى فينى

واليوم ، أقدم لك قصة رائعة من قصص الكاتب الروسى « ن . جوجول »


THE OVERCOAT
BY
N. GOGOL
المعطف
للكاتب الروسي العظيم "ن . جوجول"

مؤلف .. « المعطف »

• كانت حياته مزيجا من المأساة و « الكوميديا » فى وقت واحد !.. فلقد بدأ الكتابة ولما يشب عن الطوق .. بدأ ولما يستكمل زاده من الثقة بالنفس ، فآثر ان ينشر انتاجه فى بادىء الأمر تحت أسماء مستعارة ، حتى اذا نجح ، أحس بأنه ابتعد عن الرسالة التى كان يؤهل نفسه ليؤديها لوطنه .. روسيا . وقد أصيبت عزيمته اصابة نجلاء ، حين اتهم بأنه حاد عن الدين !.. وحاول ان يتوب ، فوقع بين يدى راهب متهوس ، متعصب ، زاد الطين بله ، حين أوهمه بأن انتاجه الأدبى كان مجموعة من الخطايا !.. واستسلم لليأس والأسى ، حتى قضيا عليه ، ولما يتجاوز الثالثة والأربعين من عمره !

ذلك هو الكاتب الروسى الكبير « نيكولاى فاسيليفتش جوجول » ، الذى أقدم لك اليوم تحفته الرائعة : « المعطف »

وقصة المعطف من تلك القصص التى تختلط فيها الحكمة بالنكتة ، والمأساة بالنقد الساخر . وقد رسم فيها مؤلفها ، صورا مما رآه وعاش فيه بنفسه ، فى المكاتب الحكومية ، حين كان موظفا بها . كما رسم ، فى سخرية لاذعة ، ما كان عليه النظام الحكومى « البيروقراطى » بروسيا ، فى القرن التاسع عشر !

قصة الموظف الصغير !

• فى مصلحة « ... » .. ولكن ، يجمل بى أن لا أذكر اسم المصلحة ، فليس فى الدنيا من هو أكثر استعدادا للغضب من مصالح الحكومة أو أية هيئة رسمية فى الواقع .. اذ ان كل شخص ذى مركز ، يعتبر اليوم ان المجتمع بأسره يهان فى شخصه !

وعلى هذا ، ففى مصلحة ما ، كان ثمة كاتب حكومى .. كاتب لايمكن أن يقال عنه انه كان مبرزا ، أو جدممتاز .. كان قصيرا ، تناثرت البثور فى وجهه نوعا ما ، وأوتى شعرا يميل الى الاحمرار ، وعينين معتمتين ، كليلتين ، وقد توسطت رأسه بقعة صلعاء ، وقامت الى جانبى وجنتيه تجاعيد ، واكتسبت

بشرته ذلك اللون الذى يقترن بمرض « البواسير » ٠٠ وماكان ثمة مفر من ذلك ، فهكذا يفعل بالناس جو (بيترسبورج) !٠٠ أما عن درجته فى الحكومة ـ اذ ان « الدرجة » يجب ان تقدم فى الاعتبار على سواها ـ فقد كان كاتبا قضائيا « داخل الهيئة » ، وينتمى الى طبقة يحلو للكتاب الذين يستمرئون مهاجمة من لا يقوون على الدفاع عن أنفسهم ، أن يسلقـوها بسخريتهم وتحاملهم !

وكان لقب هذا الكاتب « باشماتشكين » ٠٠ ويبدو جليا ان هذا اللقب بالذات قد اقتبس من « باشماك » ، أى حذاء !٠٠ على انه من المتعذر ان نحدد متى ، وفى أية ظروف ، اقتبس هذا الاسم من « الحذاء » ٠٠ فقد كان كل من أبيه وجده ـ بل وزوج أخته ـ وكافة آل « باشماتشكين » بلا استثناء يلبسون أحذية تجدد نعالها مرتين أو ثلاث مرات فى العام ٠٠ أماسمه، فكان «أكاكى أكاكيفيتش» ٠٠ وقد يبدوهذا الاسمغريبا ،ولكن الظروف لم تكن لتدع مجالا لخلع اسم آخر عليه ٠٠ اذ انه ولد مع هبوط الليل ، فى الثالث والعشرين من مارس، وأعدت أمه ـ وكانت امرأة طيبة ، متزوجة من أحـد موظفى الحكومة الكتابيين ـ العدة لتعميده حين آن أوان ذلك ٠٠ وكانتما تزال ملازمة فراشها المواجه للباب ، بينما وقف الى يمينها اشبينه وأشبينته ٠ وعرضت على الام السعيدة ثلاثة أسماء لتختـار واحدا منها : موكى ، وسوسى ، واسم الشهيد هوزدازات ٠٠ ولكن السيدة المسكينة أعربت عن امتعاضها من هذه الاسماء ! ٠٠ ولكى يرضوها ، فتحوا التقويم عند صفحة أخرى ، فاذا الأسماء التى فيها هى : تريفيلى ، ودولا ، وفاراهاسى ٠٠ ولكنها لم تستملحها جميعا ، ففتحوا صفحة أخرى ، وجدوا فيها اسمين : بافسيكاهى وفاهتيسى ٠٠ فقالت الام : « أرى واضحا ان هذا حظه ٠٠ وما دام كذلك ، فمن الخير أن يسمى باسم أبيه ٠٠ ان أباه « أكاكى » ، فليكن الابن « اكاكى »

كذلك» !٠٠ وهـــكذا صار « أكاكى بن أكاكى » ٠٠ أكاكى اكاكيفيتش ٠٠

ولم يستطع أحد ان يذكر متى ، ولا منــذ أى أمد ، التحق بالمصلحة ، ولا من الذى أتاح له المنصب ٠ على ان كثيرا من المديرين وكبار الموظفين ، وفدوا وراحوا ، وهو يرى دائما ، فى نفس مكانه وفى الوضع ذاته ، قائما على الواجب الذى اعتاد القيام به ٠٠ فهو كما هو بالضبط ، كاتب ناسخ٠ ومن ثم فقد اعتادوا ان يجاهروا بأنه ولا بد قد ولد كاتبا ناسخا بكل هيئته والبقعة الصلعاء فى مقدمة رأسه !٠٠ ولم يكن أحد يوليه أى احترام فى المصلحة ٠٠ كان السعاة أبعد من أن يفكروا فى النهوض له اذا ما مر بهم ، ولا يحفلون به أكثر مما يحفلون بذبابة طارت عبر البهو ٠٠ وكان رؤساؤه يعاملونه بشىء من البرود المتعالى ٠٠ واعتـاد مساعد رئيس الكتبة أن يلقى بالأوراق تحت أنفه دون أن يقول شيئا ٠٠ولو: « انسخ هذه » ٠٠ أو «هاهى ذى قضية صغيرة مسلية » ٠٠ أو أية ملاحظة ملائمة من هذا النوع ، كما يحدث فى المصالح التى يراعى فيها الذوق !٠٠ وكان يتقبل كل هذا برضوخ تام، فلا ينظر الا الى الورق ، دون أن يتطلع ليرى من الذى وضعه أمامه ، ولا يحاول ان يتساءل ما اذا كان من حقه ان يضعه أمامه !٠٠ كان يأخذه ويبادر الى نسخه فقط ٠ أما الكتبة الشبان ، فكانوا يسخرون منه ، ويهزأون به الى أقصى مايوحى اليهم ذكاؤهم ككتبة ، ويروون أمامه كل أنواع القصص التى يلفقونها عنه ، كأن يقولوا عن صاحبة البيت الذى يقيم فيه ــ وهى عجوز فى السبعين ــ انها تضربه ٠٠ ويتساءلون متى يتم الزفاف !٠٠ وقد ينثرون على رأسه قصاصات من الورق يزعمون انها قطع من الجليد !

* * *

◆ على ان « اكاكى اكاكيفيتش » لم ينبس قط ببنت شفة ،



رجل .. وامرأة .. وحيوان ثالث !

لوحة للرسام « موريتو » ، بمتحف فيينا



« أبو للو » ، ومحبوبته « دافني »

تمثال للفنان « برنيني » بمتحف بورجيزي بروما

وانما كان يمضى فى عمله كما لو لم يكن هناك مخلوق سواه ٠٠ بل ان هذا التحامل لم يكن يؤثر فى عمله ٠٠ فما حدث أبدا أن أخطأ فى النسخ ، وسط كل هـــذه المعابثة ٠٠ حتى اذا تجاوزت السخرية الاحتمال ، وأخذ زملاؤه يهــزون ذراعه ليمنعوه من المضى فى عمله ، كان يقول : « دعونى وحالى ! ٠٠ لماذا تهينوننى ؟ » ٠٠ وكان ثمة شىء غريب فى كلماته وصوته ٠٠ كانت ثمة رنة تثير الاشفاق ، مما حدا بشاب جديد فى المكتب ـ كان قد حذا حذو الباقين وسمح لنفسه أن يهزأ به ـ الى ان يكف فجأة ، وكأنما طعن فى قلبه ! ٠٠ ومنذ الوقت الذى سمع فيه تلك الكلمات ، تغير كل شىء ، وبدا له « أكاكى » تحت ضوء جديد ، كما لو كانت هناك قوة غير طبيعية عزلته عن الرفاق الذين تعرف بهم وحسبهم مهذبين طيبى النشأة !٠٠ وظل طويلا بعد ذلك ، وشكل الكاتب الضئيل الجسم،المتواضع، ذى البقعة الصلعاء فى مقدمة رأسه ، يتمثل أمامه فى أشد لحظات المرح ، وصدى كلماته المثيرة للقلب يتردد : « دعونى وحالى ! ٠٠ لماذا تهينوننى ؟ » ٠٠ ومع هذه الكلمات المحركة للفؤاد ، كان يسمع كلمات أخرى : « اننى أخوكم » ٠٠ فكان الشاب المسكين يغطى وجهه براحتيه ٠٠ وكثيرا ماكان يرتجف، اذ يرى مدى تجرد بعض النفوس من الانســانية ، ومدى الوحشية البشعة التى تكمن خلف ستار المظهر البراق ، المثقف ٠٠ بل ـ ويالله ! ـ فى نفس الرجل الذى يعتبر فى الدنيــا مهذبا ، شريفا !

والواقع ، انه يكاد يكون من المتعذر العثور على رجل اعتاد أن يعيش بكيانه فى عمله كما كان يفعل « اكاكى اكاكيفيتش » ٠٠ فليس يكفى ان يوصف بأنه كان متحمسا لعمله ٠٠ لا ، بل انه كان يحب عمله ٠٠ كان يرى فيه ـ فى النسخ ـ دنيا خاصة به ذات ألوان متباينة تحلو له ! ٠٠ وكان يبدو عـلى أساريره أنه يستمتع به ٠٠ بل ان بعض الحروف كانت حبيبة

اليه ، فاذا ما التقى بها اغتبط ، وضحك فى نفسه ، وغمز بعينه، وحرك شفتيه ، حتى ليبدو كأن من الممكن أن يقرأ المرء فى وجهه كل حرف كان يخطه قلمه !٠٠ ولو ان المكافآت كانت تمنح بقدر تحمس المرء لعمله ، لكان من المحتمل - لدهشته - ان يجد نفسه مستشارا ٠٠ ولكن كل مكسبه فى الخدمة - كما كان زملاؤه الكتبة يعبرون فى فكاهة - تمثل فى زر نحاسى فى عروة سترته ، وألم فى ظهره !٠٠ على انه من التجنى أن يقال ان أحدا لم يفطن اليه ٠ بل ان مديرا طيب القلب ، تاق الى مكافأته على خدمته الطويلة ، فأرسل له عملا يزيد فى الأهمية بعض الشىء على مجرد النسخ ، وذلك بأن طلب اليه ان يعد - لادارة حكومية أخرى - تقريرا مأخوذا عن مذكرة جاهزة ٠ وكان العمل لا يعدو تغيير عناوين الفقرات ومواقعها ، واستبدال ضمير الغائب بضمير المتكلم ، فكبده هذا العمل من النصب ماجعل العرق يتصبب منه ، فما كان منه الا أن جفف جبهته فى النهاية ، وقال : « لا ٠٠ ان النسخ أفضل » !٠٠

ومن ذلك الحين تركوه يمارس النسخ الى الابد ، فكأنما كان لا يرى لأى شىء عدا النسخ وجودا فى الدنيا !٠٠ وكان لا يأبه لثيابه ، اذ كانت بزته ذات لون صدىء ، موحل ، وياقته جد قصيرة وضيقة ٠ ومع ان عنقه لم يكن طويلا الى حد غير عادى، الا انه كان يلوح ، اذ يبرز من ياقته ، كما لو كان فارع الطول ٠٠ وكانت تعلق ببزته على الدوام أشياء ٠٠ قطع من القش أو الخيط !٠٠ فضلا عن انه كان « يتفنن » فى المرور تحت النوافذ، فى عين اللحظات التى تلقى منها الفضلات الى الطريق ، ومن ثم كان يحمل على قبعته باستمرار قطعا من قشر البطيخ أو ما يماثلها ٠٠ وما لاحظ قط مرة فى حياته ما كان يحدث أو يجرى فى الطرقات ٠٠ كان اينما ولى نظره ، لا يرى سوى منسوخاته الواضحة وقد كتب على سطر وترك سطرا ٠٠

وما كان يفطن أبدا الى انه ليس فى وسط الكتابة ، وانما فى وسط الطريق ، الا حين كان يبرز فجأة ــ ومن حيث لا يدرى ــ رأس حصان فوق كتفه ، وترسل خياشيمه فيضا على خده !

وكان اذا بلغ داره جلس لفوره الى المائدة ، فتناول حساء العشاء بعجلة ، وأكل قطعة من اللحم وبصلة ٠٠ وما كان يشعر لهما بطعم على الاطلاق ٠٠ فاذا ما أحس بأن معدته بدأت تمتلىء ، نهض عن المائدة ، فأخرج محبرة وعكف على نقل ما جاء فى الاوراق التى حملها معه الى البيت ٠٠ فاذا لم يعد لديه ما يعمله ، انصرف الى نقل نسخة خاصة له ، لا سيما اذا كانت المذكرة ذات قيمة ، لا لأسلوبها ، وانما لانها موجهة الى شخصية جديدة أو ذات أهمية ٠٠

حتى فى تلك الساعات التى تظلم فيها سماء (بيترسبورج) المعتمة ، حين يكون جميع صغار الموظفين من سكانها قد تناولوا عشاءهم وملأوا بطونهم ، وحين يركنون جميعا الى الراحة بعد الفراغ من أعمالهم ، يحلو للرجل المفعم بالتحمس لعمله ان يتطوع لادائه بعد الوقت الرسمى ٠٠ أو يتسابقون الى تكريس ما تبقى من وقتهم للهو ، فيطير بعض المشغوفين منهم الى المسرح ، وبعضهم الى الطريق لينفقوا فراغهم فى تأمل قبعات النساء ، ويصرف بعضهم الامسية فى التودد الى فتاة فاتنة ، بينما يقتصر بعضهم ــ وهذا هو الاكثر حدوثا ــ على الذهاب الى مسكن زميل لهم فى الطابق الثالث أو الرابع ٠٠

٠٠ فى ذلك الوقت الذى ينتشر فيه الموظفون الكتابيون فى مساكن أصدقائهم ، يمارسون ألعاب الورق المغرية ، ويرشفون الشاى ، ويجتذبون أنفاس الدخان من غلايين طويلة ، متحدثين ــ أثناء تداول الورق ــ عن بعض الفضائح التى تسربت اليهم من الدوائر العليا ٠٠ وهى متعة لا يمكن لروسى أن يحرم نفسه منها بأى حال !٠

.. وبالاختصار ، حتى فى الوقت الذى كان كل امرىء ينشد فيه التسلية فى شوق ولهفة ، لم يكن « اكاكى اكاكيفيتش » يسمح لنفسه بتسلية ما .. فليس بوسع امرىء ان يقول انه رآه قط فى أية سهرة . فقد كان - بعد ان يعمل حتى يرضى نفسه - يأوى الى فراشه مبتسما اذ يفكر فى غده ، ويتساءل عما قد يرسله الله له لينسخه !.. وهكذا سارت الحياة الوادعة برجل عرف كيف يرضى بحظه ، ويهنأ بمرتب قدره أربعمائة روبل .. ولعلها كانت تظل ماضية به على هذا النسق حتى أرذل العمر ، لولا المصائب التى اعترضت طريق هذه الحياة .. لا حياة هذا الناسخ وحده ، بل حياة مجلس مستشارى الدولة ، والبلاط ذاته .. حتى أولئك الذين لا يقدمون النصح لأحد ولا يقبلون المشورة من أحد !

★ ★ ★

◆ ففى (بيترسبورج) ، عدو جبار لكل من يتلقى مرتبا قدره أربعمائة روبل ، أو ما يقرب من ذلك . وليس هذا العدو سوى « ريحنا » الجليدية الشمالية ، رغم ما يقال من انها جد مفيدة للصحة !.. ففيما بين الساعة الثامنة والساعة التاسعة من الصباح ، أى عين الساعة التى تزدحم فيها الطرقات بصغار الموظفين ، وهم فى طريقهم الى مكاتبهم ، تشرع الريح القر فى توجيه لسعات لاذعة حادة الى أنوفهم جميعا . وفى هذا الوقت الذى يعانى فيه الجميع - حتى كبار الموظفين - آلاما فى الجباه ودموعا فى الأعين من الصقيع ، كان صغار الموظفين ، المساكين ، يعجزون عن كل دفاع فى بعض الأحيان .. بل كان ملاذهم الأوحد ان يجروا بأسرع ما فى وسعهم ، خلال خمس طرقات أو ست ، فى معاطف نحيلة ، ضامرة ، بائسة ، ثم يدفئون أقدامهم فى غرفة حارس الباب ، حتى تنصهر كل مواهبهم ومؤهلاتهم لاداء واجباتهم المتباينة ، بعد ان تكون قد تجمدت فى الطريق ..

ولقد ظل « أكاكى أكاكيفيتش » فترة من الزمن يحس بالبرد فى ظهره وعند كتفيه بوجه خاص ، رغم انه كان يحاول ان يقطع المسافة بين مسكنه ومكتبه بأقصى ما كان يستطيع من سرعة . وخطر له أخيرا ان لا بد ان معطفه أصيب بعيوب فى هذه المواضع .. وبعد ان فحصه جيدا فى خلوة بمسكنه ، اكتشف انه أصبح عند الظهر والكتفين كالمنخل ، اذ بلى القماش حتى صار فى الوسع ارسال البصر خلاله ، كما تآكلت « البطانة » !.. والجدير بالذكر ،

ان معطف « أكاكى أكاكيفيتش » كان يستغل أيضا كمادة لدعابات الموظفين ، فقد جرد من اسم « المعطف » المشرف ، وأصبح يدعى « سترة النوم » !٠٠ والواقع انه كان عجيب الصنع ، تتناقص ياقته عاما بعد عام ، اذ كانت تستخدم فى ترقيع الأجزاء الاخرى ٠٠ ولم تكن الرقع مثالا لبراعة الحائك ، بل كانت تبدو قبيحة منكرة !

واذ اكتشف « أكاكى أكاكيفيتش » عيـــوب معطفه ، قرر ان يحمـله الى « بتروفيتش » ٠٠ وكان حائكا ذا عين واحدة ، ووجه شوهه الجدرى ، الا انه كان موفقا فى اصـلاح السراويل والمعاطف ٠٠ هذا اذا كان فى صـحوة من الخمر ، ولا يشغل باله شاغل ! ٠٠ وقد كان خادما بالسخرة لدى أحد السادة، ثم نال حريته وأخذ يسرف فى الشراب أيام العطلات ٠٠ وكان فى ذلك وفيـا لعادات آبائه وأجداده !٠٠ كما كان اذا تشاجر مع زوجتـــه ، يدعوها « امرأة دنيوية ٠٠ ألمانية » !٠٠ وكان من الواضح ان ليس لها أن تزهو بأى جمال ٠٠ وكيفما كان الحال ، فما كان ليتفرس فى وجهها سوى جنود الحرس حين كانوا يلتقون بها ، فيفتلون شواربهم ، ويحبسون الهواء فى أشـداقهم ثم يرسلونه فى صوت منكر ٠٠

★ ★ ★

◆ وفيما كان « أكاكى اكاكيفيتش » يصعد الســـلم المفضى الى مسكن « بيتروفيتش » ، أخذ يفكر فيما عسى ان يطلبه « بيتروفيتش » من أجر ، وعقد العزم فى نفسه على ان لا يعطيه أكثر من روبلين ٠ وكان الباب مفتوحا ، اذ كانت زوجة بيتروفيتش تطهى بعض السمك وقد ملأت المطبخ بالدخان ٠ واجتاز « أكاكى أكاكيفيتش » الباب دون ان تفطن اليه المرأة الطيبة ، وســـار حتى انتهى الى غرفة رأى بيتروفيتش يجلس فيها الى منضة خشبية كبيرة غير مكسوة بطلاء ، وقد ثنى ساقيه تحته كما يفعل أى « باشا » تركى !٠٠ وكانت قـدماه حافيتين ، على عادة الحائكين اذا ما جلســوا يعملون ٠ وكان أول ما لفت نظر « أكاكى أكاكيفيتش » الأصـبع الكبير فى كل ، اذ كان له ظفر شــائه فى سمك ومتانة ظهر السلحفاة ٠٠ وحول عنق بيتروفيتش كانت ثمة لفافة من حرير وأخرى من خيط ، بينما كانت على ركبته قطعة من قماش ٠٠ وكان قـد أمضى الدقائق الثلاث الاخيرة يحاول أن يولج خيطا فى ثقب ابرة دون ان بفلح ، ومن ثم فقـد كان ساخطا على الظلام وعلى الخيط نفســه ٠٠ فاستاء « أكاكى أكاكيفيتش » لانه جاء فى اللحظة التى كان بيتروفيتش فيها متضايقا ، اذ كان يود ان يوجه اليه طلبه عندما يكون « مبسوطا » بعض الشىء ، أو ـ على حـد تعبير زوجته ـ حين يكون قد « قوى نفسه بالشراب ٠٠ ذلك الشيطان الأعور ! » ٠٠ ففى تلك الحال ، كان « بيتروفيتش » على اســتعداد دائما لأن يتساهل

ويقبل ، بل كان ينحنى ويشكره ٠٠ ومن الصحيح ان زوجته كانت لا تلبث ـ بعد ذلك ـ ان تقبل معولة تشكو من ان زوجها كان ثملا فحدد أجرا جد بسيط ، ولكن اضافة قطعة من ذات العشرة كوبكات كانت كفيلة بتسوية الموقف ٠٠

أما فى هذه المناسبة ، فكان « بيتروفيتش » يقظ الوعى ، ومن ثم كان موجز العبارة ، غير ميال للمساومة ٠٠ وقد لاحظ « آكاكى آكاكيفيتش » ذلك ، وحاول ان ينسحب ، لولا ان بيتروفيتش كان يسدد عينه الوحيدة نحوه فى انتباه ، فقال على الرغم منه : « نهارك سعيد يابيتروفيتش » ٠٠ ورد بيتروفيتش : « سعد يومك يا سيدى » ، ثم تفرس فى يد « أكاكى أكاكيفيتش » ليرى ما كان يحمل اليه ٠

ـ ها أنذا قد جئتك يا بيتروفيتش ٠٠ فأنت تعرف ٠٠

وخليق بنا ان نلاحظ ان أكاكى أكاكيفيتش كان غالبا ما يعبر عما فى نفسه باعتذارات ، وعبارات مبهمة ، وكلمات لا معنى لها ٠٠ أما اذا كان الموضوع عسيرا ، فانه كان يترك جملة ناقصة فى أكثر الأحيان !

وقال أكاكى بعد ان كان بيتروفيتش قد ألم بعينه الوحيدة بكل تفصيلات سترته ٠٠ تلك السترة التى كانت مألوفة لديه ، اذ كانت من صنع يديه ٠٠ ولكنها عادة الحائكين ، ما يكادون يلقون امرءا حتى يتفرسوا فى ثيابه أولا ٠٠ قال أكاكى :

ـ المسألة يا بيتروفيتش ٠٠ المعطف ٠٠ القماش ٠٠ انظر ، انه ما زال متينا فى كل جزء آخر ٠٠ انه مغبر قليلا ، ويبدو كما لو كان قديما ، ولكنه جديد ، وكل ما هناك انه فى هذا المكان فقط ٠٠ شىء بسيط ٠٠ عند الظهر ٠٠ أوشك ان يبلى قليلا عند احدى الكتفين ٠٠ وعند هذه الكتف أيضا ٠٠ قليلا ٠٠ هل ترى ؟ ٠٠ هذا كل ما هنالك ٠٠ وهو لا يحتاج لعمل كثير ٠٠

وتناول بيتروفيتش المعطف فبسطه على المائدة وفحصه طويلا ، ثم هز رأسه ، ومد يده الى النافذة فتناول علبة سعوط مستديرة ، دس قبضة منها فى أنفه ، وقال فى النهاية :

ـ لا ٠٠ لا يمكن اصلاحه ٠٠ انه مهلهل ٠٠

فغاص قلب « أكاكى أكاكيفيتش » لهذه الكلمات وقال فى صوت يشبه صوت الطفل الضارع : « لم لا يا بيتروفيتش ؟ ٠٠ ان كل ما فيه هو انه بلى عند الكتفين ٠٠ وعندك قطع ٠٠ »

ـ أجل ٠٠ من الممكن العثور على قطع لترقيعه ، ولكن لا سبيل الى رتقه بها ، لان القماش قد بلى تماما ، فاذا غرست فيه الابرة تداعى لها ٠٠ ليس هناك ما أحيك عليه الرقعة ٠٠ ليس هناك ما تعلق به ٠٠ انه لم يعد يستحق

ان يسمى قماشـــا .. انه ليطير عنك اذا هبت نسمة .. لا .. انه لم يعـد يصلح لشىء ، وخليق بك اذا ما جاء الشـــتاء القارس ان تصنع منـــه لفافات لساقيك ، اذ ان الجوارب لا تحدث دفئا ، وانما اخترعها الالمان ليبتزوا بهـا الأموال !

وكان بيتروفيتش مولعا بأن يسخر من الالمان فى كل مناسبة !.. وما لبث ان اضاف : « ان عليك ان تحصل على معطف جديد »

ونزلت على عينى أكاكى أكاكيفيتش غشاوة عند ذكر كلمـة « جديد » ، فلاح له ان كل شىء فى الغرفة قـد أحيط بغمامة مهـتزة .. وما لبث ان تمتم وكأنه يحلم : « معطف جديد .. كيف ؟! .. لست أملك نقودا لابتياعه ؟ »

فردد بيتروفيتش فى خشونة : « أجل .. معطف جديد »

ـ واذا أردت الحصول على واحد جديد ، فكم .. ؟

ـ تعنى كم يساوى ؟ .. ثلاث ورقات مالية من فئـــة خمسين روبلا .. أو أكثر ..

وضغط شفتيه محاولا تصوير معنى قوله .. فقد كان شغوفا بتأكيد ما يرمى اليه ، وباثارة الانزعاج الفجائى فى نفس محدثه ، حتى يستطيع ان يرمقه من طرف خفى ليرقب على وجهه الأثر الذى أحدثه ..

وصرخ « أكاكى أكاكيفيتش » المسكين : « مائة وخمسـون « روبلا » من أجل معطف ! » .. ولعلها كانت أول مرة فى حياته يصرخ ، اذ كان معـروفا دائما برقة صوته .

وقال بيتروفيتش : « أجـــل ، بل قد يقتضى الأمر أكثر من ذلك .. فلو كانت الياقة من الفراء ، واضفت قلنسوة ذات بطانة حريرية ، لارتفع المبلغ الى مائتين »

قال « أكاكى أكاكيفيتش » فى لهجة ضارعة : « أرجوك يا بيتروفيتش .. أصلحه بطريقة ما ، حتى يطول عمره قليلا »

ـ لا ، فهذا مضيعة للجهد وللنقود !

★ ★ ★

◆ وخرج « أكاكى أكاكيفيتش » محطما تماما .. حتى اذا وصل الى الشارع ، مضى كالحالم وهو يحدث نفســه : « اذن ، فالامر هكذا .. ما فـكرت فى ان يكون هكذا .. » .. وأخذ يردد هذه الكلمات لنفسه ، وهو مشتت الفكر ، حتى انه سار فى اتجاه مضاد لطريق بيته .. وهوى على رأسه بعض الملاط من مبنى يقام ، فلم يحس به .. ولم يفطن الى نفسه الا حين أوشك ان يصطدم بحارس انتحى جانبا لينشق بعض الســعوط .. وأيقظته زمجرة الحارس ، فتلفت حوله ، ثم استدار وسار فى اتجاه بيته .. وهنـاك ، بدأ يجمع شتات

فكره ، ويستعرض موقفه على حقيقته ٠٠ ولم يعد يحدث نفسه فى لوثة ، وانما فى روية وصراحة كما لو كانت صديقا يستطيع المرء ان يبحث معه المسائل الحيوية فى غير ما كلفه : « لا ٠٠ لا جدوى فى الواقع من الحديث الى بيتروفيتش الآن ٠٠ فهو الآن ٠٠ لا بد ان زوجته اذاقته ٠٠ يحسن ان أذهب اليه فى صباح الأحد ، فهو فى أعقاب سهرة السبت يكون مثقل الحواس ، وفى حاجة الى شيء من الخمر ٠٠ ولكن زوجته تأبى ان تعطيه دانقا ٠٠ اذ ذاك أدس فى يده قطعة من ذات العشرة كوبكات ، فيغدو أسلس قيادا ، وربما أخذ المعطف ٠٠ » !

واذ رأى عن كثب زوجة بيتروفيتش تغادر المنزل فى صباح الاحد ، مرق الى المسكن ٠٠ ووجد بيتروفيتش بالفعل ، لا يكاد يقوى على رفع رأسه من أثر سهرة السبت ٠٠ ومع ذلك فانه لم يكد يسمع ما جاء من أجله ، حتى بدا وكأنما نخسه الشيطان ، فقال : « لا أستطيع ٠٠ يجب ان تتفضل بطلب معطف جديد » ٠٠ وبادر « أكاكى أكاكيفيتش » فدس قطعة من فئة العشرة كوبكات فى يده ، أخذها بيتروفيتش قائلا : « أشكرك يا سيدى ، سأشرب كأسا فى صحتك ، ولكن لا تتعب نفسك بشأن المعطف ٠٠ انه لا يصلح لشيء ٠٠ سأصنع لك معطفا أنيقا جديدا ٠٠ صدقنى » ٠٠ ولم يأبه لاحتجاج « أكاكى أكاكيفيتش » بل استطرد : « اعتمد على فى ذلك ٠٠ سأبذل قصارى وسعى »

واذ ذاك أيقن « أكاكى أكاكيفيتش » ان لا مفر من معطف جديد ، فتملكه الغم ٠٠ كيف ؟ وبماذا ؟ ومن أين يحصل على النقود ؟ ٠٠ صحيح انه يستطيع ان يعتمد الى درجة ما على مكافأة العطلة القادمة ، ولكنه كان قد وزع هذا المبلغ وحدد أوجه الافادة منه مقدما ٠٠ كان بحاجة اليه ليبتاع « بنطلونا » جديدا ، وليسدد دينا قديما عليه للاسكافى ، كى يصنع له نعلين جديدين لحذاءين قديمين ، كما ان عليه ان يبتاع ثلاثة أقمصة ، وزوجا من ثوب داخلى لا يليق ذكر اسمه !٠٠ وحتى اذا تكرم المدير فجعل مكافأته خمسة وأربعين أو خمسين روبلا ـ بدلا من أربعين ـ فان الفرق ضئيل اذا قيس بالثروة التى يتطلبها معطف جديد ٠٠

على انه كان يعرف ان من عادة بيتروفيتش ان يغالى فى تقدير الاجر ٠٠ وانه لن يلبث ان يقبل صنع المعطف لقاء ثمانين روبلا ، ومع ذلك ، فانى له هذه الثمانين ؟٠٠ انه يستطيع أن يدبر نصف المبلغ ٠٠ وربما أكثر من النصف بقليل ٠٠ فقد كان من عادته ان يضع فى صندوق مقفل ذى فتحة فى اعلاه ، قطعتين من فئة «الكوبك» كلما أنفق روبلا ٠٠ وفى نهاية كل نصف سنة ، كان يحصى القطع النحاسية (الكوبكات) ، ويستبدل بها قطعا فضية صغيرة ٠ وقد ظل على هذا مدة طويلة ، حتى بلغت الحصيلة خلال السنوات العديدة أربعين روبلا ٠٠ فمن أين يأتى بالاربعين الثانية ؟

أخذ « اكاكى اكاكيفيتش » يفكر ويطيل التفكير ، ثم قرر فى النهاية ان يخفض مصروفاته العادية ، لسنة على الاقل ، فيكف عن ايقاد الشموع بالليل .. واذا كان لديه عمل ففى وسعه ان يؤديه فى غرفة صاحبة المنزل وعلى ضوء شمعتها .. واذا سار فى الطريق خفف الوطأ بقدر المستطاع ، ليعيش نعلاه أمدا أطول .. كما قرر ان يقتصد فى ارسال ثيابه للغسيل ..

والحق انه وجد مشقة فى تعود هذه الالوان من الحرمان ، بيد انها لم تلبث بعد فترة ان أصبحت عادات سهلة ، وبات مألوفا لديه ان يقضى الليل جائعا ، مكتفيا بالغذاء الروحى ، الذى كان يتمثل فى ان يحقق معطفه المنتظر !.. بل لقد أصبح يشعر بأن كيانه اكتمل ، فكأنه تزوج ، وأصبح معه شخص آخر ، فلم يعد وحيدا ، وانما صار له رفيق يرتاح اليه ، ويسير معه فى الحياة يدا فى يد .. ولم يكن هذا الرفيق سوى المعطف ، بوبرته الكثيفة و « بطانته » المتينة !.. وغدا أكثر استمتاعا بالحياة ، وأقوى عزيمة ، كرجل حدد لنفسه هدفا يسعى اليه .. وأضحى التفكير فى موضوع المعطف يشغل باله على الدوام .. وكاد فى احدى المرات أن يخطىء وهو ينسخ احدى الوثائق ، فزمجر بصوت عال ، ورسم الصليب على صدره !.. وأخذ يذهب الى بيتروفيتش مرة فى الشهر على الاقل ، ليتحدث اليه عن المعطف .. عن القماش ، وعما ينبغى أن يكون عليه اللون ، وعن الثمن ، ثم يعود الى البيت والشوق يتحرك فى نفسه ، والغبطة تساوره ، اذ حان أخيرا الوقت لشراء كل مايلزم لصنع المعطف !

★ ★ ★

◆ وتطورت الامور بأسرع مما كان يترقب .. فان المدير منحه مكافأة لم تقل عن ستين روبلا ، الامر الذى أتاح له عشرين روبلا فوق ماكان يرجو .. ولم ينقض شهران أو ثلاثة من الصوم الجزئى الذى التزمه ، حتى كان قد اقتصد زهاء ثمانين روبلا ، فبدأ قلبه – الذى كان بطبعه هادئا – يدق ويخفق .. ثم انطلق وبيتروفيتش يطوفان بالمتاجر ، فابتاعا نوعا جيدا من القماش .. ونوعا متينا ورخيصا من «البطانة» .. وبدلا من فراء الدب ، ابتاعا خير أنواع فراء القط .. نوعا يبدو عن كثب كأنه فراء الدب !

وانهمك بيتروفيتش فى حياكة المعطف اسبوعين كاملين . وكان قد طلب اثنى عشر روبلا ، أجرا له ، وراح يبذل أقصى عناية فى « الصنعة » .. ومن العسير ان نحدد تحديدا دقيقا ، اليوم الذى حمل فيه بيتروفيتش المعطف الى صاحبه ، ولكنه كان ازهى أيام حياة « اكاكى اكاكيفيتش » ! .. كما كان من الايام السعيدة فى حياة الحائك . فقد أمسكه وألقاه على كتفى « اكاكى اكاكيفيتش » ، ثم ساعده على دس ذراعيه فى الكمين ، فبدا المعطف رائع الشكل .. بل بدا فى الواقع موفقا ، تام الكمال .. ولم يضيع بيتروفيتش الفرصة دون أن يطرى نفسه وبراعته !

وانطلق « اكاكى اكاكيفيتش » لفوره الى المصلحة فى المعطف الجديد ‥ وتبعه بيتروفيتش الى الطريق ، ثم وقف يتأمل المعطف عن كثب أمدا طويلا ، ثم تحول واندفع الى طريق جانبية ، ليعود الى الطريق الاصلية فى بقعة تسبق ماوصل اليه « أكاكى أكاكيفيتش » ويتأمل المعطف من أمام !‥ أما الآخر فمضى فى سبيله وكل جارحة فيه تنبض بالشعور الذى يتملكها فى أيام الاعياد ‥ كان يحس فى كل لحظة بأن على كتفيه معطفا جديدا ‥ بل انه ضحك عدة مرات بتأثير الرضى الذى كان يداخل نفسه ‥ ولم يفطن الى شىء فى الطريق ، حتى ألفى نفسه فجأة أمام المصلحة ‥ وفى غرفة البواب ، خلع المعطف الجديد ، وتأمله ، ثم أسلمه لرعاية البواب ‥

وليس بوسعى أن أصف ماحدث ، بيد ان كل امرىء فى المصلحة سرعان ماعرف ان « اكاكى اكاكيفيتش » حصل على معطف جديد ، وان « سترة النوم » لم يعد لها وجود ‥ فهرعوا جميعا الى غرفة البواب يتأملون معطف « اكاكى اكاكيفيتش » الجديد ، وشرعوا يحيونه ويهنئونه ، حتى انه لم يملك فى البداية سوى أن يبتسم ، ثم لم يلبث ان احس بخجل واستحياء ٠ وحين قالوا له ان عليه ان « يدشن » المعطف الجديد ، وانه يجدر به ان يقيم لهم حفلة عشاء على الاقل ، فقد « اكاكى اكاكيفيتش » عقله ، فلم يدرك ماينبغى ان يفعل ، ولا كيف يخرج من الورطة ، ولا بماذا يجيب !‥ وبعد بضع دقائق ، أخذ ـ وهو محتقن الوجه ـ يؤكد لهم ان الامر لايستحق كل ذلك !

وفجأة ، قال احد الموظفين ـ وكان فى الواقع مساعد رئيس الكتبة فى الغرفة : « فليكن ‥ سأقيم لكم الحفلة بدلا من « اكاكى اكاكيفتش » فأدعوكم الى تناول الشاى معى فى هذا المساء ، لاسيما وقد شاء الحظ ان يكون اليوم عيد تعميدى » !‥ ولعله فعل ذلك ليثبت لهم انه ليس متعجرفا ، بل فى وسعه ان يتواضع مع مرؤوسيه !!

ومن الطبيعى ان الكتبة هنأوا مساعد رئيس الكتبة وقبلوا الدعوة على الفور٠ اما « اكاكى اكاكيفيتش » ، فقد شرع يختلق المعاذير ‥ بيد انهم اعلنوا جميعا ان ليس من الذوق ان يعتذر ، وان من المخجل ان يرفض الدعوة ! ‥ على انه لم يلبث ـ فيما بعد ـ ان شعر بسرور لذلك ، اذ تذكر ان تلبية الدعوة ستمكنه من أن يخرج فى المساء أيضا وهو يرتدى معطفه الجديد ٠ لقد كان اليوم بأسره ابهى أيام حياة « اكاكى اكاكيفيتش » وأحفلها ، فعاد الى البيت فى أهنأ حال ، وخلع المعطف وعلقه بعناية على الحائط ، وأخذ يتأمل فى اعجاب القماش و « البطانة » مرة أخرى ، ثم تناول « سترة النوم » العتيقة ـ الذى أصبح اسمالا ممزقة ـ ليقارن بينهما ‥ وما ان نظر الى المعطف القديم حتى اغرق فى الضحك ، اذ كان الفارق بينهما هائلا !

وتناول عشاءه فى ابتهاج تام ، ولم يكتب بعده شيئا ، وانما استراح على السرير قليلا ، ثم نهض فارتدى ثيابه ، وفوقها معطفه ، وخرج الى الطريق ٠٠ وكان الموظف صاحب الدعوة يقيم فى أحسن أحياء المدينة ، وبالتالى على مسافة جد طويلة من « اكاكى اكاكيفيتش » !٠٠ فكان عليه ان يسلك فى البداية طرقا مهجورة ، واهنة الاضاءة ، حتى اذا اقترب من مقصده ، ازدادت الطرقات حركة ، وازدحاما بالناس ، وتألقا بالانوار ٠٠ وكانت العربات تروح وتغدو ٠٠ وأخذ «اكاكى اكاكيفيتش » ينظر الى كل هذا كما لو كانت عجائب طريفة ٠٠ فلقد ظل سنين كثيرة لا يخرج الى الطرقات فى المساء ٠٠ ووقف فى فضول أمام واجهة مضاءة بأحد المتاجر ، ليتأمل صورة لامرأة جميلة وهى تخلع حذاءها ، عارضة خلال ذلك ساقا بديعة الالتفاف ، بينما ظهر خلفها سيد ذو سوالف نامية ، وذقن امبراطورية انيقة ، وقد أطل برأسه خلال فرجة الباب ٠٠

وهز « اكاكى اكاكيفتش » رأسه وابتسم ، ثم واصل سيره ٠٠ ترى لماذا ابتسم ؟٠٠ الأنه رأى شيئا لم يألفه ، وان كان فى نفس كل رجل شعور غريزى فى هذا الصدد ٠٠ او لأنه قال لنفسه ما اعتاد كثيرون غيره من صغار الموظفين أن يقولوه : « لعمرى ! ٠٠ يالهؤلاء الفرنسيين !٠٠ انهم ليتجاوزون كل حد !»

★ ★ ★

◆ وبلغ أخيرا الدار التى كان مساعد رئيس الكتبة ينعم فيها بسكنى راقية ٠٠ وكان المسكن فى الطابق الثانى ٠ واذ ولج « اكاكى اكاكيفيتش » البهو ، رأى صفوفا من النعال ، وابريقا كبيرا للماء بأسفله مكان خاص للوقود ، وقد أخذ يرسل أزيزا وسحبا من البخار ٠٠ وعلى الجدران علقت معاطف وعباءات ، بعضها كسيت ياقاتها بفراء الدب الحقيقى أو بالمخمل ٠٠ وتناهت اليه من خلف الجدران جلبة ، ازدادت فجأة وضوحا ، اذ فتح الباب وبرز منه خادم يحمل صفحة حفلت بكوبات فارغة ، ووعاء للقشدة ، وسلة بها « بسكويت »٠٠ كان من الجلى ان زملاءه الكتبة وصلوا قبله بأمد طويل ، وقد فرغوا من احتساء الأكواب الأولى من الشاى ٠٠ وبعد أن علق « اكاكى اكاكيفيتش » معطفه بيديه ، دلف الى الغرفة ٠ واذ شاهد زملاءه ، والغلايين فى أفواههم ، وموائد لعب الورق ، وقف محرجا فى وسط الحجرة ، يتلفت حوله ، ويحاول أن يدبر ماينبغى ان يفعل ٠٠ على أنهم فطنوا الى وجوده ، فتلقوه فى صياح ، وخرجوا جميعا لفورهم الى الردهة ليلقوا نظرة أخرى على المعطف ٠ ومع ان « اكاكى اكاكيفيتش » كان مرتبكا بعض الشىء ، الا انه لسذاجة قلبه ، شعر بالابتهاج اذ رآهم جميعا يعجبون بمعطفه ٠ على انهم مالبثوا ان تحولوا عنه وعن معطفه الى موائد اللعب

.. كان كل هذا : الضجة ، والكلام،والناس ، غريبا على « اكاكى اكاكيفيتش» ومثيرا لدهشته .. ولم يدر كيف يتصرف .. ومالبث أخيرا ان جلس بجانب اللاعبين ، وأخذ يتأمل أوراق اللعب ، ويحدق فى الوجوه ، واحدا بعد الآخر . وان هى الا فترة وجيزة ، حتى شرع يتثاءب ، وشعر بالملل .. لا سيما وان الوقت كان قد تجاوز بكثير الموعد الذى اعتاد أن يأوى فيه الى فراشه . وحاول أن يستأذن فى الانصراف ، غير انهم لم يدعوه ، بل أصروا على أن يتناول كأسا من « الشمبانيا » تكريما للمعطف الجديد .. وان هى الا ساعة حتى مد العشاء ، وكان يتألف من سلاطة ، ولحم بارد ،وبعض الفطائر والحلوى،وشمبانيا..وحملوا « اكاكى اكاكيفيتش » على ان يحتسى كأسين ، شعر بعدهما بكل شىء يزداد بهجة، وان لم ينس ان الساعة بلغت الثانية عشرة ، وكان يجب ان يكون فى داره منذ وقت طويل . ولكى لا يصر مضيفه على استبقائه ، تسلل من الغرفة ، وخطف معطفه ـ الذى وجده للأسف واقعا على الارض ـ فنفض عنه الغبار ، وارتداه ، ثم هبط السلم الى الطريق .. وكان الضوء مايزال يسطع فى الطرقات، وبعض المتاجر العامة والمنتديات ماتزال مفتوحة ..

وسار « أكاكى أكاكيفيتش » وقد تملكته الغبطة ، حتى لقد هم أن يجرى ـ لسبب لا يعلمه الا الله ـ وراء سيدة مرت بجانبه فى سرعة البرق ، وكل جزء من جسمها يتحرك فى عنف . بيد انه كبح نفسه فجأة ، وواصل سيره فى اعتدال ، وهو فى دهشة من هذا الحافز الغريب الذى انتابه ! .. ومالبث ان أقبل على الطرقات المقفرة التى تبدو أبعد ما تكون عن البهجة بالنهار ، وأشد ماتكون كآبة بالليل .. كانت خالية ، كالاجساد الميتة ، ومصابيحها خافتة .. وكان ثمة بصيص من نور يلوح على بعد كبير ،منبعثا من كوخ لاحد الحراس ، بدا وكأنه أقيم فى أقصى الدنيا !.. وتضاءلت غبطة « اكاكى اكاكيفيتش » وابتهاجه فى هذا المكان .. وتقدم الى الميدان الذى انتهى اليه الطريق فى وجل، وكان قلبه قد أوجس شرا .. وتلفت خلفه والى جانبيه .. وخيل اليه ان البحر يحيط به ، فعول على ان لايبصر شيئا ، وسار مغمضا عينيه ، حتى اذا فتحهما ثانية ليتبين ما اذا كانت نهاية الميدان قد اقتربت ، رأى فجأة أمامه ، بل لصقه تقريبا ، رجالا ذوى شوارب ، لم يستطع ان يتبين ملامحهم .. فقد غامت على عينيه غشاوة ، وأحس بوجيب عنيف فى صدره . وقال أحدهم فى صوت كقصف الرعد ، وقد أمسك بياقة معطفه : «هذا المعطف لى ! » .. وهم «أكاكى اكاكيفيتش » ان يصرخ طالبا النجدة ، لولا ان ألصق احدهم بشفتيه قبضة فى حجم رأسه ، قائلا : « اصرخ الآن ، ان شئت ! » .. وأحس بهم وهم يخلعون عنه المعطف ، ثم يركلونه ، فهوى على وجهه فوق الجليد ، ولم يعد يشعر بشىء !

وعاد الى رشده بعد دقائق ، فلم ير أثرا لأحد . وأحس ببرد بعد أن جرد

من معطفه ، فأخذ يصرخ . ولكن صوته بدا عاجزا عن ان يبلغ نهاية الميدان . وانطلق يجرى عبر الميدان الى كوخ الحارس ، وهو نهب للقنوط ، ولا يكف عن الصراخ .. وبجوار الكوخ ، كان ثمة حارس يقف معتمدا على بندقيته ، ينعم النظر فى فضول ليتبين هذا الذى أقبل عليه مهرولا ، صارخا .. وما آن وصل « اكاكى اكاكيفيتش » اليه ، حتى اخذ يصرخ بأنفاس متقطعة ، يتهمه بأنه كان نائما ، غير عابىء بواجبه ، فلم يشعر به وهو يجرد من معطفه ! .. وأجابه الحارس بأنه لم ير شيئا ، اللهم الا ان رجلين استوقفاه فى وسط الميدان ، وقد بدا انهما صديقان له .. وأضاف بأن فى وسعه ان يذهب فى اليوم التالى الى « المأمور » ليبحث له عمن سرقوا المعطف ، بدلا من ان يسبه لغير ماذنب .

وجرى « اكاكى اكاكيفيتش » الى داره فى أسوأ حال ، وقد تشعث شعره على جانبى رأسه وفوق قفاه ، وكسا الجليد خاصرته وصدره وسرواله . وعندما سمعت صاحبة المنزل العجوز طرقا فظيعا على الباب ، قفزت من فراشها فى عجلة ، وهرعت لتفتح الباب . وتراجعت اذ رأت ما كانت عليه حال «أكاكى أكاكيفيتش» .. حتى اذا أنبأها بما حدث ، دقت كفيها فى جزع ، وقالت انه يجب ان يذهب لفوره الى « المأمور » ، لان معاون بوليس الحى خليق بأن يخدعه !.. وقالت انها كثيرا مارأته وهو يمر بدارها ، كما انه اعتاد ان يذهب الى الكنيسة فى يوم الاحد من كل اسبوع ، حيث يبدى روحا طيبة نحو كل امرىء .. فكل الظواهر تنم عن انه رجل رحيم . وسار « اكاكى اكاكيفيتش » بعد هذه النصيحة الى غرفته مكتئبا .. وانى لأترك لأولئك الذين أوتوا أى خيـــال يمكنهم من ان يتصوروا أحوال سواهم ، ان يصفوا كيف قضى ليلته !

★ ★ ★

◆ وفى الصباح الباكر ،انطلق الى مقر مأمور البوليس ، فقيل له انه نائم .. وعاد اليه فى الساعة العاشرة ، فقيل له مرة أخرى انه نائم .. ورجع فى الساعة الحادية عشرة فقيل له انه غادر داره .. فذهب اليه فى وقت الغداء ، ولكن الكتبة فى الغرفة الملحقة بمكتب المأمور ، لم يدعوه يدخل حتى ينبئهم بما حدث تماما . ولاول مرة فى حياة « اكاكى اكاكيفيتش » ، حاول ان يظهر نوعا من قوة الشخصية والصرامة ، فقال فى جفاء انه لابد من ان يقابل المأمور بنفسه ، فليس لهم ان يرفضوا طلبه ، لانه جاء من احدى المصالح لمهمة حكومية ، ولسوف يرون عاقبة مسلكهم اذا ماقدم اية شكوى فيهم . ولم يجسر الكتبة على أن يقولوا شيئا ازاء ذلك ، وذهب احدهم فاستدعى المأمور ، الذى استمع الى قصة سرقة المعطف بطريقة غاية فى الغرابة . فبدلا من أن يهتم بالناحية الرئيسية ، شرع يوجه الى « أكاكى اكاكيفيتش » استجوابا : لماذا كان عائدا الى بيته فى

ساعة متأخرة ؟٠٠ ألم يكن في سبيله الى – أو كان عائدا من – أحد البيوت السيئة السمعة ؟٠٠ وارتبك « اكاكى اكاكيفيتش » وتضايق ، فبارح المكان دون ان يدرى ما اذا كانت الاجراءات ستتخذ لرد معطفه اليه أم لا ؟!

وتغيب عن مكتبه طيلة ذلك اليوم ، للمرة الاولى فى حياته ، فلما ذهب فى اليوم التالى ، كان شاحب الوجه ، يرتدى « سترة نومه » القديمة ، التى كان مظهرها قد ازداد زراية ٠ وحركت قصة سرقة المعطف قلوب الموظفين – وان لم يدع بعضهم فرصة كهذه تمر دون أن يتفكهوا على « اكاكى اكاكيفيتش » – فقرروا لفورهم ان يجمعوا له اكتتابا ، ولكنهم لم يجمعوا سوى مبلغ تافه ، لانهم كانوا قد انفقوا كثيرا فى اكتتاب لرسم صورة للمدير ، وفى شراء كتاب أوصاهم به رئيسهم لأن المؤلف كان من أصدقائه !٠٠ وحاول أحد الكتبة ، بدافع من الشفقة ، ان يساعد « اكاكى اكاكيفيتش » بطريقة أخرى ، فنصحه بألا يلجأ الى مفتش بوليس المنطقة ، وحثه على أن يستنجد بشخص من « ذوى الحيثيات » ، فان « ذا الحيثية » يستطيع اذا ما كتب أو اتصل بالسلطات المختصة ، ان يدفع المسألة فى طريق موفقة !٠٠ ولم ير « اكاكى اكاكيفيتش » بدا من الذهاب الى « ذى الحيثية » ، دون ان يحفل بتبين حقيقة منصبه !

وجدير بنا ان نلاحظ ان هذا الشخص لم يصبح «ذا حيثية» الا من عهد قريب ، ولم يكن قد لقى بعد اعتبارا ممن هم أعلى منه مقاما ٠ ومن الصحيح انه كان يبذل قصارى وسعه لكى يرفع من قيمة مركزه بشتى الوسائل ٠٠ فكان مثلا يصر على ان يخرج مرؤوسوه لاستقباله لدى السلم اذا ماوصل الى مكتبه ، وان لا تترك لأحد فرصة الاتصال به مباشرة ، وانما يجب ان تسير الاجراءات فى مجرى دقيق ، فاذا شاء أحد مقابلته ، وجب ان يتصل أولا بكاتب لتسجيل الزيارات ، فيحمل هذا النبأ الى سكرتير أرقى منه ، وهذا بدوره يحمله الى كاتب أعلى مقاما ٠٠ وهكذا حتى ينتهى الامر اليه ٠ فقد كان كل امرىء فى روسيا متهوسا بحب تقليد من هم أرقى منه !٠٠ وكانت اخلاق « ذى الحيثية » وطباعه تنطوى على مهابة وجلال ، ولكنها لم تكن معقدة ٠٠ كان أساس نظامه : الدقة ٠ وقد اعتاد ان يقول : « الدقة ! ٠٠ الدقة !٠٠ الدقة ! » ٠٠ فاذا ما انتهى من الكلمة الاخيرة نظر الى محدثه ، وان لم يكن ثمة داع لذلك ، اذ كان الموظفون الاثنا عشر الذين يديرون العمل فى مكتبه يرهبونه ، ويظلون وقوفا فى انتباه حتى يغادر الغرفة ٠ وكانت لهجته مع مرؤوسيه تمتاز بالصرامة ، وتقتصر على عبارات ثلاث : « كيف تسوغ لنفسك ؟ » ٠٠ « أفتعرف من الذى تتكلم اليه ؟» ٠٠ « أفتدرك من أكون ؟»

على انه كان فى قرارته طيب القلب ، بشوشا ، لطيفا مع زملائه ، لولا ان الدرجة العليا التى نالها غيرت حاله ، اذ انه احس – حين نال الترقية –

بحيرة وارتباك . ولم يكن يدرى كيف يتصرف ، فكان اذا جمعته المصادفات بمن فى عين مركزه ، ظل متواضعا ، مهذبا ، بل ولطيفا .. ولكنه ما ان يجتمع برجال يقلون عنه ـ ولو درجة واحدة ـ حتى يجلس صامتا ، بادى القلق ، لاسيما وقد كان يحس بأنه خليق بأن يقضى وقته فى شيء أكثر نفعا من صحبتهم !.. وكان يومض فى عينيه أحيانا بريق يوحى برغبة عارمة فى ان يشترك فى حديث طريف ، ولكنه كان يتراجع بفعل هاجس يجعله يخشى أن يكون فى ذلك تطفلا منه ، أو فضولا يزرى من كرامته !.. وبتأثير هذه الافكار ، ظل مخلدا الى الصمت ، لا يخرج عنه الا بغمغمة مقتضبة بين وقت وآخر ، وهذا ما أكسبه صيتا بأنه رجل يبعث على الضجر

.. هذا هو «صاحب الحيثية» الذى لجأ اليه « اكاكى اكاكيفيتش » . وقد ذهب اليه فى أبعد اللحظات مناسبة ، وذلك لسوء حظ « اكاكى اكاكيفيتش » .. وان كان ـ مع ذلك ـ لحسن حظ « صاحب الحيثية » .. فقد تصادف ان كان الاخير فى مكتبه ، يتحدث وهو فى اشد حالات الابتهاج ، مع صديق حميم من أيام طفولته ، ولم يكن قد رآه منذ سنين عديدة . وفى تلك اللحظة ، قيل له ان رجلا يدعى « باشماتشكين » يطلب مقابلته .. فتساءل فى خشونة : « ومن يكون ؟ » ، فتلقى الجواب : « موظف حكومى » ..

فقال « صاحب الحيثية » : « آه .. فى وسعه ان ينتظر ، فان وقتى لايتسع له الآن ! » .. وكانت هذه اكذوبة واضحة من لدن « ذى الحيثية » ، اذ كان وقته متسعا ، فلقد قال وصديقه كل ماكان لديهما منذ أمد طويل ، ومن ثم بدأت محادثاتهما تتثاقل ، وتتخللها فترات صمت طويلة ، كان كل منهما يكتفى خلالها بأن يدق على ركبة صاحبه قائلا : « اذن ، فهكذا سارت الامور ياايفان ابراموفيتش » !.. « هكذا سارت ياستيفان فارلاموفيتش » ! .. ومع ذلك فقد طلب الى الكاتب ان ينتظر ، لكى يطلع صديقه ـ الذى ترك خدمة الحكومة من سنين طويلة وأقام فى الريف ـ كيف ينتظره الموظفون طويلا ؟! ..واخيرا ، بعد ان تكلما ، أو بالاحرى صمتا ، بالقدر الذى أرضى نفسيهما ، ودخن كل منهما سيجارا وهو مضطجع فى مقعد وثير ، بدا على « ذى الحيثية » انه تذكر فجأة ، فقال لسكرتيره الذى كان يقف لدى الباب حاملا أوراقا ليعرضها عليه للتوقيع : « آه ، بهذه المناسبة ، أليس هناك موظف ينتظرنى ؟.. سله ان يأتى » . واذ رأى مظهر « أكاكى أكاكيفيتش » القمىء ، فى ثيابه القديمة ، التفت اليه بغتة وسأله فى صوت صارم ، ولهجة مقتضبة ، ظل يتدرب عليهما خصيصا امام المرآة أسبوعا ، قبل أن يلى مركزه الحالى ويحصل على درجة المدير العام: « ماذا تريد ؟ »

وكان « أكاكى أكاكيفيتش » مرتبكا بتأثير الرهبة التى داخلتـــه ، فزاده

السؤال الجاف ارتباكا ، وقد شرح قصته بقدر ما استطاع لسانه أن يسعفه ، وفى تلعثم اكثر من المعتاد ٠٠ وأوحى هذا الى المدير العام بانتهاز الفرصة لبيان عظمته ، فقال فى اقتضاب : « وبعد يا سيدى ؟ ٠٠ ألست تعرف الاجراءات الواجبة ؟٠٠ الى من تظنك تتكلم ؟٠٠ أفلا تدرى كيف تنجز الامور ؟٠٠ كان ينبغى أن تقدم شكوى أولا الى الادارة ، تحول الى رئيس كتبة القلم ، فالى رئيس كتبة القسم ، ثم تسلم الى السكرتير ، فيحضرها السكرتير لى ٠٠ »

وقال « أكاكى أكاكيفيتش » محاولا ان يجمع شتات ماكان له من حضور ذهن ضئيل ، وهو فى الوقت ذاته يشعر بالعرق يتفصد منه : « انما جرؤت يا صاحب السعادة ، على ان ازعجكم ، لان السكرتيرين ٠٠ أ ٠٠ أناس لا يعتمد عليهم ٠٠ »

فصاح « ذو الحيثية » : « ماذا ؟ ماذا ؟ ماذا ؟ ٠٠ من أين لك بهذه الروح ؟٠٠ من أين التقطت هذه الفكرة ؟٠٠ أى لغو ينتشر بين الصغار ضد رؤسائهم ومن هم أفضل لهم ! ٠٠ أفتدرى الى من تتحدث ؟ ٠٠ أفتدرك من أكون ؟ » !٠٠ ودق الأرض بقدمه ، ورفع صوته الى درجة لم يفزع لها « أكاكى أكاكيفيتش » فحسب ، بل لقد ارتجف ، وترنح ، حتى لم يعد يقوى على الوقوف !٠٠ ولولا ان السعاة سارعوا الى معاونته ، لهوى على الارض ٠ واقتيد الى خارج الغرفة وقد أوشك ان يفقد الوعى ٠ أما « ذو الحيثية » فقد ابتهج اذ رأى ان الاثر تجاوز كل ما توقع ، وانتشى اذ تبين ان كلماته بلغت من القوة درجة سلبت رجلا وعيه ، فاختلس نظرة الى صاحبه ليتعرف مدى تأثره بما حدث ٠٠ ولكنه لاحظ فى غير قليل من الرضى ، أن الصديق أوشك بدوره ان يستشعر نحوه وجلا ورهبة !

ولم يذكر « أكاكى أكاكيفيتش » كيف هبط درجات السلم ولا كيف بلغ الطريق ٠٠ بل أنه كان لا يحس بأطرافه ، فما تعرض فى كل حياته لمثل هذا التأنيب القاسى من رئيس ، لا سيما وان هذا كان رئيس مصلحة أخرى ٠ وانطلق فى العاصفة الجليدية التى كانت تهب على الطرقات ، وفمه فاغر ٠٠ وتعثر ، فهوى على الرصيف ٠٠ وهبت الريح - كعادتها فى (بيترسبورج) - من كل ناحية عليه ، ولفحت حلقه ، فلم تمر لحظات ، حتى التهبت «لوزتاه» ، ولما بلغ البيت ، لم يكن يقوى على ان ينطق بكلمة ، فلجأ الى فراشه بوجه منتفخ وحلق متورم ٠٠ وهكذا قد يكون للتأنيب أحيانا أثر عنيف قاس !

★ ★ ★

◆ وطلع عليه اليوم التالى وهو فى حمى شديدة ٠٠ وأخذ المرض يستفحل بسرعة ، بفضل جو (بيترسبورج) ،فلما عاده الطبيب وجس نبضه ، لم يجد فى وسعه ان يعمل شيئا ، اللهم الا ان يصف دواء يخفف عنه ، حتى

لا يترك دون معونة طبية .. حتى اذا انقضى يومان ، أنبأه بأن منيته قد اقتربت، والتفت الى صاحبة المنزل فأوصاها بأن تسرع من تلك اللحظة الى شراء تابوت له !.. ولا يدرى أحد ما اذا كان « أكاكى أكاكيفيتش » قد سمع تلك الكلمات الرهيبة أو لم يسمعها ، وما اذا كانت قد فجعته أو لم تؤثر فيه ، وما اذا كان قد أحس بالاسى على حياته الجديرة بالرثاء أو لم يحس .. فقد كان طيلة الوقت غارقا فى بحران الحمى .. وكانت تراوده باستمرار رؤى ، كل منها أغرب من الاخرى .. فرأى أولا بيتروفيتش ، وأخذ يطلب اليه ان يصنع له معطفا يحوى فخاخا للايقاع باللصوص الذين كان يتوهمهم باستمرار تحت السرير .. وراح فى كل دقيقة ينادى صاحبة المنزل لتقبض على لص يخاله تحت « اللحاف » .. ثم أخذ يتساءل عن الداعى الى تعليق « سترة النوم » ـ معطفه العتيق ـ فى حين ان لديه معطفا جديدا ؟! .. وكان أحيانا يخال انه واقف أمام المدير « ذى الحيثية » ، ينصت الى تقريعه المقذع ، ويردد له : « اننى آسف يا صاحب السعادة » !.. وما لبث فى النهاية ان تحول الى السباب ، وعمد الى لهجة منكرة ، حتى لقد بادرت ربة المنزل تستعيذ بالله ، اذ لم تسمع منه قط مثل تلك اللغة .. ومما زاد فى جزعها ان تلك الكلمات الفظيعة كانت تتلوها عبارة : « يا صاحب السعادة » .. وما لبث ان غدا كلامه مجرد لغو لا معنى له ، الا ما كان يدور منه حول المعطف . وأخيرا ، أسلم « أكاكى أكاكيفيتش » المسكين الروح .. ولم توضع أختام على غرفته ، ولا على مخلفاته ، لانه ـ أولا ـ لم يترك وريثا ، ولانه ـ ثانيا ـ لم يخلف شيئا ذا قيمة !

★ ★ ★

◆ وواصلت (بيترسبورج) حياتها بدون « أكاكى أكاكيفيتش » ، وكأنما لم يكن له وجود فى المدينة يوما ما .. مخلوق رحل وتلاشى ، دون أن ينصفه أحد ، أو يثير اهتمام أحد .. بل انه لم يجتذب انتباه أحد من الطلبة الذين يدرسون التاريخ الطبيعى ، وان كان الواحد منهم لا يأنف من ان يثبت ذبابة على طرف دبوس ليفحصها تحت المجهر !.. مخلوق احتمل صابرا سخرية زملائه، وذهب الى قبره دون ما مبرر ، وان كان قد نفذ الى حياته فى نهايتها بصيص من اشراق ، تمثل فى معطف ادخل البهجة للحظات قصار على تلك الحياة التعسة ! .. مخلوق حطت عليه الكارثة بنفس القسوة التى تحط بها على رءوس جبابرة الدنيا !!

وبعد أيام من وفاته ، أوفد الى مسكنه ساع من المصلحة يحمل أمرا له بالمبادرة الى الذهاب لمكتبه ، ولكنه عاد بخفى حنين ، ذاكرا انه توفى ودفن منذ ثلاثة أيام .. وهكذا عرف زملاؤه فى المكتب بوفاته ! .. وفى الصباح التالى ،

كان يجلس فى مقعده كاتب جديد ، أطول منه قامة بكثير ، ولا يعنى مثله بأناقة الخط اذا ما كتب !

ولكن ، من ذا الذى كان يتصور ان هذا ليس قصارى مايروى عن « أكاكى أكاكيفيتش » ، وانه قد قدر له ان يثير ضجة فى العالم بعد وفاته ببضعة أيام ، كما لو كان هذا تعويضا عن حياته التى انقضت دون ان يفطن اليها أحد !٠٠ بيد ان هذا هو الذى حدث ، اذا انتهت قصتنا التعسة بنهاية خيالية، على غير توقع ٠ فقد انبعثت الشائعات فجأة فى (بيترسبورج) بأن شبحا بدأ يظهر أثناء الليل ، فى ناحية جسر (كالينكين) ، على شكل كاتب يبحث عن معطف مسروق ، وينزع عن أكتاف جميع المارة ـ دون مراعاة لدرجاتهم ولا مراكزهم ـ معاطف من كل نوع ووصف !٠٠ ولقد رأى أحد كتبة المصلحة الشبح ، فعرف فيه لأول وهلة « أكاكى أكاكيفيتش » ، ولكنه شعر بذعر جعله يجرى بأقصى ما استطاعت ان تحمله ساقاه ، فلم يستطع ان يتأمل الشبح جيدا ، وانما رآه يرفع أصبعه على البعد مهددا !

وأخذت الشكايات ترتفع من كل جانب ، بأن ظهورا واكتافا ـ ليست لكتبة فحسب وانما لمستشارين أيضا ـ كانت تجرد من معاطفها ٠ وصدرت الأوامر للبوليس باعتقال الشبح ، مهما تكن المتاعب والنفقات التى يتطلبها اعتقاله ٠٠ وحيا كان أو ميتا ، وانزال أقسى عقاب به ، ليكون عبرة لسواه !٠٠ وقد كادوا بالفعل يوفقون الى ذلك ٠٠ فان حارسا فى منطقة قسم بوليس « كيريوشكين » أمسك بتلابيب الشبح ، وهو متلبس بمحاولة انتزاع معطف موسيقى متقاعد ، فلما أمسك الحارس بياقته ، أخذ يصرخ حتى أسرع اليه اثنان من زملائه ، عهد اليهما بالشبح ، وانحنى هو على حذائه فأخرج منه علبة سعوط ليبعث الدفء فى أنفه التى هرأه الصقيع !٠٠ ولكن السعوط كان من القوة ـ على ما يبدو ـ الى درجة لم يكن ليحتملها حتى الميت ٠٠ فما ان رفع الحارس اصبعه الى أنفه واجتذب بعض السعوط ، حتى عطس الشبح بعنف فى وجوه الحراس الثلاثة ٠٠ وبينما كانوا يمسحون الرذاذ عن وجوههم، تلاشى الشبح تماما ، حتى لقد داخل الحراس الشك فى انه كان حقا فى أيديهم !٠٠ ومن ذلك الحين ، تملك حراس الليل ذعر من الموتى ، حتى لقد أمسوا يخشون ان يمسكوا بالأحياء ، واقتصروا على ان يرسلوا عقائرهم بالنداء عن بعد : « ها ! ٠٠ انت يا من تسير هناك ٠٠ ابتعد ! » ٠٠ وما لبث الكاتب الميت ان شرع يظهر فى الجانب الآخر أيضا من جسر « كالينكين » ، فأثار ذعرا غير قليل فى نفوس الجبناء ٠٠

* * *

◆ على اننا نسينا « ذا الحيثية » الذى يمكن القول بأنه فى الواقع سبب

النهاية الخيالية لهذه القصة الحقيقية · ويقتضينا الانصاف نحو «ذى الحيثية» ، ان نسجل انه بمجرد انصراف « أكاكى أكاكيفيتش » منهارا ، حتى شعر بشىء لا يختلف عن الندم كثيرا ·· لم يكن العطف شعورا غريبا عليه ، اذ كان قلبه يتفتح لكثير من النوازع الرحيمة ، وان كانت « درجته » كثيرا ما حالت بينه وبين اظهار تلك النوازع · فما ان بارح صديقه مكتبه ، حتى شرع يفكر فى « أكاكى أكاكيفيتش » البائس · ومنذ ذلك الحين ، أخذت صورة الكاتب المسكين وهو متصدع الحواس بسبب تقريعه ، تطارده · وأخذ التفكير فى الرجل يزعجه ، حتى انتهى بعد أسبوع الى ان قرر ان يوفد أحد موظفيه للبحث عن الكاتب ، وليعرف كيف يستطيع ان يساعده · فلما أنبأوه بان « أكاكى أكاكيفيتش » مات فجأة فى بحران الحمى ، كان للنبأ أثر قوى عليه ، فأخذ ضميره يؤنبه ، وقضى اليوم بطوله مهموما · ومن ثم ذهب ليقضى السهرة مع احد أصدقائه ، رغبة منه فى ان يزيل الاحساس الكئيب من نفسه ·· وهناك ، وجد جماعة من علية القوم · وكان خير مافى الامر انهم كانوا جميعا من درجته ، ومن ثم كان فى حل من التكلف والتحفظ · وكان لهذا أثر عظيم فى رفع روحه المعنوية ، فتبسط ، وغدا لطيفا ، بشوشا ·· وهكذا قضى سهرة جد طيبة · فلما مد العشاء ، احتسى كأسين من « الشمبانيا » ·· وهو عمل ندرك جميعا مدى مفعوله السحرى فى اثارة روح الفكاهة فى النفس · وأوحت اليه « الشمبانيا » بأن يقوم بعمل غير عادى ، فقرر ان لا يقصد الى بيته اذا ماانصرف ، بل يمم شطر منزل سيدة من معارفه تدعى « كارولينا ايفانوفا » ·· سيدة يبدو انها من سلالة ألمانية ، وكان يكن لها أقصى عواطف الود !

وخليق بنا ان نذكر ان « ذا الحيثية » كان رجلا تجاوز سن الشباب ، وزوجا وفيا ، وأب اسرة وقورا ·· اذ كان له ولدان ، احدهما يعمل تحت ادارته ، وابنة مليحة فى السادسة عشرة من عمرها ، ذات أنف دقيق جميل ، وقد اعتادت ان تسعى اليه فى كل صباح لتقبل يده قائلة : « بونجور ، بابا » ·· أما زوجته ، فكانت ما تزال مليحة الشكل ، وقد اعتادت ان تمد له يدها فيقبلها ، ثم تقبل يده فى راحتها · على انه رغم رضاء « ذى الحيثية » عن حياته المنزلية ، الا انه ظن من اللائق ان تكون له صديقة فى حى آخر من أحياء المدينة ! وماكانت هذه الصديقة أبهى شكلا من زوجته ولا أصغر سنا ، ولكن هذه الحقائق الغريبة موجودة فى الدنيا ، وليس من شأننا أن نتعرض لها بالنقد ! ومن ثم غادر « ذو الحيثية » منزل صديقه ، واستقل زحافته ، وقال للحوذى : « الى كارولينا ايفانوفا » ·· والتف فى معطف الفراء الفخم ، واطمأن الى تلك الراحة التى يعتبرها الروسى أحلى مايمكن

أن يصل اليه ٠٠ تلك الحال التى تتوارد فيها الافكار على الخاطر من تلقاء نفسها ، دون ما عناء ولا جهد لاجتلابها ٠٠ فأخذ يذكر فى ارتياح واغتباط ، سهرة الليلة ، والضحك ٠٠ ومن وقت الى آخر ، كانت نفحة من الريح تزعجه ٠٠ تهب فجأة من حيث لا يدرى ، فتصفع وجهه ، وتهيل عليه قشورا من الجليد ، فتعبث بمعطفه ، أو تدفعه فجأة فوق رأسه بقوة غير طبيعية ، فتكلفه عناء فى تخليص نفسه منه ٠ وفجأة ، التفت حوله فرأى رجلا قصيرا فى بزة شوهاء ٠٠ وذعر اذ عرف فيه « أكاكى أكاكيفيتش » ٠٠ كان وجه الكاتب فى بياض الثلج ، وكان يبدو كالجثة ٠٠ ولكن ذعر « صاحب الحيثية » تجاوز كل حد ، حين رأى فم الشبح يتحرك اذ هم بالكلام ، نافثا عليه ريح القبر : « آه ٠٠ اذن ، فها انتذا ٠٠ أخيرا ! ٠٠ أخيرا ٠٠ أ ٠٠ أمسكتك من ياقتك ٠٠ معطفك هو الذى أبتغيه ٠٠ لقد رفضت ان تساعدنى ، واسأت الى ٠٠ فاعطنى اذن معطفك ! » ٠٠

وكاد « ذو الحيثية » المسكين ان يموت ٠٠ كان الحزم والصرامة اللذان اعتاد ان يمارسهما أمام مرؤوسيه ، قد انقلبا فى هذه الورطة الى ذعر لا مبرر له ، فألقى بمعطفه عن كتفيه بأسرع ما استطاع ، وصرخ فى الحوذى : « انطلق بسرعة ٠٠ اسرع ! » ٠٠ واذ سمع الحوذى هذا الصراخ الذى لم يسمعه قط الا فى أشد اللحظات خطرا ، رفع كتفيه ودس رأسه بينهما تحوطا من أى شر ، وهوى بسوطه ، فمرقت الزحافة كالسهم ٠٠ ولم تنقض ست دقائق ، حتى كان « صاحب الحيثية » عند مدخل بيته ، شاحب الوجه ، مذعورا ، بغير معطف ٠٠ فجر نفسه الى غرفته ، وقضى ليلته فى انزعاج طاغ ، حتى لقد قالت له ابنته فى اليوم التالى : « تبدو جد شاحب اليوم يا بابا » ٠٠ بيد ان « بابا » ظل أخرس ، فلم ينبس ببنت شفة عما حدث له ، ولم يقل اين كان ، ولا الى أين كان ذاهبا ٠٠ كان الحادث قد ترك أثرا كبيرا فى نفسه ٠٠ بل انه لم يعد منذ ذلك اليوم يقول لمرؤوسيه : « كيف تجرؤ ؟ ٠٠ أفتدرك من أكون ؟ » !

والأعجب من ذلك ، ان شبح الكاتب الميت لم يعد يظهر منذ تلك الليلة اطلاقا ، ولم يسمع أحد بعد ذلك عن معاطف تخطف من أحد ٠٠ اذ يبدو ان معطف المدير « ذى الحيثية » ، كان قد لاءمه تماما !

« كازانوفا » ٠٠ الشاعر !

◆ رأينا فى الحلقة الماضية من مذكرات « كازانوفا » ، المغامر الاعظم ، كيف أنه أحس « عن يقين » بأنه غزا قلب « الماركيزة ج ٠٠ » ، التى تعرف بها فى احدى الندوات التى كان يعقدها استاذه « الكاردينال أكوافيفا » ٠٠ وكان بعض من اعتادوا التردد على تلك الندوات قد استدرجوه الى الجهر بتقديره لجمالها ٠٠ فضلا عن انها كانت قد قرأت احدى قصائده من الشعر ، وأعجبت بها أيما اعجاب !

وكان الكاردينال قد أطلعه على احدى القصائد التى كتبتها الماركيزة – اذ كانت شاعرة ايضا – فعول « كازانوفا » ، بعد أن قرأها ، على أن يكتب بوحيها قصيدة أخرى !

والآن ، هيا نقرأ الحلقة التالية من تلك المذكرات ٠٠

وفى الليلة التالية ، أطلعه الكاردينال على عشر قصائد غنائية أخرى للماركيزة ، زعم أنها كتبت بوحي من حبه ٠٠ وتشبث كازانوفا بأهداب الحكمة والتروى ٠٠ وسأله الكاردينال ان يكتب بدوره عشر أراجيز فورا ، فاستمهله يوما ٠٠ ومالبثت الماركيزة أن أقبلت، فأثارت فى نفس الشاب شتى العواطف ٠ وما ان استمعت الى قصيدته التى نظمها بوحى قصيدتها ، ولاحظت انه التزم عين البحر والقافية ، حتى رمته بنظرة أجهزت على ماتبقى من حجاه واتزانه ٠٠ واقبل على القصائد العشر التى طلبها الكاردينال فوفق فيها الى درجة دعت الكاردينال الى ان يهديه علبة سعوط من الذهب المموه بالميناء الدقيقة ، فى مقابل ان يسمح له بأن ينسب الشعر لنفسه !٠٠ وفى مساء ذلك اليوم ، تناول كازانوفا العشاء مع الكاردينال والماركيزة ، على مائدة بسطت الى جوار سرير الكاردينال فورا ، فاستمهله يوما ٠٠ ومالبثت الماركيزة أن أقبلت ، فأثارت فى نفس ردود الكاردينال (المزعومة !) ٠٠ وفعل الشاب ، وأبدع فى الالقاء حتى انتشى الكاردينال ، وتضرجت وجنتا السيدة ٠٠ ومنذ ذلك اليوم ، أخذت تولى كازانوفا رعاية خاصة ، جعلته يرتقب الفرصة فى عيد الكرنفال ٠٠ وفى تلك الاثناء ، لقى الشاب من تقدير البابا والكاردينال ماحملهما على أن يفكرا فى ان يعهدا اليه بمنصب هام ٠٠ ولكنه فوجىء ذات يوم بزيارة غير متوقعة من عشيق بربارا ، ابنة مدرس اللغة الفرنسية

ثورة الرأى العام على مغامراته !

◆ كان الشاب يحمل رسالة من فتاته تقول له فيها انها حامل ، وانها قد قررت ان تفر قبل ان يكتشف ابوها امرها ٠٠ وسألنى رأيى ، فنصحته بأن يبادر الى الزواج منها برغم أبيه وأبيها ٠٠

وفى أول يناير سنة ١٧٤٤ ، جاءنى يعلن انه قد أحكم تدبير الخطة للفرار بفتاته الى (نابولى) ٠٠ وغاب اسبوعا ، وفى الساعة الحادية عشرة من احدى الليالى ، ولج غرفتى وبصحبته راهب ، لم ألبث أن تبينت انه كان « بربارا » متنكرة ٠٠ وقد جاءا يطمئنانى الى أن كل شىء فى خطتهما قد اكتمل ٠٠ وبعد اربعة ايام ، انبأنى الاب « جاما » بأن «البابا» قد أذن للبوليس بمهاجمة بيت يقيم فيه عاشقان فرا من أهلهما ، وقد حدد منتصف الليل لهذه الحملة ٠٠ فأزعجنى هذا النبأ !

وعند منتصف الليل ، فوجئت وأنا أهم بان اندس فى فراشى ، براهب يقتحم غرفتى لاهثا ٠٠ وعرفت فيه « بربارا » ، فكدت أجن وأنا أستعرض النتائج التى قد تحيق بها وبى ٠٠ ورأيت من واجبى أن أبادر باقصائها عن غرفتى ، ولكنها ألقت بنفسها على قدمى وراحت تتوسل الى أن أساعدها ، ودموعها تذيب أقسى القلوب ٠٠ وعلمت منها أن تلك الليلة كانت موعد الفرار ، وان البوليس قد اعتقل فتاها وخادمتها وهما ينتظرانها فى العربة التى كانت معدة للرحلة !



وأذاب أساها جمودى ، فظللت ساهرا أفكر فى حل ، حتى اذا جاء الصباح ، تركتها فى حجرتى بعد ان أوصدت الباب من الخارج ، وانطلقت أتشمم الجو ، فلمحت عددا من المخبرين منبثين حول القصر ٠ وسرت فى عودتى الى مسكن الاب « جاما » ، فعلمت منه أن «الأب» النائب العام ، قد أرسل يلتمس الترخيص له بتفتيش القصر !٠٠ واذ ذاك اسرعت الى الفتاة ، وأمليتها الرسالة التالية بالفرنسية :

« أنا فتاة شريفة يا صاحب القداسة ، وان تنكرت فى زى راهب ، وانى اهيب بنيافتكم أن تسمحوا بأن لا افضى باسمى الا اليكم وحدكم ، فانى آمل

ـ لما لنيافتكم من طيبة نفس وصلاح عظيم ـ أن تنقذونى من العار ! »

واذ كتبت هذه الرسالة ، وعدت بأن أدبر أمر توصيلها الى الكاردينال ، وأردفت قائلا لمحدثتى ان عليها أن تلقى بنفسها على قدميه ، وتفضى بكل قصتها على حقيقتها ، فيما عدا قضائها ليلة فى غرفتى !٠٠ وفعلا ، استطعت ان ابعث بالرسالة الى الكاردينال دون أن أكشف عن أية علاقة لى بها ، وبذلك أخليت السبيل للفتاة ٠٠ حتى اذا فرغنا من العشاء فى تلك الليلة ، استدرجت الاب « جاما » ، فعلمت منه ان الكاردينال « اكوافيفا » كان قد أصدر أمره بالاذن للسلطات المدنية بتفتيش قصره ، ولكنه تلقى رسالة جعلته يوقف هذا الاذن ٠٠ وما لبث أن سمح للفتاة الهاربة المتنكرة فى زى راهب بأن تمثل بين يديه ، حتى اذا سمع قصتها ، قرر أن يحميها ، وأنزلها فى جناحه الخاص ، ووضعها تحت وصايته ، بحيث لا يتاح لأحد ـ ولا البابا نفسه ـ أن يمسها بسوء ! وفى اليوم التالى جاءنى الاب « جاما » يقول ان الاب النائب العام عرف أن الفتاة كانت صديقه لى ، اذ كان أبوها مدرسى ، ومن ثم فقد حدس انها قضت الليلة فى غرفتى ٠ ولكننى أنكرت فى لهجة حاسمة ٠٠ حتى اذا انفضضنا عن العشاء فى تلك الليلة ، أخبرنى بأن الكاردينال أرسل الفتاة الى دير تحظى فيه بالرعاية على نفقته ، الى أن يتم زواجها من فتاها ٠

واذ زرت الاب « جبورجى » بعد يومين ، أثار الموضوع ، قائلا ان أهل روما بأسرها يعتبروننى مدبر الخطة للفتاة ! ولكنه ما لبث أن صدق انكارى ٠٠ وما أن بدأت الضجة التى أثارها الحادث تخفت ، حتى استدعانى الكاردينال ، وقال ان الرأى العام يتهمه ويتهمنى بأننا عاونا الفتاة ، وانه لا يعبأ بذلك ، ولو كان فى مكانى لأقدم على عين ما أقدمت عليه ٠٠ ولكنه مع ذلك لا يجرؤ على تحدى الرأى العام ، ومن ثم قرر أن يقصينى عنه ، وأن يرسلنى بعيدا عن روما ، وسيزعم ـ حرصا على كرامتى ـ أنه أوفدنى فى بعثة هامة ، كما أنه يترك لى اختيار اى بلد أحب الذهاب اليه ، واعدا بأن يوصى بى من قد يكون له من أصدقاء هناك ، وبأن يكتم اسم البلد عن كل شخص ٠٠

وكتمت الامر عن الاب « جاما » ، وزعمت أن الكاردينال اختارنى لمهمة خاصة ٠

وكانت مغادرة روما شاقة على نفس « كازانوفا » ٠٠ واختار (القسطنطينية) ، فأعد له الكاردينال جواز السفر ، وأعطاه رسالة توصية الى حاكم « قرمانيا » التركى ، كما أعطاه سفير البندقية فى روما رسالة توصية أخرى الى أحد الاتراك من ذوى الجاه ٠ وتلقى من الكاردينال كيسا به مائة أوقية من الذهب ، كما كان قد ادخر حوالى نصف أوقية أخرى ٠٠ وبارح روما ، فبلغ أنكونا فى ٢٥ فبراير سنة

١٧٤٤ ، ونزل فى خير فنادقها ، وهناك تعرف به رجل يدعى « سانشيو بيكو » ، دعاه الى سماع الموسيقى فى غرفة تجاور غرفته ، حيث وجد سيدة متقدمة فى السن ، وفتاتين صغيرتين ، احداهما فى الثانية عشرة وتدعى « سيشيليا » — وكانت تدرس الموسيقى — والاخرى تصغرها بعام وتدعى « مارينا » ، وكانت تدرس الرقص فى الاوبرا ، يزاملها شقيق مليح ، وسيم ، يصغرها يدعى «بلينو» .. وقد حدس «كازانوفا» ان الفتى لجماله كان يقوم بأدوار نسائية فى الاوبرا

ذو الصوت الملائكى !

◆ وعزف الفتى « بلينو » على العود ، وغنى بصوت كأصوات الملائكة ، وصديقى ينصت فى نشوة وقد أغمض عينيه ، بينما كنت أحملق فى الفتى مفتونا ، وقد خلت ان جمال صديقتى « لوكريزيا » والماركيزة قد اجتمع فيه .. بل لقد وقر فى نفسى انه لا يمكن الا أن يكون فتاة متنكرة فى زى رجل ! .. فقضيت ليلى أحلم بهذه الفتنة .. وشد ما كان سرورى حين رأيته يلج غرفتى فى الصباح ، وقد جاء يعرض على خدمات أخ له يصغره يدعى « بيترونيو » كى يرافقنى خلال اقامتى .. ثم أقبلت أختاه ، فاذا ثلاثتهم يشيعون حولى جوا من البهجة والطرب .. كانت « سيشيليا » و « مارينا » زهرتين غضتين بدأت أكمامهما فى التفتح ، وليس ينقصهما سوى الهام الحب وسحره .. وما لبث أن أقبل الاخ الاصغر « بيترونيو » يحمل القهوة ، فاذا هو من الخلاعة والمجون بحيث يدرك المرء للوهلة الأولى أنه محترف ! — وهذا النوع من المخنثين ليس نادرا فى ايطاليا — وقد أظهر الفتى من الخلاعة ما جعلنى أسبه ، فما خجل او استحى !

وأمرت بغداء لى ولبلينو والفتاتين ، فأقبل صاحب الفندق ينذرنى بأن كلا من ضيوفى يأكل قدر شخصين ، ومن ثم فسأتكلف ضعف النفقات !

وسعيت الى غرفة الأم أجاملها ، فشكت لى جشع مدير المسرح الذى يعملون فيه ، فنفحتها بعض المال .. وفيما كانت تشكرنى ، قلت لها : « أعدك بأن امنحك قدرا آخر اذا صارحتنى بحقيقة « بلينو » .. أهو حسناء متنكرة ؟ »

— أؤكد لك أنه ولد .. وقد تعرض للفحص قبل أن يسمح له بالغناء على المسرح .. فحصه مساعد الاسقف !

وفى ليلتين متواليتين ، أدخلت الفتـاتان على نفس كازانوفا بهجة ، وبادلتاه الغرام ، بتشجيع من أمهما .. ولكنه ظل فى حيرة من أمر « بلينـو » لا يصدق أنه غلام ، ولا يكاد يتغلب على افتتانه بجماله ورقة صوته .. وذات يوم ، دعى الفتى للغناء فى أوبرا (رمينى) ،

فاستأجر كازانوفا عربة ، ورافقه فى الرحلة ، تاركين بقية أفراد الاسرة فى (انكونا) ٠٠ وفى الطريق ، أخذ كازانوفا يتغزل فى الفتى ، مصرا على أن يعرف حقيقته ٠٠ واذ ذاك بكى الفتى وأظهر الغضب ، وأبدى رغبة فى مغادرة العربة ، فكف كازانوفا عن مسلكه

العين الخبيرة لاتخطىء !

◆ وبقيت واجما ، حتى غدونا على نصف الميل من (سينجاجليا) حيث كنت قد اعتزمت أن نقضى ليلتنا ، واذ ذاك قلت له : « كان بوسعنا ان نقضى فترة سعيدة فى (ريمينى) لو أنك أبديت شيئا من الود ٠٠ ففى وسعك أن تبرئنى من لوعتى بقليل من اللطف »

ــ لن تشفى من وجدك ، سواء كنت رجلا او امرأة ، لأنك احببتنى دون ان تكترث لجنسى ، أذكر أنا أم أنثى ؟!

ــ أنت تخدعنى ، فاننى لا يمكن أن أحس بالحب الا نحو امرأة !

وقصدنا الى أفخم فندق فى (سينجاجليا) ، فلم نجد سوى غرفة واحدة ٠٠ فلم يكن ثمة بد من أن ننام معا ٠٠ وتقبل الفتى النبأ فى هدوء ، أوحى الى أننى مقبل على ليلة غرام حارة !٠٠ ولكننى كنت مخطئا فى حدسى ٠٠ كانت الليلة أكثر من « حارة » ٠٠ كانت ملتهبة ٠٠ كانت نارا مشبوبة ، أتت على كل أشجانى السابقة ٠٠ وكانت النشوة التى استمرأتها عارمة ، أنستنى الدنيا وما فيها ٠٠ نشوة ما زالت دمائى تغلى فى عروقى لذكراها رغم تقدم السن بى !٠٠ وقالت أخيرا ٠٠ (فما اظنك الا ادركت ان « بلينو » لم يكن سوى فتاة) :« هل ارتويت يا حبيبى ؟ ٠٠ وهل وجدتنى صادقة الحب لك ؟ ٠٠ الآن انصت ، فسأروى لك كل شىء : اننى أدعى « تيريزا » ، وكان والدى كاتبا فقيرا فى معهد (بولونيا) ، أجر غرفة فى بيته لممثل ومطرب مشهور ، أغرم بى ، وعبثت مغازلاته بعقلى ٠٠ وكنت لم أتجاوز الثانية عشرة من عمرى ، حين عنى بتعليمى الموسيقى ، وبترويض صوتى ٠٠ وكان جزاؤه ان نال منى وطره ٠٠ وكان له من الجمال ، والمواهب ، وارتفاع الشأن ، ما جعلنى أعبده ٠٠ وفى تلك الاثناء ، كان يتولى تدريب صبى فى مثل سنى هو ابن السيدة التى رأيتها فى (ريمينى) ويدعى « بلينو » ٠ وحدث بعد حوالى العام من استسلامى للمطرب ــ وكان يدعى « ساليمبيرى » ــ أن اضطر للرحيل الى روما ، فلما رأى دموعى وأساى ، لا سيما وان أبى كان قد مات ، قرر أن يأخذنى معه من(بولونيا) الى (ريمينى) لاقضى فترة بصحبة « بلينو » ٠٠ ولكننا لم نكد نصل الى هناك حتى وجدنا أن الصبى مات فى اليوم السابق ! ٠٠ واذ ذاك خطر له أن يدعنى فى رعاية الام المحزونة ، وأن أتزيا بزى الغلمان وانتحل اسم « بلينو » ريثما استكمل تعليمى الموسيقى ، ثم يأخذنى الى بولندا ، لأكون « ممثلا ومطربا »

فى بلاط ملكها ، ونعيش معا فى مأمن من الفضيحة والعار ! ٠٠ وكان الأمر لا يتطلب أكثر من أن أنبذ جنسى وأنكر نزوات الانوثة وأحاسيسها ٠٠ ودبر الامر فعلا مع أم « بلينو » ، وحرصا على كتمان كل شىء ، وعلى أن تكون لى غرفة خاصة ، تغدو حرما مقدسا حتى بالنسبة لابنتى السيدة وابنها الآخر ، الذين لم يعلموا شيئا عن حقيقة جنسى كأنثى !!

٠٠ ولكنى لم أر صاحبى المطرب بعد ذلك ، اذ مات فى روما ٠٠ واضطررت الى أن أكسب عيشى بمواهبى الموسيقية ، فنصحتنى « أمى » المزعومة بأن أظل منتحلة شخصية الفتيان ٠٠ وها أنتذا أول رجل بعد «ساليمبيرى» يعرف سر أنوثتى ! ٠٠ والحق أننى أحببتك لأول وهلة ، ولكننى خشيت أن تكون عاطفتك نحوى نزوة عابرة ، فتركتك تلهو مع « سيشيليا » و « مارينا » ، وتمنعت عليك ٠ ولكنك باصرارك على ملازمتى ، أثبتت لى أن وجدك لى ليس نزوة ٠٠ »

واقترح عليها «كازانوفا» أن تتخلى عن تنكرها ، على أن يتزوجها ، ويتركها تمارس فنها المسرحى والموسيقى ٠٠ وارتضت الفتاة أن تتزوج منه ، وأن ترافقه الى القسطنطينية ٠٠ بيد أنهما فى الطريق ، فوجئا ببعض الجنود يتفقدون المسافرين ، وكان مع الفتاة جواز سفر ، فتركوها تواصل رحيلها ٠٠ أما « كازانوفا » فتبين أنه فقد جوازه ، ومن ثم استبقى ريثما يكتب للكاردينال «اكوافيفا» ويتلقى منه جوازا جديدا ٠٠

حساب الربح والخسارة !

◆ وقضيت ليلة رهيبة فى ثكنات « سانتا ماريا » ٠٠ ولكن الخسارة التى ترتبت على هذه الليلة ، لم تدان الكسب العظيم ٠٠ أما الخسارة فتمثلت فى فراق «تيريزا» ــ وكنت موقنا أننى لن ألبث أن ألحق بها ــ وأما الكسب فتمثل فى أننى تلقيت درسا فى التفكير ، والحرص ، وبعد النظر ، والتحوط لكل لأمور ٠٠ وكان درسا عظيما بالنسبة لشاب فى العشرين من عمره ٠٠

ولكن الليالى التالية كانت سهلة هينة ، اذ رضت نفسى على تحمل الأمر الواقع ، وأخذت أختلط بالضباط والحراس ٠٠ وهكذا قضيت تسعة أيام أو عشرة فى ثكنات الاسبان ــ اذ كانت البلاد موزعة بين الاسبان والالمان والنمسويين ــ وذات صباح ، رأيت جوادا أصيلا لأحد الضباط ، فخطر لى أن أمتطيه ، ولم أكن خبيرا بالركوب ٠٠ ولست أدرى ما الذى حدث ، ولكننى ألفيت الجواد ينطلق بسرعة أخذت تتضاعف فى جموح ، دون أن أملك ايقافه ، حتى انتهى بى الى خطوط النمسويين ، فاستطاع حراسهم أن يوقفوا الجواد ، ليسألونى بغيتى ، بيد أننى قلت لهم بأننى غير مكلف بأن أدلى بمهمتى لغير

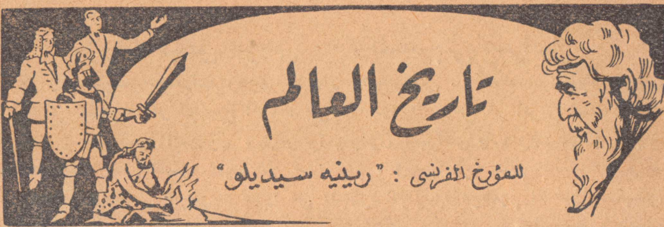
الامير « لوبكوفيتش » - وكان مقر قيادته فى (ريمينى) - ومن ثم صحبنى جنديان اليه ، حيث أفضيت اليه ، على حدة ، بجلية ماحدث . فلما ذهب عنه الغضب ، تلطف معى ، وأمر باطلاق سراحى ، فبادرت الى البحث عن «تيريزا» . ولما لم يكن من المأمون أن أبقى بلا جواز سفر ، فقد اتفقنا على أن اسبقها الى (بولونيا) فأكتب لقائد الثكنات التى كنت أسيرا فيها ، اعرض عليه ثمن الجواد الذى فقده ، وأسأله أن يبعث الى بالجواز الجديد اذا ما وصل ..

وفى (بولونيا) ، وجدت أنه لم يعد لى أمل فى أن أكون من رجال الكنيسة ، فقررت أن أغدو ضابطا عسكريا .. وسرعان ما ابتعت ثيابا عسكرية ، وسيفا ، فراق لى منظرى الجديد ، ورحت أسير فى الطرقات وأرتاد المحال العامة ، مزهوا ، وقد ظننت أننى تخلصت من المتاعب .. لذلك كانت دهشتى بالغة حين زرت مدير مصرف (بولونيا) لأستبدل بذهبى عملة وخطابات اعتماد ، فاذا به يطلعنى على نبأ نشرته الصحف ، مؤداه أن ضابطا فى خدمة ملكة اسبانيا يدعى « دى كازانوفا » فر من الخدمة بعد ان قتل زميلا له !

ولقيت عناء فى أن أتمالك نفسى ، ولكننى سرعان ما غالبت روعى وقلت له ان « كازانوفا » المقصود لا بد أن يكون رجلا آخر سواى - وكانت خطابات التوصية التى حملتها من الكاردينال كافية لأن تؤكد أننى لم أكن قط فى خدمة ملكة أسبانيا ! - وفى اليوم الرابع تلقيت خطابا من « تيريزا » تقول فيه ان دوق « كاستروبنيانو » عرض عليها ألف أوقية من الذهب سنويا مقابل ان تكون كبيرة مغنيات مسرح « سان كارلو » بنابولى .. ووجدتنى - لأول مرة فى حياتى - أطيل التفكير والتروى ، وقد تنازعتنى فكرتان : الاولى اننى لا يجب أن أدع حبى يفسد على الفتاة مستقبلها .. والثانية ، اننى اذا رافقتها الى نابولى وعشت معها ، فقد أبدو أمام الناس عالة عليها ، وهذا ما لا تقبله كرامتى - لا سيما وان ابن عمى « انتونيو » ، ومن تعرفت بهم من علية القوم ، يعيشون هناك - لذلك كتبت اليها أنصحها بأن تقبل العرض ، واعدا اياها بأن الحق بها اذا ما عدت من القسطنطينية ..

.. ووصل الجواز الجديد أخيرا . وبعد أن دفع « كازانوفا » خمسين قطعة ذهبية فى مقابل الجواد الذى فر عليه من الثكنات ، رحل الى البندقية ، حيث ساعده أصدقاؤه فى الحصول على رتبة عسكرية من وزارة الحربية ، « كعضو فى جيش البندقية » ! .. ثم استأنف رحلته الى القسطنطينية ..

« يتبع »



الحضارة التى افتتحت سجل التاريخ

◆ انتهيت معك فى الحلقة الخامسة من هذا الكتاب الذى جعل من التاريخ « قصة » ممتعة ، الى حضارة الفينيقيين ٠٠ واليوم نستأنف معا استعراض هذه الحضارة ، ونتبين كيف انحدرت قبائل الرعاة من آسيا لتنتشر فى أوروبا والشرق الاوسط ، وتكون اصولا لجميع الشعوب الكبرى ٠٠

عباقرة التجارة !

◆ أخذ الفينيقيون ينطلقون فوق عباب البحار ، يتجرون فى الرقيق ، ويستجلبون الخزف والفخار من رودس وكريت ، والزيت والتين والخمور من اليونان ، والعقيق والكبريت الخام من صقلية ، والفضة من اسبانيا ، والقصدير من الأندلس أو جزر (الكاسيتيريد) التى لاتبعد كثيرا عن انجلترا ٠٠ بل انهم عبروا المحيط الاطلسى ، ويقال انهم طافوا حول افريقيا قبل اكتشاف (رأس الرجاء الصالح) بألفى عام !

ولم يكونوا يتورعون عن السطو والقرصنة ، ولكنهم لم يتجاوزوا فى استعمارهم الموانىء القائمة على البحار ، ولم يحفلوا بالتوغل فيما وراءها ، اذ كان يكفيهم ان تكون الموانىء محطات لتجارتهم ، وأن يحصلوا على امتيازات تقى هذه التجارة شر المنافسات ٠ وانشأوا « المصانع » فى البلاد الممتدة من البحر الاسود حتى الساحل الاوربى للمحيط الاطلسى ٠ كما أنشأوا مدينة قرطاجنة ـ سنة ٨١٤ قبل الميلاد ـ على الساحل الافريقى الشمالى ، فورثت مجدهم وسياستهم فيما بعد ٠ واستطاعوا أن يبتكروا نظاما للأرقام (فيما عدا الصفر) ، كما اقتبسوا عن الحروف الابجدية الفرعونية اسلوبا للكتابة مؤلفا من ٢٢ رقما ٠ ومالبثوا ان اوهنت قوات (آشور) المسلحة قواهم ، واستولت على (صيدا) فأحرقتها عن آخرها ٠ ثم جاء المقدونيون ، قبل مولد المسيح بحوالى ٦٧٧ عاما ، فقضوا على الفينيقيين ٠٠ وان بقيت تعاليمهم وحضارتهم بعدهم ٠٠

غزوات قبائل الرحل .. ونشأة بنى اسرائيل

◆ ولم تلبث حضارات وديان الانهار والسواحل ان تقلصت نتيجة عدوان بعضها على بعض ، او اجتياح الرعاة الرحالة لها .. وعلى مر الزمن تمت الغلبة لهؤلاء ، فاستوطنوا السهول ، وشرعوا يقيمون امبراطوريات وحضارات جديدة بدلا من تلك التى قضوا عليها فى همجيتهم ، وغدوا آباء عالم جديد .. ولقد بذل علماء الأجناس البشرية كثيرا من الجهود ليعرفوا موطنهم الأصلى ،فتبينوا انهم يمتون الى عدة مواطن وعدة أجناس ، فمنهم من اقبل من الحبشة ، ومنهم من وفد من بلاد المغول .. على ان عنصرين منهم هما اللذان كان لهما اثر فى تاريخ البشرية ، وقد اطلق عليهما علميا اسما : « الساميون » و « الهنود الاوربيون »

وقد نشأ « الساميون » فى بلاد العرب ، او فى اقاصى فلسطين على التحديد، قبل مولد المسيح بثلاثين قرنا . وقد انتشروا فى كافة ارجاء الشرق الاوسط نتيجة لتسربهم تباعا كمهاجرين ، دون ماغزو .. فاستقروا فى أعالى سوريا ، ثم انحدروا الى حوضى الدجلة والفرات .. ومنهم من استقروا بين«السومريين» وورثوا عنهم حضارتهم .. ومن اندفعوا تحت قيادة النبى « ابراهيم » من بلاد كلديا الى مصر فأغاروا عليها تحت ضغط المجاعات ، فى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد!! كما يحتمل ان يكون منهم من تعاون مع الهكسوس فى غزو مصر والاستيلاء عليها . كذلك تسرب « الساميون » واختلطوا بالأشوريين والفينيقيين ..وكان « الأراميون » الذين أغاروا على مساحات واسعة من حوضى البحر الابيض المتوسط ونهر الفرات - فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد - من « الساميين » .. كما كان اليهود ساميين أيضا . وقد تضمن « التوراة » الكثير عن قصة هؤلاء الرحل الضاربين فى بطاح الارض ، متنقلين من مورد ماء الى آخر ، ومن مرعى الى مرعى ثان ، متخذين من آلهة الرعاة اربابا ، من بينهم « العجل » - سواء كان من الذهب او من الحجر .. وقد أقدم أحد أبناء « ابراهيم » ، وهو « يعقوب » الذى لقب بـ « اسرائيل » - على الهجرة من أرض (كنعان) والنزوح الى وادى النيل ، ولكن قومه لم يصيبوا فيه خيرا كثيرا ، بل اضطهدوا، وعوملوا معاملة العبيد ، حتى اضطروا الى النزوح عن الوادى بقيادة النبى«موسى» .. وهاموا وقتا فى الصحراء ، قبل ان يعودوا الى ارض كنعان .. وقد تخلى بنو اسرائيل عن اربابهم مذ كلم الله موسى على جبل (سيناء) ، وأصبحوا يعبدون الها واحدا ، وكانوا أول من آمنوا بأول دين سماوى . بيد ان هذا « الشعب المختار » لم تلبث الفرقة ان شاعت بين صفوفه ، واقبل ابناؤه على الاغتيالات والثورات فى القرن العاشر قبل الميلاد . ثم أبعد « الاشوريون » ابناء (السامراء) عن بلادهم واحتلوها فى سنة ٧٣١ قبل الميلاد . واعقبهم

البابليون فأسروا اليهود فى سنة ٥٨٧ قبل الميلاد وشتتوهم ، وعندما قدر لهم ان يعودوا الى فلسطين احتلها الغزاة من مقدونيين ، ثم سوريين ، ثم رومان .. ولم تجدهم الثورات فتيلا ، فدمر معبدهم المقدس ، وشتتوا من جديد ، وعادوا الى ماكانت عليه قبائلهم الأولى : رحلا يتنقلون من بلد الى آخر ، لايحظون بالاستقرار ..

شعوب أوربا جميعا من أصل هندى !

◆ على ان الهنود الاوربيين كانوا اكثر توفيقا من الساميين فى الحصول على وطن دائم ، وان لم يعرف على التأكيد وطنهم الاصلى ، فهناك من يرى انهم من هضبة « البامير » ، ومن النظريات ماينسبهم الى تركستان أو سيبريا .. وقال البعض انهم من ساحل البلطيق ، أو من السهل الالمانى البولندى ، أو وادى الدانوب .. ولعل أقرب الافتراضات الى المعقول ، انهم كانوا من الرعاة الرحل فى جنوب روسيا ، قبل مولد المسيح بثلاثين قرنا ، بين نهرى الدنيبر والفولجا ، وربما كانوا أيضا منتشرين بين نهرى الدانوب وأورال .. وكانوا يجيدون ترويض الخيل ، وتربية الاغنام والماشية ، ويمارسون الصناعات المترتبة على ذلك ، كالالبان والصوف والعسل .. كما كانوا يستعملون المحراث فى فلح الارض ، ويقيمون فى بيوت مشيدة على اشكال مستطيلة ، ويتجمعون فى اسرات وقبائل .. وكانوا على خلاف اليهود ، يعـترفون بالفوارق الاجتماعية .. ويجهلون الكتابة .. ولا يعرفون الذهب والفضة ، حتى بعد ان عرفوا النحاس الذى صنعوا منه سلاحا يشبه « البلطة » استخدموه فى الغزو ، منطلقين على صهوات الجياد التى برعوا فى تذليلها ، مخلفين البلاد الباردة ، الى بلاد الشمس والدفء .. فى القرن الخامس والعشرين قبل الميلاد ..

ولقد بلغت طلائعهم البلقان وآسيا الصغرى ، منحدرة الى حوض البحر الابيض المتوسط والى المحيط الهندى .. وتؤكد الأدلة انهم سلكوا طريقهم عبر تركستان والقوقاز حتى بلغوا البسفور ، حوالى سنة ٢١٠٠ قبل الميلاد . وكان من جراء هذه الرحلة الطويلة أن تفرقوا شيعا ، واختلفت العادات واللغات التى اكتسبوها من البلاد التى كانوا يحطون بها . فاستقر منهم فى اليونان - فى سنة ٢٠٠٠ ق.م - قوم عرفوا باسم «الأخيان» Achaeans ، لم يلبثوا ان فتحوا كريت وجزر بحر ايجه . واتخذ « السيمريون » Cimmerians ثم « السيثيون » Scythians من سهول روسيا موطنا ، فى سنة ١٢٠٠ ق . م .. وبلغ أقوام منهم الشرق الاوسط ، فاستولى « الحتيون » Hittites على بابل سنة ١٣٠٠ ق . م .. وبينما سار « الآريون » الى حوض «الاندوس»، انحدر « التراسيون » Thracians و «الفريجيون » Phrygians فى سنة ٥٠٠ ق.م . الى آسيا الصغرى وسوريا ، وغزا « الميديون » Medes

والفارسيون ارض مابين النهرين ـ دجلة والفرات ـ فى سنة ١٢٠٠ ق٠م واجهزوا على ماتبقى من امبراطورية الاشوريين ٠٠

كذلك انحدر منهم ـ فى سنة ٦١٢ ق٠م ـ «السلافيون» و « الجرمان » و « السلتيون » الذين انتشروا فى السهل الاوربى بفضل أسلحتهم المصنوعة من الحديد ٠٠ وهكذا ساد الهنود الاوربيون كل المنطقة من ساحل الاطلسى حتى نهر الجانجز قبل مولد المسيح بخمسمائة عام ٠٠ ومنهم انحدرت أصول الشعوب العظيمة كلها ٠٠

وبهذا الفصل نكون قد فرغنا من الحديث عن العالم القديم ، متناولين حضاراته المختلفة فى وديان النيل ودجلة والفرات والاندوس والنهر الاصفر وحضارات البحر المتوسط ، وانحدار الرعاة من آسيا الى أوربا والشرق الاوسط ٠٠ وسنبدأ معا فى الشهر القادم مرحلة جديدة فى التاريخ القديم ، هى « عصر الاغريق »

« يتبع »

من أمثلة الغرب ٠٠

- يستطيع الناس تحمل كل شىء ٠٠ الا الايام الحسنة !!
- الطبيب الصغير يحتاج الى جبانة كبيرة !
- من يرغب فى ان يصير ضرغاما عظيما ، عليه أولا وقبل كل شىء، أن يأكل ثعابين صغيرة كثيرة !
- الراحة العظمى تأتى من قلة الفضول ٠
- من يثبت نظره الى الذهب ٠٠ يفقد بصره !
- البيت الجديد يجب ان يسكنه فى العام الاول عدو ، وفى العام الثانى صديق ، وتسكنه أنت فى العام الثالث !
- الزواج مرة واجب ، ومرتين حماقة ، وثلاث مرات جنون ٠
- من يكسب دائما ٠٠ ليس تاجرا !
- من ينتشل خنزيرا من النهر ، يحصل على القذارة مقابل الشكر!!
- من الأفضل أن نبدأ بحقيبة فارغة من ان ننتهى بها !
- يعطى الرب الطيور طعامها ٠٠ ولكن عليها ان تطير بحثا عنه ٠



الفجر ، فى ضواحى « زيورخ » بسويسرا



موت البجعة !

لوحة للرسام لافيرى (بمتحف تيت ، بلندن) تمثل الراقصة العالمية « انا بافلوفا » فى احدى رقصات الباليه المشهورة



لوحة الغلاف

«صورة الفنانة وابنتها».. هذا هو العنوان الذى أطلقته «مدام فيجيه لوبران» ١٧٥٥ - ١٨٤٢ على لوحتها هذه التى تنطوى بالجلال، والرقة. وقد كانت مدام فيجيه لوبران الرسامة المفضلة لدى «مارى انطوانيت» وحاشيتها من نساء البلاط والمجتمع الرفيع.. نساء عصر الثورة، والزهجرة، والمقصلة !.. وقد تلقت «فيجيه» التوجيهات الفنية الأولى من ابيها - الذى كان رساما - ثم من أساتذة أكاديمية الفنون الجميلة.. وحين ذاع صيتها صارت أشهر شخصيات باريس واجمل حسانها يضربن المواعيد للقاء فى مرسمها !.. وعندما نشبت الثورة اضطرت إلى الفرار من فرنسا إلى حيث قضت سنوات طويلة فى بلاد أوروبا المختلفة، ترسم صور ملوكها ونبلائها.. لكن نجمها أفل فى عهد نابليون، ثم استردت مجدها بعودة الملكية. ولعل اروع صورة تبرز طابع الرقة والحساسية الذى ساد عصرها هى هذه اللوحة التى رسمتها لنفسها، والتى تحتضن فيها ابنتها بذراعيها الجميلتين.. فى رقة وعذوبة بالغتين.

كتابى

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩